نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الجزء الأول

العلم والمعرفة

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
بمساعدة مجموعة من الفضلاء

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات القرآن:اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

موسسه ابی صالح النشر و الثقافه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

نفحات القرآن المجلد ۱

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵
عنوان و نام پدیدآور : نفحات القرآن اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم ناصر مکارم شیرازی بمساعده مجموعه من الفضلا
مشخصات نشر : موسسه ابی‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].
مشخصات ظاهری : ج ۶
وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عربی مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فی القران .-- ج ۲. معرفه الله فی القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فی القرآن موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۱۳۷۱۱

المقدمة:

اشارة

۱- أنواع التفسير.
۲- ما هو التفسير الموضوعى؟
۳- ما هى المشكلات التى يمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعى؟ (و كيفية الاستفادة من هذا النوع من التفسير).
۴- تاريخ التفسير الموضوعى.
۵- الاسلوب الأمثل فى التفسير الموضوعى.
۶- العقبات التى تعترض التفسير الموضوعى.
۷- لماذا لم يتطور هذا اللون من التفسير؟

أنواع التفسير:

عندما نريد الحديث عن تفسير القرآن الكريم يتبادر إلى الذهن التفسير المتعارف (التفسير الترتيبى) حيث تجرى عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتمّ توضيح مضمونها وماهيتها، وهو الاسلوب المتَّبع فى تفسير القرآن منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، وقد قام علماء الإسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان «تفسير القرآن الكريم» على هذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التفسير الرائج إلى حدّ ما والذى يهدف إلى تفسير «مفردات القرآن»

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶

أى أنّه يتناول كلمات القرآن كلٌّ على حدة وبالتسلسل حسب الحروف الأبجدية وعلى هيئة مُعْجم، ومن أبرز نماذج هذا التفسير هو كتاب «مفردات الراغب» و «وجوه القرآن» و «تفسير غريب القرآن» للطريحى، وأخيراً كتاب «التحقيق فى كلمات القرآن الكريم» و «نثر

طوبى» أو «دائرة معارف القرآن الكريم».

بينما توجد هناك أنواع اخرى من تفسير القرآن منها «التفسير الموضوعى» الذى يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم على أساس مختلف المواضيع المتعلقة باصول الدين وفروعه والامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وهناك نوع آخر من التفسير نطلق عليه «التفسير الإرتباطى» أو التسلسلى، حيث يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها.

فعلى سبيل المثال، بعد بحث موضوع «الإيمان»، و «التقوى و «العمل الصالح» كلٌّ على حدة فى التفسير الموضوعى تتمّ عملية بحث علاقة هذه المواضيع الثلاثة ببعضها من خلال الإعتماد على الآيات والملاحظات الواردة فى ذلك، ومن المسلَّم أنّ حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها تكون بالغة الأهمية والفائدة.

إنّ أفضل طريقة للبحث حول عالم الخلقة والتكوين وما يتضمنه ويحويه من كائنات هو دراسة العلاقة بين هذه الكائنات التى تؤلف هذا العالم، ففى الحقيقة أنّ الشمس والقمر والأرض والإنسان والمجتمعات البشرية هى موجودات لا تنفصل عن بعضها البعض وهى تشكِّل فى مجموعها كياناً واحداً مترابطاً، والاسلوب الصائب فى دراستها هو أن نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها.

وهكذا الأمر فى كتاب «التدوين» أى القرآن الكريم، فهنالك علاقات دقيقة وظريفة بين مواضيع القرآن الكريم، ولابدّ من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها.

النوع الآخر من التفسير هو «التفسير العام» أو «الرؤية الكونية للقرآن» وهنا يتناول المفسّر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر وضوحاً: يربط كتاب «التكوين» مع كتاب «التدوين» وينظر إليهما معاً، وتتم دراستهما من حيث ارتباطهما ببعضهما.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٧

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك خمسة أنواع من التفاسير:

١- تفسير مفردات القرآن.

٢- التفسير الترتيبى.

٣- التفسير الموضوعى.

۴- التفسير الإرتباطى.

۵- التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأوّل والثّانى، وإلى حدٍ ما النوع الثالث، أى أنّ التفسير الموضوعى لا زال يسير فى مراحله الأولية، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجياً من خلال الإهتمام الذى أولاه علماء الإسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجد والمثابرة، وأن يحتل مكانه اللائق فى المستقبل القريب.

أمّا النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيا باهتمام المفسّرين بعد، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر وأجيال المستقبل بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعى بما فيه الكفاية، ويقوموا باداء حقّهِ بالقدر المستطاع.

ما هو التفسير الموضوعى؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُرتب القرآن باسلوب موضوعى يشبه الكتب المتداولة؟ بل أنّه جمع بشكل يختلف عنها جميعاً.

والجواب هو: إنّ المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة فى حقل واحد من أجل اعداد الكتب

المتداولة، فمثلًا فى علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الأمراض التى ترتبط بمسألة صحة الإنسان» ثمّ تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع على فصول وأبواب (أمراض القلب، الأمراض العصبية، أمراض الجهاز الهضمى، أمراض جهاز التنفس، الأمراض الجلدية وسائر الأمراض).

ومن ثمّ يبحثون كلَّ فصلٍ وكلَّ بابٍ من خلال الاعتماد على المقدّمات ونتائجها وبهذا

نفحات القرآن، ج١، ص: ٨

النحو يتمّ تأليف كتاب باسم كتاب «الطب».

بيد أنَّ القرآن ليس كذلك، فهذا الكتاب نزل على مدى ٢٣ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة، والمراحل التربوية المتفاوتة، وكافة شؤون حياة المجتمع الإسلامى، وفى نفس الوقت لم يتعلق بزمانٍ ومكانٍ معينين!

ففى وقت تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنية والشرك وبيان التوحيد بكل فروعه، والسّور والآيات النّازلة فى هذه المرحلة كلّها فى المبدأ والمعاد: (كالسور التى نزلت فى مكّة خلال السنوات الثلاث عشرة الاولى من البعثة).

وفى زمان آخر نرى محور البحث والحديث ساخناً وقوياً حول الجهاد وكيفية مواجهة الأعداء فى الداخل والخارج والمنافقين.

وعندما تقع غزوة الأحزاب فتنزل سورة الأحزاب، وما لا يقل عن ١٧ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وحينما جرت واقعة صلح الحديبية نزلت سورة الفتح وبعدها فتح مكّة وغزوة حنين نزلت سورة الإخلاص وآيات اخرى.

والخلاصة، فتزامناً مع انتشار الإسلام والتحرك العام للمجتمع الإسلامى كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة، وهذا ما كان يكمّل المسيرة التكاملية للإنسان.

واستناداً إلى ما ذكرنا آنفاً، يتضح المغزى من التفسير الموضوعى وهو جمع الأحداث والوقائع المتعلقة بذلك الموضوع وترتيبها لتتجلى وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده.

فمثلًا، تُجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة اللَّه كالفطرة، وبرهان النظم وبرهان الوجوب والإمكان وباقى البراهين، وحيث إنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع «١».

---

(١). لقد رويت عبارة «القرآن يفسّر بعضه بعضاً» عن ابن عباس، وليس من المستبعد أن يكون قد أخذها عن النبى صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام نتيجة لعلاقته القوية معهما فى مسائل القرآن، كما ورد مضمونها فى نهج البلاغة حيث يقول: «وَذَكرت أنّ الكتاب يصدّقُ بعضُه بعضاً» (نهج البلاغة، الخطبة ١٨) وقد أورد بعض العلماء فى كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» على أنّها حديثٌ، كما فى صفحه ١٠۶ من كتاب (تنزيه التنزيل) للمرحوم الشهرستانى، إذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون أن ترد عليها مؤاخذة، كما تُلاحظ فى نهج البلاغة إشارة اخرى إلى هذا الأمر، حينما يقول بشأن القرآن الكريم: «وينطقُ بعضه ببعض ويشهد بعضُه على بعض» (نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣).

نفحات القرآن، ج١، ص: ٩

وهكذا بالنسبة للآيات المتعلقة بالجنّة أو النار، والصراط وصحيفة الأعمال، والآيات المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والتقوى وحسن الخلق والشجاعة، و ... والآيات المتعلقة بأحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الأعداء وجهاد النفس و ...

والمسلّم به أنّ هذه الآيات التى نزلت فىمناسبات مختلفة، عندما تُجمع كلُّ طائفةٍ منها على حدةٍ وتنظم وتُفسَّر فسوف تنكشف عنها حقائق جديدة، ومن هنا تتّضح أهميّة التفسير الموضوعى، حيث سيأتى الكلام عنه فى البحث الآتى إن شاء اللَّه.

ما هى المشاكل التى يُمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعى؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضحٌ للغاية من خلال ملاحظة ما مرَّ ذكره آنفاً، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغى الالتفات إلى هذا الأمر وهو:

إنّ الكثير من آيات القرآن الكريم تتناول بُعداً واحداً من أبعاد موضوع ما، فمثلًا، فيما يخص مسألة «الشفاعة» فقد ورد فى بعض الآيات أصل إمكان الشفاعة.

وفى البعض الآخر «شروط الشفاعة» (سبأ ٢٣، مريم ٧٨).

وفى بعضها شروط «المشفَّع لهم» (الأنبياء ٢٨، غافر ١٨).

وفى بعضٍ تُنفى الشفاعة عن الجميع ما عدا اللَّه تعالى (الزمر ۴۴).

وفى بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير اللَّه (المدثر ۴٨).

نجد أنَّ حالةً من عدم الوضوح تحيط بأُمور الشفاعة بدءً من حقيقة الشفاعة وحتى سائر الشروط والخصوصيات الاخرى ولكن عندما نأخذ آيات الشفاعة من القرآن

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠

ونضعهاجانب بعضها ونفسّرها على ضوء بعضها البعض يرتفع هذا الغموض ويحلّ الابهام على أحسن وجه.

وكذلك الآيات المتعلقة بالجهاد، أو فلسفة أحكام وتعاليم الإسلام، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ، أو مسألة علم اللَّه، وكذلك موضوع علم الغيب، وهل أنّ العلم بالغيب ممكنٌ لغير اللَّه أم لا؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع فى جانبٍ فمن الممكن أداء حق هذا الموضوع وحل الإشكالات الموجودة عن طريق التفسير الموضوعى.

وعلى هذا الأساس فإنّ الآيات المتعلقة ب «المحكم» و «المتشابه» والتى تدعو تفسير «المتشابهات» بالاستعانة «بالمحكمات» يعدُ نوعاً من التفسير الموضوعى.

ومن هنا يبدو أنّه من خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما بالاستعانة بالآيات الاخرى تنبثق عنها معارف وعلوم جديدة، هذه العلوم تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية وأحكام الإسلام.

من هذا الباب يُمكن تشبيه آيات القرآن بالكلمات المتفرقة، حيث إنَّ لكلٍّ منها مفهوماً ذاتيّاً، ولكن حينما تُرتَّبُ وتجمع فى جمل مفيدة فهى تُعطى مفاهيم جديدة.

أو تشبيهها بالعناصر الحياتية مثل «الاوكسجين» والهيدروجين» التى حينما تتفاعل مع بعضها ينتج عنها الماء الذى هو عنصر حياتى آخر.

خلاصة القول إنّه لا يمكن حلّ الكثير من اسرار القرآن إلّاعن هذا الطريق، ولا يُمكن النفوذ إلى مكنوناتها إلّامن خلال هذا السبيل، ونعتقد بأنّ هذا القدر كافٍ لتوضيح أهميّة التفسير الموضوعى.

وباختصار يمكن تلخيص فوائد التفسير الموضوعى فى النقاط التالية:

١- إزالة الإشكالات التى تبرز فى بعض الآيات للوهلة الولى وحلّ أسرار وأَلغاز المتشابه فى القرآن.

٢- الاطّلاع على خفايا ودقائق وعلل وأسباب ونتائج المواضيع والقضايا المختلفة الواردة فى القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١

٣- الحصول على معلومات جامعه لمواضيع مختلفة مثل «التوحيد» و «معرفة اللَّه» و «المعاد» و «العبادات» و «الجهاد» و «الحكومة الإسلامية» وعلوم مهمّة اخرى

۴- کشف أسرار وخفایا جدیدة من القرآن من خلال الجمع بین الآیات.

تاریخ التفسیر الموضوعی:

یمکننا ملاحظة نماذج من التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم فی نفس آیات القرآن الکریم حیث أمرت هذه الآیات بتفسیر المتشابه منها بالمحکم، ویعد هذا الاسلوب نوعاً من التفسیر الموضوعی.

وفی کلام أئمّة الهدی علیهم السلام أمثلة کثیرة تهدینا إلی اسلوب جمع الآیات المتعلقة بموضوع معین وترتیبها ثم الاستفادة منها، ولأجل إثبات هذا الأمر نکتفی بذکر عدد من الأمثلة:

۱- فی الروایة المعروفة «۱» بعنوان وصیّة النبی صلی الله علیه و آله وموعظته لعبداللّه بن مسعود المذکورة فی بحار الأنوار- وهی روایة طویلة وکثیرة المضامین، وفیها أمثلة کثیرة بنحو یمکن القول أنّ الروایة تدور حول محور التفسیر الموضوعی- عندما یتکلم صلی الله علیه و آله عن ذم الدنیا حیث یقول: «یا ابن مسعود إنّ الأحمق من طلبَ دنیا زائلة»، ثم یستدل علی هوانِ الدنیا وزخارف هذا العالم بالآیات التالیة:

«اعلَمُوا أَنَّما الحَیَاةُ الدُنیا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزینَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَیْنَکُمْ وَتکَاثُرٌ فی الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ...». (الحدید/ ۲۰)

«وَلَوْ لَاأَنْ یَکُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحمنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَیْهَا یَظْهَرُونَ* وَلِبُیُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَیْهَا یَتَّکِئُونَ . (الزخرف/ ۳۳ و ۳۴)

«مَنْ کَانَ یُرِیدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِیْهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُّرِیدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ یَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً». (الاسراء/ ۱۸)

وفی محل آخر یتحدث عن (القول بغیر علم)، ویقول صلی الله علیه و آله: یا ابن مسعود لا تقل شیئاً

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۹۴.

بغیر علم ولا تتفوه بشیء ما لم تسمعه وتراه، ثم یذکر آیات عدیدة حول هذا الموضوع:

قال تعالی: «وَلَا تَقْفُ مَا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ کُلُّ أُولئِکَ کَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». (الاسراء/ ۳۶)

وقال تعالی: «سَتُکْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَیُسْئَلُونَ . (الزخرف/ ۱۹)

وقال تعالی: «مَّا یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَیهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ». (ق/ ۱۸)

وقال تعالی: «وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِیدِ». (ق/ ۱۶)

وکذلک ذکرت الروایة ابحاثاً حول الذکر والإنفاق فی سبیل اللّه، ومکارم الاخلاق وغیرها اعتماداً علی جمع الآیات وتبویبها.

۲- جاء فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام تقسیم لمعنی «الکفر فی القرآن المجید»:

إنّ الکفر فی القرآن علی أربعة أقسام:

الأوّل: الکفر بمعنی الجحود والانکار، وهو علی قسمین:

أ) إنکار اصل وجود اللّه والجنّة والنار والقیامة کما یحکی القرآن عن لسانهم «وَمَا یُهْلِکُنَا إِلَّا الدَّهْرُ». (الجاثیه/ ۲۴)

ب) الکفر المقارن للمعرفة والیقین کما جاء فی القرآن:

«وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَیْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً». (النمل/ ۱۴)

الثانی: الکفر بمعنی المعصیة وترک الطاعة کما أخبر اللّه سبحانه عن قوم من بنی اسرائیل یؤمنون ببعض الکتاب ویکذبون ببعض اذ یقول سبحانه: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتَابِ وَتَکْفُرونَ بِبَعْضٍ . (البقرة/ ۸۵)

الثالث: الكفر بمعنى البراءة والتنصُّل كما قال سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام «كَفَرْنَا بِكَمْ . (الممتحنة/ ۴)
وقال سبحانه أيضاً «يَوْمَ القيامَةِ يَكْفُرُ بعْضُكمْ بِبَعْضٍ . (العنكبوت/ ۲۵)
الرابع: الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قال سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ
نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳
كَفَرْتُمْ انَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ». (ابراهيم/ ۷)
ثم يجمع عليه السلام الآيات الواردة فى الشرك وأقسامه فى القرآن فيقسمها إلى الشرك فى العقيدة، والشرك فى العمل، والشرك فى الطاعة، وشرك الرياء، ويوضح كلًا منها بذكر الآيات القرآنية «۱».
وكما تلاحظ فإنّ الإمام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقى نظرة كلية على هذا الموضوع، ويوضح بأنّ لهذين المصطلحين مفهوماً واسعاً شاملًا، فالكفر يشمل كل اخفاء للحق سواء كان فى العقائد أو فى العمل أو فى المواهب الإلهيّة، والشرك يعنى أن نجعل للَّه شريكاً أو نداً سواءً كان فى العقائد أو فى العمل أو الطاعة للقوانين، ويتضح جيداً بهذا العرض الجميل للتفسير الموضوعى فى المثالين المذكورين لكلمات الإمام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير فى سعة ذهنية الإنسان والفهم العميق للآيات القرآنية.
والنموذج البديع الآخر ما ورد فى كلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع هشام بن الحكم.
فالإمام عليه السلام وفى مقام بيان منزلة العقل يذكر الآيات المرتبطة ب «اولى الألباب» ويجمعها كلها ويقول لهشام: «أنظر كيف أنّ اللَّه سبحانه وصف اولى الأَلباب على أحسن وجه وزينهم بأفضل لباس»، ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزلة اولى الألباب وهى (البقرة/ ۲۶۹- آل عمران/ ۷- آل عمران/ ۹- المؤمن/ ۵۴) «۲».
فالقيام بجمع هذه الآيات والنظر اليها منضمة بعضها إلى البعض يعطى للإنسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى اولى الألباب ومقامهم ومنزلتهم، وهذا عمل لا يتمّ إلّاعن طريق التفسير الموضوعى.
هذه نماذج من اصول التفسير الموضوعى فى كلمات قادة الإسلام العظام، النبى صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام، وهناك نماذج عديدةٌ اخرى لم نذكرها تجنباً للاطالة.
ج ج

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۱۰۰- ۱۲۰ (خلاصة الحديث).
(۲). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۵ كتاب العقل والجهل.
نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴

التفسير الموضوعى فى كلمات العلماء السابقين:

لم يكن التفسير الموضوعى متداولًا إلّافى فترات محدودة وحول موضوعات خاصة، إلّا أنّه ورد كثيراً على ألسنة العلماء السابقين، ولكن يجب الاعتراف بأننا لا نعرف أحداً منهم تناول التفسير الموضوعى فى جميع المجالات.
ومن الروّاد الأوائل فى هذا المضمار، العلّامة المجلسى قدس سره حيث نراه قد تصدى لجمع كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع عند دخوله فى كل فصل من فصول بحار الأنوار، ثم يلقى عليها نظرة شاملة وينقل أحياناً آراء المفسرين، ويسعى لتوضيح ما يذكره من الآيات.
فنرى مثلًا فى الجزء ۶۷ عندما يتكلم حول «القلب» والسمع» والبصر» ومعنى كلٍّ منها فى القرآن الكريم، يجمع عشرات الآيات ثم

يذكر رواية من الكافى ثم يقوم بذكر بيان جامع لها، فيستغرق بحثه فى هذا المجال عشر صفحات تقريباً «١».

وفى الجزء ٥٨ فى باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها يذكر أولًا أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث فى تفسيرها عدة صفحات «٢».

وفى الجزء ٢٢ فى الباب الأول يبحث عن ما جرى لليهود والنصارى والمشركين بعد الهجرة، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها «٣».

وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الاسلوب فى الفصول الاخرى من الكتاب.

ومن الأمثلة الاخرى للتفسير الموضوعى فى كلمات المتقدمين، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الأحكام، ففى هذه الكتب ذكرت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، مثل الآيات التى لها ارتباط بأجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم، والحج والنكاح والطلاق وأحكام الحدود والديات والقضاء وغيرها، حيث جمعت الآيات وتمّ بحثها على نحو موضوعى بالاستعانة ببعضها الآخر.

---

(١). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٧ إلى ٤٣.

(٢). المصدر السابق، ج ٥٨، ص ١٥١ إلى ١٥٨.

(٣). المصدر السابق، ج ٢٢، ص ١ إلى ٦٢.

ويبدو أنّ أوّل كتاب أُلّفَ فى هذا المجال هو كتاب (أحكام القرآن) تأليف (محمد بن صاحب الكلبى)، وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والمتوفى سنة ١٤۶ ه فهو سابق حتى للشافعى الإمام المعروف المتوفى سنة ٢٠۴ ه بتأليف كتاب فى هذا المجال.

وبعده تصدى العديد من الفقهاء والعلماء لتأليف الكتب فى مجال آيات الأحكام (تارة بهذا الاسم وتارة بأسماء اخرى وقد ذكر المرحوم المحدّث الطهرانى فى كتاب «الذريعة» ثلاثين كتاباً من هذه السلسلة «١»، واشهرها بين العلماء والفقهاء المعاصرين كتاب آيات الأحكام للمحقّق الأردبيلى قدس سره المسمى «زبدة البيان»، وآيات الأحكام للفاضل المقداد المسمى (كنز العرفان).

وجاء فى الكتاب الأخير أنّ مِن المشهور بين العلماء أنّه توجد خمسمائة آية فى القرآن المجيد حول الأحكام الفقهية، إذا أخذنا فى الحسبان الآيات المتكررة فى هذا المجال وإلّا فالعدد أقل من ذلك «٢».

وقد كُتب فى هذا المجال كتاب «إعجاز القرآن فى العلوم المعاصرة» وفيه الآيات ذات العلاقة بالاكتشافات العلمية المعاصرة، والتى تعدّ من المعجزات العلمية للقرآن، وكتاب «المجتمع والتاريخ» و «الحقوق فى القرآن المجيد»، وكلها تعبير عن السعى المستمر فى التأليف فى حقل التفسير الموضوعى.

كما ألفت كتب حول قصص القرآن تمّ فيها توضيح الوقائع الواردة فى قصص الأنبياء بواسطة جمع آيات القرآن.

ولكن مع هذا يجب الإذعان بأن كل هذه المحاولات ناظرة للتفسير الموضوعى فى مجال معين وزاوية محددة، وهى ليست بصدد تفسير جامع وشامل لكل موضوعات القرآن، وفى الفترة الأخيرة بذلت محاولات وجهود لتفسير القرآن تفسيراً موضوعياً واسعاً، وهذه الجهود تستحق كل تقدير.

---

(١). الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج ١، ص ۴٠- ۴۴.

(٢). كنز العرفان، ج ١، ص ۵.

ومن جملة هذه الكتب يمكن ذكر كتاب «مفاهيم القرآن» وقد صدر عدد من أجزائه بالفارسية والعربية وهو كتاب قيّم.
ولكن مع هذه المساعى التى تستحق التقدير يجب الاعتراف بأَنَّ مسألة التفسير الموضوعى للقرآن لا زالت فى مرحلة البداية، وتحتاج إلى زمان كى تحتل المكانة المناسبة لها كالتفسير الترتيبى، وهذا لا يتم إلّابالسعى المستمر الدائب للعلماء والمفسرين، وبالاستفادة من تجارب الماضين وتنميتها وايصالها إلى درجة الكمال المطلوب.
وما تراه فى هذا الكتاب هو حلقة من هذه السلسة التى نأمل لها أن تنضمَّ إلى الحلقات المعتبره الاخرى والمهم أن يتجنب أصحاب النظر والمعرفة الأعمال المكررة فى هذا المجال، وأن يبادر كل منهم إلى الإبداع والتجديد حتى نتمكن تحت ظل هذه الإبداعات أن نطوى هذا الطريق الطويل.

الاسلوب الصحيح فى التفسير الموضوعى:

يوجد اسلوبان للتفسير الموضوعى:
الاسلوب الأول: الذى اختاره بعض المفسرين فى عملهم، وهو أنّهم يتناولون المواضيع المختلفة كالموضوعات العقائدية (التوحيد والمعاد و ..) والموضوعات الأخلاقية (التقوى حسن الخلق و ...)، وبعد ذكر بحوث فلسفية وكلامية أو أخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان الشاهد على ذلك.
الاسلوب الثانى: وهو الذى يتمّ فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أجزاء القرآن، وقبل أىّ حكم أو ابداء نظر يتمّ جمع الآيات وتفسيرها مجتمعة، وبجمعها وملاحظة العلاقة فيما بينها نحصل منها على الصورة الكاملة.
وهنا لا يملك المفسّر شيئاً من عنده مطلقاً، ويسير كالظل خلف آيات القرآن فيفهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همّه كشف محتوى الآيات، وإذا أراد الإستعانة بآراء الآخرين
نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧
بل حتى بالأحاديث، فذلك فى المرحلة الثانية وبصورة مستقلة.
وقد إخترنا هذا الاسلوب فى (نفحات القرآن) حيث جمعنا كل الآيات الواردة فى كل موضوع وجعلناها فى مقدمة كل بحث، وجعلنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات، ونعتقد أن هذا هو السبيل الأمثل لإيصالنا إلى حقائق القرآن.
وهذان الاسلوبان متبعان فى التفسير المعتاد (التفسير الترتيبى حسب السور والآيات) فجماعة يحملون آيات القرآن على آرائهم وجماعة اخرى يجعلون آراءهم تابعة لآيات القرآن، ومن الواضح أنّ الاسلوب التفسيرى الصحيح هو الثانى.
القرآن (نور وكتاب مبين) فهو يبين كل الحقائق المرتبطة بسيادة الإنسان: «قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . (المائدة/ ١٥)

عقبات تواجه التفسير الموضوعى:

يواجه المفسّر فى طريقه ثلاث عقبات مهمّة.
١- ليس التفسير الموضوعى بأن تجعل فهارس الآيات أمامك وتجمع الآيات التى ورد فيها ذكر لكلمات المواضيع التى تريد البحث فيها، مثل الجهاد والتقوى لأنّ الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تُذكر فيها كلمة التقوى أو الجهاد، ولا بأس هنا أن نذكر مثالًا واحداً، نحن نعلم أنّ اللَّه سبحانه «رحمن» و «رحيم» و «أرحم الراحمين» وهذا المعنى وارد، فى الكثير من آيات القرآن، ولكن توجد آيات تبيّن هذه الحقيقة بدون استعمال مادة «رحم»، منها: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ» «١». (النحل/ ٦١)

---

(۱). لابـدّ من الإشارة إلى أنّ الآية الاولى تشير إلى ظلم الناس وفى الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب، ومن جمع الآيتين معا يظهر أنّ الكثير من الأعمال التى تصدر من الناس ليست خالية من نوع مِن أنواع الظلم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر فى الآية ۴۵ من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ».
هاتان الآيتان تشيران إلى رحمة اللَّه ولطفه المطلق على عباده من غير أن تُستعمل مادة (رحم) فى الآيتين.

۲- العقبة الاخرى التى تعترض التفسير الموضوعى مشكلة جمع الآيات وأخذ النتيجة منها، فهذه العملية تحتاج إلى دقة وظرافة وذوق ووعى كامل واحاطة تامّة بالآيات القرآنية والتفاسير، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيرة ويكون لكل منها بعدٌ خاصٌ بها فإنّ الجمع سيكون أكثر تعقيداً.

مضافاً إلى ذلك فإنَّ التفسير الموضوعى لا يزال يخطو خطواته الاولى ولم يُبذل فى هذا النطاق جهد وسعىٌ حثيث، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة للمبتدئين ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتّبع منذ نزول القرآن.

۳- العقبة الكبيرة الثالثة: إنّ موضوعات القرآن الكريم، هذا الكتاب الإلهى العظيم لا- حدّ لها ولا- حصر، ففيه المسائل العقائدية والعلمية، وفيه المسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآداب العشرة وأحكام الحرب والسلم وتاريخ الأنبياء وامور الكون و .. الخ.

وفى كل واحدة من هذه الامور موضوعات كثيرة بحثها القرآن، ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج إلى وقت طويل وصدر واسع.

وأحياناً تبحث الآية الواحدة فى التفسير الموضوعى أبحاثاً عديدة من جهات مختلفة، وفى كل بُعد من أبعادها يجب بحث فصل خاص به، فى حين تفسر الآية فى التفسير الترتيبى تفسيراً واحداً فقط.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹

لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟

يبدو أنّ جواب هذا السؤال قد اتّضح من الأبحاث السابقة، فالمشكلات الكثيرة التى تواجه التفسير الموضوعى، قد منعت من تطوره خاصة، وأنّ التفسير الموضوعى يحتاج إلى معاجم دقيقة وجامعة بحيث يمكن استخراج الآية منها بسهولة ولم تكن توجد فى السابق، ولكنها اليوم بحمد اللَّه فى متناول الأيدى.

ومن الطريف ما جاء فى مقدمة المعجم القرآنى المعروف ب «المعجم المفهرس لألفاظِ القرآن الكريم» حيث قال: (إنّ المتقدمين اهتموا كثيراً بالعلوم القرآنية ولكن لم يهتموا باعداد معجم دقيق لتعيين آيات القرآن، والسبب فى ذلك أنّ أغلبهم كان من حفظة القرآن)!

ولا نعلم مدى صحة هذا الرأى، ولو افترضنا كون الإنسان حافظاً للقرآن فهذا لا يجعله مستغنياً عن المعجم، الذى هو وسيلة لابدّ منها من أجل تسهيل عملية التفسير الموضوعى (وإن كانت بوحدها ليست كافية)، وهذا العمل لم يتم فى السابق إلّابنحو ناقص ودون الطموح أحياناً.

ولابدّ من الإشارة إلى مسألة هنا وهى أن جمعاً من المفكرين الغربيين والأجانب المحبين للقرآن المجيد بذلوا جهوداً من أجل إعداد معاجم لهذا الكتاب السماوى ومن نماذجها المعتبرة كتاب «نجوم الفرقان فى اطراف القرآن» إعداد المستشرق الالمانى «فلوگل» وتأليفات اخرى قام بها المسلمون مثل «مفتاح كنوز القرآن» وكتاب «فتح الرحمن».

وبناءً على ما ورد فى مقدمة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» فإنّ هؤلاء هم الذين مكنوا المؤلف من إعداد هذا المعجم الغنى البديع وجعلهِ فى متناول أيدى علماء الإسلام.

وآخر ما نقوله هنا هو أنّه على الرغم من جميع المشكلات والمعوقات الموجودة فى طريق التفسير الموضوعى، فإنّ بركاته ومعطياته كثيرة وبنفس النسبة وخاصة بالنسبة للعلماء والمحققين، حيث تنكشف لهم فى ضوئه الحقائق التى تزيدهم إيماناً وقوة ونشاطاً

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠

لمواصلة العمل، وتؤجج فى قلوبهم نار الشوق والمحبة حيث إنّ مَثَل الآية القرآنية عندما تتحدث حول موضوع ما لوحدها، كمثل النقطة التى إذا اجتمعت مع نقاط اخرى ورتبت كونت شكلًا جذاباً وصورة بديعة لم تكن موجودة من قبل، وهذا أمر مهمّ جدّاً ويبعث على النشاط والاشتياق، وكما ذكرنا فإنّ النبى صلى الله عليه و آله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، أرشدونا منذ البداية إلى التفسيرالموضوعى ووردت فى كلامهم نماذج مختلفة جميلة وجذابة وقد أشرنا إلى البعض منها.

ج ج

وحيث ننتهى من هذه المقدّمة نجد أنفسنا أمام هذا العمل العظيم المملوء بالمصاعب، ولا ريب فى أننا لا نستطيع- اعتماداً على أنفسنا- أن نحمل هذه الأمانة ونوصلها إلى الهدف إلّابلطف اللَّه وعونه وعنايته، ونحن هنا بكامل وجودنا نتوجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى ونمد إليه أيدينا قائلين.

إلهنا! خذ بأيدينا فى هذا الطريق، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، احفظنا فى هذا الطريق الكثير المزالق من السقوط فى وادى الضلالة، وتفضل علينا بالتوفيق لإتمام هذا العمل على النحو الأحسن.

آمين يا رب العالمين

قم- الحوزة العلمية- ناصر مكارم الشيرازى

٢٦/ محرم الحرام/ ١٤٠٨ ه

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١

كل عمل باسم اللَّه

تمهيد:

علّمنا القرآن الكريم فى بداية كل سورة (عدا سورة التوبة) وفى آيات كثيرة اخرى أن نبدأ عملنا باسم اللَّه وأن نعطّر أجواء قلوبنا وأرواحنا بطيب اسمه.

باسم «اللَّه» وهو الجامع للصفات الكمالية.

باسم «الرحمن» و «الرحيم».

باسمه الذى هوعلى كل شىء قدير.

باسمه الذى هو بكل شىء عليم.

إنّ هذا الاسم المقدّس ينوّر القلب ويهب للروح الصفاء والقوة والنشاط.

ذِكر رحمته الخاصّة والعامّة تبعث فى الإنسان عالماً من الأمل.

ذكر قدرته وجبروته يبعث فى الإنسان الجرأة لمواجهة المصاعب.

ذكر علمه واحاطته بكلِّ فرد وبكل شىء يُطمئِنُ الإنسان بأنّه ليس لوحده.

فإذا بدأنا عملنا بهذه الروح فاننا سنصل إلى الغاية المطلوبة بلا شك، وكل سعى وجهاد يبذل وفق هذا المنهج فسوف تكون نتيجته الموفقية والفلاح.

لذلک فقد ارتأینا أن أفضل ما نبدأ به بحثنا فی هذا الکتاب هو موضوع (بدایة کل عمل باسم اللَّه).

فنبدأ أولًا بمناقشة الآیات ذات العلاقة بهذا المعنی ثم نقوم بعملیة التفسیر والجمع، وفی المرحلة الأخیرة نذکر بحوثاً مکملة تحت عنوان «توضیحات» وسنواصل اتباع هذا الأسلوب بالترتیب المذکور إلی آخر الکتاب إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۲

الآیات:

۱- «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیم . (کل سور القرآن عدا سورة براءة)

۲- «إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ . (العلق/ ۱)

۳- «وَقَالَ ارْکَبُوا فِیهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَّحِیمٌ . (هود/ ۴۱)

۴- «قَالَتْ یَا أَیُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّی الْقِیَ إِلَیَّ کِتَابٌ کَرِیمٌ* انَّهُ مِنْ سُلَیمانَ وَانَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ* الَّا تَعْلُوا عَلَیَّ وَأْتُونِی مُسْلِمِینَ . (النمل/ ۲۹- ۳۱)

ج ج

شرح المفردات:

«الاسم»: یعتقد الکثیر من علماء اللغة أنّ هذه الکلمة فی الأصل مشتقة من مادة «سمو» (علی وزن علو) بمعنی الارتفاع، وحیث إنّ التسمیة سبب للمعرفة والظهور وعلو المنزلة لکل شیء استخدمت کلمة اسم فی هذا المعنی «۱».

«الرحمن» و «الرحیم»: کلمتان مشتقتان من مادة «رحمة» والمعروف أنّ (الرحمن) یعنی ذو الرحمة العامة الشاملة للجمیع، و (الرحیم) یوصف بها ذو الرحمة الخاصة، وعلی هذا رحمانیة اللَّه جعلت فیضه ونعمته شاملة للعدو والصدیق والمؤمن والکافر، ولکن رحیمیته أوجبت للمؤمنین مواهب خاصة فی الدنیا والآخرة فی حین أنّ هذه المواهب محرّمة علی الغافلین والبعیدین عن اللَّه.

والشاهد علی هذا الاختلاف ما یلی:

۱- «الرحمن» صیغة مبالغة والرحیم صفة مشبهة، وصیغة المبالغة تفید معنی التأکید

---

(۱). البعض یری أنّ الاسم من مادة (وَسْم) بمعنی (العلامة) ولکن یبدو أنّ هذا غیر تام لأنّ جمعه علی هیئة أسماء وتصغیره ب (سُمّی) و (سمّیه) یدل علی عدم وجود (الواو) فی أصله والبعض یعتبره مشتقاً من کلمة (شما) وهی اصطلاح عبری وعند التعریب صارت بهیئة اسم وسماء (التحقیق فی کلمات القرآن الکریم) ولکن هذا مستبعد أیضاً ولا شاهد علیه، والشاهد الآخر علی عدم کون الاسم مشتقاً من مادة (وسم) أنّ الهمزة فی اسم تسقط عند وصل الکلام ولو کانت من مادة (وسم) فالهمزة بدلًا عن الواو ولا ینبغی أن تسقط.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳

بنحو أکثر وتدل علی سعة هذه الرحمة، ولکن البعض یری أنّ کلیهما صفة مشبهة أو أنّ کلیهما صفة مبالغة، ولکن مع ذلک صرحوا بأنّ الرحمن تفید معنی المبالغة الکثیرة «۱».

۲- وقال البعض: إنّ الرحیم صفة مشبهة وتُفید الإستمرار والثبات، لذلک هی مختصة بالمؤمنین، لکن الرحمن صیغة مبالغة ولا تدل علی المعنی المذکور.

۳- «الرحمن» اسم خاص باللَّه ولا یطلق علی غیره، فی حین أنّ الرحیم یقال للَّهولغیره، وهذا دلیل علی أنّ مفهوم الرحمن یدل علی رحمة أوسع.

۴- هناك قاعدة معروفة فى الآدب العربى وهى: (زيادة المبانى تدل على زيادة المعانى)، يعنى أنّ الكلمة التى حروفها أكثر فإنّ مفهومها يكون أكبر وحيث إنّ (رحمن) خمسة أحرف و (رحيم) أربعة أحرف فمفهوم (رحمن) أوسع «۲».

۵- كما أنّ البعض استفاد هذا المعنى من آيات القرآن حيث إنَ (الرَّحمن)، ذكر غالباً بنحو مطلق، فى حين أنّ (رحيم) ذكر مقيداً فى كثير من الموارد، مثلًا، قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (البقرة/ ۱۴۳)

وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً». (النساء/ ۲۹)

أمّا الرحمن فذكر من غير قيود فهو يدل على عموم رحمته.

۶- وتشهد بعض الروايات على هذا الاختلاف، ففى حديث ذى مغزى ومعانٍ عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «الرحمن اسمٌ خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة» «۳».

ولكن مع هذا لا يمكن أن ننفى استخدام الكلمتين فى معنى واحد، كما ورد فى دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عرفة: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» ويمكن أن يعدّ هذا استثناءً فلا ينافى الاختلاف المذكور.

«مجراها» و «مرساها»: كلتا الكلمتين اسم زمان أو اسم مكان بمعنى مكان الحركة

---

(۱). راجع تفاسير مجمع البيان وروح المعانى والميزان، ج ۱، ص ۲۰ و ۵۵ و ۱۶ على التوالى.

(۲). تفسير شبّر، ص ۳۸؛ روح المعانى، ج ۱، ص ۵۶.

(۳). تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴

وزمانها، أو مكان التوقف وزمانه «۱».

الاولى مشتقة من مادة (جريان) والثانية من مادة (رسو) على وزن (رَسم) بمعنى الثبات والاستقرار، لذلك يقال للجبال (الرواسى) جمع (راسية) لأنّها ثابتة ومستقرة.

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا نبدأ فقط باسم اللَّه؟

فى الآية الاولى (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) التى تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعنى نعلمكم أن تبدأوا عملكم باسم اللَّه الرحمن الرحيم وتستعينوا به فى أداء عملكم وتنفيذ خططكم «۲».

إنّ أعمالنا مهما تكن فهى فانية زائلة وصغيرة محدودة، أمّا عندما ترتبط بالذات القدسية الباقية الخالدة التى لا حدّ لها ولا نهاية، فانّها ستصطبغ بصبغته وتستلهم من عظمته وازليته.

قدراتنا مهما تكن فهى ضعيفة لا تمثل إلّاقطرة فى بحر، لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدرة الإلهيّة فانّها ستجد العظمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله سرُ بسم اللَّه فى بداية كل عمل.

ج ج

فى الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل الأمين فى بداية البعثة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما احتضن النبى وضمه وقال: «إِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ .

وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثة النبى صلى الله عليه و آله باسم اللَّه.

ج ج

(١). قال بعض المفسرين إنّها اسم زمان فقط كما فى (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما فى (الميزان) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما فى (تفسير شبّر).

(٢). البعض يعتقد أنّ هناك جملة محذوفة وهى (ابتدىء)، والبعض قال هى (استعينُ)، نعم فى صورة كون الجملة عن اللَّه سبحانه (كما فى جميع السور عدا الحمد) فحينئذ يتعيّن المعنى الأول ولكن فى خصوص سورة الحمد حيث إنّ الجمله تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنى الأول أو الثانى أو كلاهما وعلى هذا فإنّ (ب) فى بسم اللَّه إمّا بمعنى الاستعانه أو بمعنى الإبتداء (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥

الآية الثالثة تتحدث عن قصّه نوح عندما حلت لحظة الطوفان والجزاء الإلهى الشديد على قومه الكفرة والطغاة، وعندما استعدت السفينة للحركة وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بأن يركبوا فى الفلك قال (بسم اللَّه مجريها ومرسها) ثم استعان بمغفرة اللَّه ورحمته وقال: «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

ج ج

وفى الآية الأخيرة كلام عن كتاب سليمان إلى ملكة سبأ بعد أن أخبره الهدهد عن قوم سبأ وعبادتهم للاصنام.

وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت أعوانها وافراد البلاط وقالت: «يَا أَيُّهَا المَلَؤُا إِنِّى أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* إِنَّهُ مِنْ سُلَيَمانَ وانَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .

ج ج

من مجموع الآيات الأربع المذكورة ندرك جيداً أنّ ابتداء كل عمل يجب أن يكون ب (بسم اللَّه)، سواء كان فى التعليم والهداية مثل سور القرآن أو كان دعاءً من العباد مع الذات القدسية مثل سورة الفاتحة، أو بداية البعثة والرسالة وأول نداء للوحى مثل بداية سورة العلق، أو أنّه بداية الحركة للنجاة من الأخطار والطوفان وبداية توقف السفينة والنزول منها للابتداء بالمنهج الجديد كما فى قصة نوح، أو ابتداء الكتاب المرسل من أجل الدعوة للتسليم إلى الحق كما فى كتاب سليمان لملكة سبأ.

وخلاصة الكلام أنّ العمل سواء كان من اللَّه سبحانه أو من الخلق أو من جبرئيل أو من الأنبياء مثل نوح وسليمان أو من عامة الأفراد، يجب أن يبدأ ب (بسم اللَّه) ويرتبط بالذات المقدَّسة ويستمد منه القوّة والعلم والإدراك.

وهذا هو معنى الحديث المعروف للنبى صلى الله عليه و آله: «كل أمر ذى بال لم يذكر فيه اسم اللَّه فهو ابتر» «١».

(١). سفينة البحار، ج ١ مادة (سما).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦

والأمر الذى ينبغى ملاحظته أنّ الصفات التى ذكرت بعد بسم اللَّه فى الآيات المذكورة تناسب العمل الذى بدأ ب (بسم اللَّه) ففى قصة نوح جاء ذكر (غفور رحيم) وهو إشارة شمول الرحمة الإلهيّة لأصحاب نوح، وفى قصة نزول أول آية جاء ذكر صفة الربوبية والخالقية ونحن نعلم أنّ مسألة الوحى بداية لعمل تربوى وعلى هذا فإنّ التربية التشريعية تقترن بالتربية التكوينية.

وبهذا نعلمُ أنّ الاستفادة من ذكر الصفات المناسبة هو بمثابة درس للجميع حول كيفية ابتداء أعمالهم ب (بسم اللَّه).

ج ج

توضيحات

١- الأهميّة الخاصة ل «البسملة»

نلمس في الروايات الإسلامية أهميّة كبيرة لهذه الآية المباركة وأنّها في درجة (اسم اللَّه الأعظم)، كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم اللَّه الأعظم من ناظر العين إلى بياضها» «١».

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «أقرب من سواد العين إلى بياضها» «٢».

إنّ ل (بسم اللَّه) أهميّة بالغة إلى درجة بحيث أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ في تركها تعريض النفس للعقاب الإلهي، كما ورد في رواية أنّ عبداللَّه بن يحيى دخل في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام وكان أمامه سرير فأمره الإمام أن يجلس عليه فتحطم السرير فجأة ووقع عبداللَّه على الأرض وجرح رأسه وخرج منه الدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمير يده على الجرح فأحس عبد اللَّه بألم شديد في أوّل الأمر ثم بريء جرحه فقال الإمام عليه السلام: «الحمد للَّهالذي يغسل ذنوب شيعتنا ويطهرها بالحوادث المؤلمة».

---

(١). تفسير البرهان، ج ١، ص ٤١، ح ٢.

(٢). المصدر السابق، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧

فقال عبد اللَّه: يا أمير المؤمنين لقد نبهتني، أخبرني أي ذنب ارتكبته حتى أصاب بهذا الحادث المؤلم كي لا- أعود إلى ذنبي فإنّ ذلك يسعدني.

فقال عليه السلام: «عندما جلست على السرير لم تقل: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) ألم تعلم أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال عن لسان ربّه: (إنّ كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه ببسم اللَّه فهو أبتر ولا ثمرة فيه)».

فقال عبد اللَّه: فديتك لا أدعها بعد هذا أبداً.

فقال الإمام عليه السلام: «إذن ستكون سعيداً» «١».

ولكن من الواضح أنّ الاسم الأعظم أو بسم اللَّه الذي هو أقرب ما يكون إليه ليس المقصود منه جريان ألفاظه على اللسان، فالتلفظ لوحده لا يحل العقد المستعصية ولا يفتح أبواب الخيرات والبركات ولا ينتظم به شتات الأمور، بل المراد هو التخلق به.

يعني أنّ مفهوم بسم اللَّه يجب أن يذوب في روح الإنسان وباطنه، وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر أنّ كامل دقائق وجوده قد دخل في الحِمى الإلهيّة وصار من أعماق وجوده يستمد من ذاته المقدّسة.

وينبغي الانتباه إلى أنّ التأكيد على الابتداء ببسم اللَّه ليس فقط في الكلام وإنّما في الكتابة أيضاً كما في كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس.

في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع البسملة ولو كتبت شعراً» ثم ذكر الإمام عليه السلام أنّهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الإسلام بعبارة (بسمك اللهم).

ولما نزلت الآية الكريمة «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وإِنَّه بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم ، بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم اللَّه).

وفي حديث آخر نقرأ أنّ الإمام الهادي عليه السلام وصى أحد وكلائه وهو داود الصرّمي الذي قال: أمرني عليه السلام بحوائج كثيرة فقال لي: قل كيف تقول؟، فلم أحفظ مثل ما قال لي، فمدّ الدواة وكتب «بسم اللَّه الرحمن الرحيم اذكر إن شاء اللَّه والأمر بيد اللَّه، فتبسمت، فقال: «ما

---

(١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٥ مع التلخيص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٨

لک» قلت خیر. فقال: «أخبرنی». قلت: جعلت فداک ذکرت حدیثاً حدثنی به رجل من أصحابنا عن جدک الرضا (علیه السلام) إذا مرّ بحاجة کتب: «بسم اللَّه الرحمن الرحیم اذکر إن شاء اللَّه فتبسـمت، فقال لی: «یا داود لو قلت إنّ تارک التسـمیة کتارک الصلاة لکنت صادقاً» «١».

إنّ لبسم اللَّه أهمیّـة بالغـة وعظیمـة بحیث نقرأ فی حـدیث عن رسول اللَّه صـلى الله علیه و آله أنّه قال: «إذا قال المعلّم للصبی بسم اللَّه الرحمن الرحیم (ویکرر الطفل ذلک) کتب اللَّه براءة للصبی وبراءة لأبیه وبراءة للمعلِّم» «٢».

ونختم هذا الکلام، بمقالة مشهورة بین جماعة من المفسرین وهی:

إنَّ معانی کل الکتب الإلهیّة مجموعة فی القرآن.

ومعانی کل القرآن مجموعة فی سورة الحمد.

ومعانی کل سورة الحمد فی بسم اللَّه.

ومعانی بسم اللَّه مجموعة فی الباء «٣».

وتمرکز جمیع مفـاهیم القرآن والکتب الإلهیّـة فی بـاء بسم اللَّه یمکن أن یکـون لکـون أن کـل المخلوقـات فی عـالم التکوین، وکل التعلیمات فی عالم التشریع تستمد وجودها من الذات المقدّسة حیث إنّها علة العلل لجمیع الکائنات، ونعلم أن باء بسم اللَّه هی الوسیلة للاستعانة وطلب النصرة من اللَّه وهذه مسألة جدیرة بالدقة والتأمل.

٢- هل أنّ بسم اللَّه جزء لکلِّ سورة؟

لم یعدّ المفسرون وعلماء العلوم القرآنیة البسملة من آیات السور عند حسابهم للآیات القرآنیه إلّافی سورة الفاتحة، التی أجمع الفقهاء واتفقوا على أنّ البسمله جزء منها ولذلک

---

(١). سفینة البحار، ج ١، ص ٦٦٣، مادة (سما).

(٢). تفسیر البرهان، ج ١، ص ٤٣، ح ٣٢.

(٣). تفسیر روح المعانی، ج ١، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩

فقد ذکروا أنّ آیاتها سبع ومنها البسملة.

وکذلک فإنَّ أحد الأسماء المعروفة لهذه السورة هو «السبع المثانی» لأنّها سبع آیات «مثانی»، لأنّها نزلت على رسول اللَّه صلى الله علیه و آله مرتین نظراً لاهمیّتها.

ولکن مع هذا فإنّ کتابة البسملة فی جمیع المصاحف القدیمة والجدیدة دلیل قاطع على جزئیتها للسور.

روی عن عبـد اللَّه بن عمر، أنّه کان إذا بـدأ الصـلاة بعد التکبیر قرأ بسم اللَّه الرحمن الرحیم، وکان یقول إذا لم تقرأ بسم اللَّه الرحمن الرحیم فلماذا کتبت فی القرآن؟! «١».

واورد السـیوطی فی المجلد الأول فی تفسـیره الدر المنثور وهو عالم معروف من أهل السـنة روایات کثیرة حول جزئیة بسم اللَّه لسورة الحمد.

وهناک روایات کثیرة من طرق أئمّـة الهـدى وأهل البیت علیهم السـلام وردت فی جزئیـة بسم اللَّه لسورة الفاتحـة ولبقیـة سور القرآن الکریم، لذلک فإنّ علماء الشیعة متفقون ومجمعون على جزئیتها فی جمیع الموارد «٢».

ونـذكر مثالًا على الأحاديث الواردة من طرق أهل السـنة ما ورد عن «جابر بن عبـد اللَّه» أنّ النبى صـلى الله عليه و آله قال له: «إذا قمت للصـلاة فكيف تقرأ؟» فقـال جـابر: أقول الحمـد للَّهربّ العالمين (أى بـدون بسم اللَّه) فقال له النبى صـلى الله عليه و آله قل: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «۳».

ومن أجل رفع سوء الفهم والتوهم أصرَّ النبى صلى الله عليه و آله أن يجهر بالبسملة فى كثير من الصلوات، تقول عائشة: «ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يجهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم» «۴».

وفى حديث آخر يقول أحد أصحاب النبى صلى الله عليه و آله: كنت اصلّى خلف النبى صلى الله عليه و آله وكان

(۱). سنن البيهقى، ج ۲، ص ۴۳- ۴۷.

(۲). راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسى، ج ۱، ص ۱۰۲ مسألة ۸۲؛ سنن البيهقى، ج ۲، ص ۴۴- ۴۵- ۴۶؛ تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۷- ۸؛ البيان فى تفسير القرآن، ص ۵۵۲.

(۳). تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۸.

(۴). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰

يجهر ببسم اللَّه فى صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة «۱».

والملفت للنظر مـا رواه البيهقى من أنّ معاويـة صـلى بأهل المدينـة فتلا: بسم اللَّه الرحمن الرحيم فى أوّل سورة الحمـد، ولكن لم يقرأ بسم اللَّه للسورة التى بعـدها ولم يكبر حتى ذهب للركوع، فعندما سلّم للصـلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا: أسـرقت من الصلاة أم نسيت؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم اللَّه للسورة بعد الحمد أيضاً «۲».

ولكن مع ذلك فإنّ جماعة من علماء السـنة لا زالوا يتركون البسملة فى الصلاة وحتى فى سورة الحمد أو يقرأونها اخفاتاً!، ومما يلفت النظر أنّ الفخر الرازى ذكر فى تفسيره تسـعة عشر دليلًا على إثبات أنّ بسم اللَّه الرحمن الرحيم جزء من سورة الحمد وأكثرها روايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

الآلوسى مفسّر القرآن المعروف ناقش هذه الادلة فى تفسيره (روح البيان)، ولكنه يصرّح بأنّ البسملة آية مستقلة فى القرآن وإن كانت ليست جزءً من سورة الحمد «۳»!

فهو يعترف بأنّ البسملة جزء من القرآن، لكن لا نعلم لماذا يصر على أنّها آية مستقلة وليست جزءً من سورة الحمد؟

ومهمـا كان فلا يخفى أنّ البسـملة موجودة فى جميع المصاحف طوال التاريـخ الإسـلامى فى بدايـة جميع السور إلّاسورة البراءة، ومن المسلَّم أنّ هذا بأمر من النبى صلى الله عليه و آله ولا يمكن أن نعقل أنّ النبى صلى الله عليه و آله أمر أن يكتب فى القرآن شىء ليس منه، وعلى هذا فلا حجّة لنا إذا فصلنا البسملة من السور لأنّ هذا نوع من أنواع التحريف للقرآن الكريم.

ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام فى مثل هؤلاء: «سرقوا أكرم آيةٍ فى كتاب اللَّه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «۴».

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۸.

(۲) ذكر «الحاكم» هـذه الروايـة فى المسـتدرك، ج ۱ ص ۲۳۳ واعتدَّ بسـندها، وورد نفس هذا المضـمون بتفاوت ضـئيل فى تفسـير درالمنثور، ج ۱، ص ۸؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۹.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۷.

(۴) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۲، ح ۱۵.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣١

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام: «ما لهم قاتلهم اللَّه عمدوا إلى أعظم آية فى كتاب اللَّه فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها وهى بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «١»!

ولهذا فقد ورد عن الأئمّة عليهم السلام الاصرار على الجهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم خاصة وفى جميع الصلوات الليلية والنهارية لأجل القضاء على هذه البدعة الموروثة.

وخلاصة الكلام أنّ أهميّة البسملة بين آيات القرآن أوضح من أن تحتاج إلى البحث ولذلك يجب أن نعطيها أهميّة كبيرة، ومن المؤسف أنّ البعض من فاقدى الذوق السليم وخشية من أن تقع كتاباتهم بأيدى الأفراد غير المتوضئين أو أن تُداس بالأقدام أو تقع فى الأزقة والأسواق، يمتنعون من كتابة البسملة فى رسائلهم وكتاباتهم، ويضعون محلها عدداً من النقاط غافلين عن أنّ سيئة ترك بسم اللَّه أشدّ بكثيرٍ من هذه المساوىء.

نحن مأمورون بأن نكتبها، وأن نسعى من أجْلِ المحافظة عليها واحترامها، وإذا لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسنا مسؤولين عن أعمالهم، ولا ينبغى لنا أن نترك البسملة لهذا العذر لأنّ الضرر الذى يصيبنا سيكون أكبر.

لذلك ينقل لنا التاريخ أنّ أول سكة ضربت فى الإسلام كانت فى زمان «عبد الملك بن مروان» وبأمرٍ من الإمام الباقر عليه السلام وكتب على أحد وجهيها «لا اله إلّااللَّه» وعلى الوجه الآخر «محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله»، ومن الواضح أنّ هذه السكة تقع فى أيدى عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا يعيشون فى محيط الإسلام، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مانعة من ضرب السكة والشعارات الإسلامية الحية ولا ينبغى لها أن تكون «٢».

٣- لماذا لم تُذكر بسم اللَّه فى بداية سورة براءة؟

الجواب على هذا السؤال ورد صريحاً فى حديث روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تُنَزَل بسم اللَّه الرحمن الرحيم على رأس «سورة براءة» لأنّ بسم اللَّه للأمان والرحمة، ونزلت

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى، جرجى زيدان، ج ١، ص ١٤٣.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٢

براءة لرفع الأمان وبالسيف» «١» يعنى رفع الأمان عن الكفار الناكثين للعهود.

ويعتقد جماعة بان هذه السورة تتمة لسورة الأنفال لأنّ سورة الأنفال تتكلم عن العهود ولهذا لم يذكر بينهما «بسم اللَّه الرحمن الرحيم».

وهذا المعنى ذكر فى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «الأنفال والبراءة واحدة» «٢».

واحتُمل أيضاً أنّ اللَّه سبحانه ومن أجل أن يبيّن حقيقة أنّ البسملة جزء فى جميع سور القرآن لم يذكرها فى بداية هذه السورة.

والجمع بين هذه الأقوال الثلاثة ممكن.

وهناك آيات متعدّدة حول البسملة فى القرآن وخصوصاً فى مورد ذبح الحيوانات، والكلام عنها ينبغى أن يكون فى محل آخر.

٤- لا تقرنوا اسم اللَّه باسم غيره؟

إنّ القادر المطلق والرحيم الحقيقى هو الذات الإلهيّة المقدّسة سبحانه وتعالى.

وما عالم الوجود إلّامائدة من موائد احسانه، وكل ما لدنيا منه فيجب طلب الحاجة والعون منه والابتداء باسمه، والآيات المتعلقة «بسم اللَّه» والروايات الواردة في هذا المجال كلها تؤكّد على هذا المعنى

ولهذا فإنّ الذين يقرنون مع اسم اللَّه اسم غيره كالطواغيت الذين يضعون أسماء السلاطين المتجبرين والمتكبرين إلى جنب اسمه سبحانه ويفتتحون بها ويبدأون بها، أو الأشخاص الذين يبدأون أعمالهم باسم (اللَّه) و «الشعب»، كل هؤلاء في الحقيقة مصابون بنوع من الشرك، وحتى اسم النبي صلى الله عليه و آله لا ينبغي أن يُقرن إلى جنب اسم اللَّه في هذا المجال فلا يقال بسم اللَّه ونبيّه.

ففي حديث ورد في تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): «إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان

---

(١). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ٢ وهذا الحديث ذكره الفخر الرازي عن ابن عباس عن علي عليه السلام مع اختلاف يسير وقال عليه السلام هناك: لأنّ بسم اللَّه الرحمن الرحيم أمان وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ١.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٣

جالساً يوماً مع أمير المؤمنين علي عليه السلام فسمعا شخصاً يقول «ماشاء اللَّه وشاء محمد» وآخر يقول «ما شاء اللَّه و شاء علي».

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لا تقرنوا محمداً ولا علياً باللَّه عزّ وجلّ».

ثم اضاف: «ولكن إذا أردتم فقولوا ما شاء اللَّه ثم شاء محمد، ما شاء اللَّه ثم شاء علي»، يعني اعلموا أنّ مشيئة اللَّه قاهرة وغالبة على كل شيء فليس لها في الوجود من مساوٍ أو نظير أو قرين، وما محمد في دين اللَّه وأمام قدرة اللَّه إلّاكطير يحلّق في فضاء هذا الكون الواسع وكذلك علي «١».

---

(١) إثبات الهداة، ج ٧، ص ۴٨٢، ح ٧٩ (مع قليل من التلخيص).

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣۵

نظريةالمعرفة

تمهيد:

إنَّ أول قضية تواجه الإنسان في ابحاثه العلمية هي قضية المعرفة، وأول أسئلة تنقدح في ذهن الإنسان هي:

١- هل هناك عالَم موجود خارج وجودنا أم أنّ ما نسمعه ليس إلّاكالرؤيا والأحلام التي نراها في منامنا وأنّ ما وراء الطبيعة ما هو إلّاوهم وخيال؟

٢- إذا كان هناك عالم ما وراء الطبيعة فهل بامكاننا إدراكه ومعرفته؟

٣- إذا وجد عالم في الخارج وأمكننا معرفته، فما هي الطرق التي يجب أن نسلكها للوصول إلى معرفته وما هي مصادر معرفته؟

هل أنّ طريق الاستدلالات العقلية كاف لذلك، أم عن طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية؟

أم عن طريق الوحي أو بواسطة طرق اخرى وأيّ هذه الطرق أفضل وأكثر اعتماداً؟

۴- أضف إلى ذلك ما هي الوسائل التي نستطيع بها معرفة العالم؟

۵- وبعد قبول المسائل المذكورة يطرح هذا السؤال وهو: ما هي الأمور التي تؤدّي إلى تقوية وتوسيع مجالات وآفاق المعرفة عند الإنسان، وتجعل روحه وقلبه أكثر استعداداً لتلقي المعارف؟

وما هى الموانع والعقبات التى تقف حائلًا بين الإنسان والمعارف الحقيقية لعالم الوجود، وتجره إلى الحيرة والضلال؟

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦

هل هناک عالم خارج أذهاننا؟

حول هذه المسألة الأُولى انقسم الفلاسفة إلى قسمين:

١- «الواقعيون» (رئاليسم).

٢- «المشككون أو المثاليون أو التصوريون» (أيدياليسم).

والقسم الثانى فى الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل إنّ البعض يعتقد أنّ السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليون الذين يعترفون بوجود أنفسهم وأذهانهم ويعتبرون ما سواه وهماً وخيالًا، وإلّا فكيف يمكن لعاقل أن ينكر كل شىء حتى وجود نفسه إلّاأن يكون مصاباً بخلل عقلى.

وعلى أيّة حال فإنّ أفضل الطرق لإدراک ما وراء الطبيعة هو ايكال الأمر إلى الوجدان، الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء، بل حتى وجدان المثاليين أنفسهم شاهد على هذا المدّعى

لأنّ كل المخلوقات عندما تشعر بالعطش تقوم بالبحث عن الماء، فالعطش والماء وتأثير الماء فى رفع العطش امور يدركها حتى الأطفال والحيوانات، والسوفسطائيون أيضاً لا يختلفون فى عملهم عن الآخرين، فعندما يريد الإنسان أن يعبر شارعاً مزدحماً يقف‌جانب الشارع قبل كل شىء وينظر يميناً وشمالًا، وينتظر حتى يخلو الشارع من السيّارات فيعبر الشارع مع الاحتياط، خشية أن تدهسه سيارة فيصاب بأذىً أو جراح.

هذا العمل يتساوى فيه الواقعيون والمثاليون فالكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الاخرى، وكلهم يعبرون الشارع مع الحيطةِ والتحفظ.

وهكذا عندما يمرض الإنسان ويرى الآثار غير العادية للمرض فى نفسه، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بان يجرى له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء، ويحدد له الغذاء المناسب واوقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره، فيرى المريض نفسه مكلفاً بأن يمتثل لهذه الأوامر كى يستعيد صحته السابقة.

وفى كل ذلک لا فرق بين الواقعيين والمثاليين، فالكل يستجيبُون للمرض بواسطة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٧

ادراكهم الوجدانى ويعترفون بالعشرات من الحقائق العينية، من آثار المرض إلى وجود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء.

وبهذا الدليل نقول «ان المثاليين فى الحقيقة واقعيون»!

وان المشككين عندما يردونَ ميدان الحياة يتناسون كلامهم ويرون أنفسهم امام الواقع العينى فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه.

وقد أيّد القرآن الكريم فى آياته الكريمة صحة هذا المعنى فكلّ آيات القرآن تخبر عن الحقائق والواقع العينى الخارجى، من سماوات وأرض وملائكة وبشر وعالم الطبيعة وما وراءه والدنيا والآخرة.

وإنّ هذا الأمر فى القرآن بدرجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بحث أكثر، لذلک ننهى هذه المسألة وننتقل إلى مسألة إمكان المعرفة «١».

ج‌ج

---

(١). نؤكّد هنا مرّة اخرى بأنّ هدفنا فى جميع مباحث هذا الكتاب ليس متابعة الآراء الفلسفية أو التاريخية أو ... بل هدفنا فى الأصل

التفسير الموضوعى يعنى متابعة البحث من نظر القرآن ومدى انعكاس الموضوع فى الآيات المختلفة ... وإذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فسنفرد لها بحوثاً منفصلة بعنوان توضيحات فى الخاتمة.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۹

القرآن و ضرورة المعرفة

۴۰ ملاحظة قرآنية حول أهميّة العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۴۱

القرآن وضرورة المعرفة

تمهيد:

اشارة

لم يعتبر القرآن الكريم مسألة معرفة الإنسان لماوراء الطبيعة أمراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من أهم الضرورات.

فالقرآن يدعو إلى معرفة أسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمخلوقات، ويستخدم القرآن فى دعوته لأتباعه- للتزود بالعلم- الأساليب الصريحة والظاهرة المباشرة وغير المباشرة.

والبحث فيما صرح به القرآن فى هذا المجال يفتح أمام أعيننا افقاً جديداً، ويرينا أنّ أمر المعرفة من الواجبات المؤكّدة وبمستوى عال جدّاً من الأهميّة.

والطريف: إنَّ هذه الدعوة قد جاءت فى زمان ومكان كانت قد غطت الافق فيه سحب الجهل الظلماء، حقّاً إنّ عمق وسعة ماورد فى القرآن يدل قبل كل شىء على عظمة القرآن وصدق المبعوث به.

ومن أجل ذلك نطالع آيات القران ونبحث عن ماورد من تعابير مختلفة فى هذا المجال.

هذه الدعوة لها وجوه متنوعة وبشكل كامل، وقد جمعنا (أربعين أنموذجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها ينظر إلى هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة.

وفى الضمن ذكرنا فى الحواشى الروايات المعتبرة المتناسبة مع الآيات، ليتضح التنسيق والسنخية الكاملة بين الكتاب والسنة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۴۲

۱- وجوب تحصيل العلم

وردت فى (۲۷) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للتزود بالعلم، والاستفادة من جملة «اعلموا» إليكم نماذج منها:

۱- «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة/ ۲۰۹)

۲- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ۲۳۱)

۳- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (البقرة/ ۲۳۳)

۴- «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الحديد/ ۱۷)

۵- «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرونَ . (البقرة/ ۲۰۳)

۶- «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . (المائده/ ۹۲)

٧- «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِّنْ شَيءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . (الأنفال/ ٤١)

٨- «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ». (الحديد/ ٢٠)

جج

الآيات الاولى والثانية والثالثة تنظر إلى الذات الإلهيّة المقدّسة وإلى صفاته الأعم من «صفات الذات» و «صفات الفعل».

الآية الرابعة تشير إلى الحياة والخلق.

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والحشر.

الآية السادسة تتكلم عن النبوة وسالة النبى صلى الله عليه و آله.

الآية السابعة تبين الأحكام العملية الإسلامية.

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقى للدنيا وتظهر لنا تفاهتها، كأسلوب للدعوة إلى الزهد والتقوى والنجاة من حُبّ الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب.

وبهذا نستنتج أنّ كل ما يرتبط بالعقائد والأعمال ومنهج الحياة قد ورد مشفوعاً بكلمة (اعلموا) وهى تتضمّن دعوة للتسلّح بالوعى والمعرفة فى كلّ هذه المجالات «١».

---

(١). ورد أيضاً التأكيد الكثير فى الروايات الإسلامية على طلب العلم، والحديث المعروف (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) المروى عن النبى صلى الله عليه و آله شاهد واضح على هذا المعنى، بحار الأنوار، ج ۶، ص ١١٧، والإمام الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل حال»، ج ٢، ص ١٧٢.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٤٣

٢- التأكيد المتواصل على عدم ترک التفكر

تارة يقول سبحانه: «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام/ ٥٠)

وتارة يقول بعد بيان الآيات الإلهيّة المختلفة الأعم من التكوينية والتشريعية: «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (البقرة/ ٢١٩) و (الاعراف/ ١٧۶)

وأحياناً يقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا». (الروم/ ٨)

كل هذه الآيات تدلّ على ضرورة التفكر، وهذه الضرورة فى التفكر تدلّ على إمكان المعرفة «١».

٣- التأكيد على لزوم التعليم والتعلم

جاء فى سورة التوبة:

«فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّيْنِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . (التوبة/ ١٢٢)

هذه الآية الكريمة لا تؤكد على تعلّم الدين الإلهى فحسب بل تحث على تعليمه ونشره بعد تعلمه أيضاً.

والتعبير ب (نفر) تطلق على الخروج إلى ميدان الجهاد وقد استعمل فى الآيات القرآنية الاخرى بهذا المعنى وعلى هذا فإنّ أفراد الأُمة الإسلامية فى غير الحالات الضرورية لا يجوز لهم الخروج بأجمعهم إلى ساحة القتال، بل ينبغى على مجموعة منهم أنْ تبقى فى المدينة لتتعلم الأحكام الإلهيّة وتعلّمها للآخرين بعد رجوعهم.

---

(۱). جاء فی حديث عن النبی صلی الله عليه و آله: «اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامس» المحجة، ج ۱، ص ۲۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۴

والتفسير الآخر للآية هو: أنّ المسلمين يجب أن ينقسموا إلی قسمين: قسم يبقی فی المدينة ليحافظ عليها، وقسم يذهب إلی ميدان الجهاد ليُشاهدَ آثار العظمة الإلهيّة والمعجزات والامدادات الغيبية والنصر الإلهی، ثم وبعد رجوعهم يُخبروا سائر الناس بذلك.

وهناك احتمال ثالث فی تفسير الآية وهو ضرورة نفير بعض سكان ضواحی المدينة إليها ليتفقهوا فی أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع، ومكث البعض الآخر فی تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك «۱».

ولكلِّ تفسير ميزة لا توجد فی التفسير الآخر «۲».

ولكنْ بغضّ النظر عن الاختلاف فی التفاسير، فإنّ ما نسعی لإثباته- وهو وجوب التعلم والتعليم- ثابت بلا منازع، وتأكيد القرآنِ علی هذين الواجبين دليل واضح علیإمكان وضرورة المعرفة «۳».

ج ج

۴- العلمُ والمعرفة هما الهدف من خلق العالم

«اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ وَمِنَ الْارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا انَّ اللَّهَ عَلی كُلِّ شَیْءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَیْءٍ عِلْماً». (الطلاق/ ۱۲)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع والأرضين ما فيه الكفاية فی التفسير «الأمثل» «۴».

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۶، ص ۲۲۵؛ تفسير الميزان، ج ۹، ص ۴۲۷؛ تفسير مجمع‌البيان، ج ۵، ص ۸۳.

(۲). فی التفسير الأول مرجع الضمير فی جملة (ليتفقهوا) و (لينذروا) اسم محذوف والتقدير هو «وتبقی طائفة»، وهذا فيه حذف، والحذف يعتبر خلاف الظاهر. بينما (نفر) جاء بمعنی الجهاد هنا، هذه نقطة قوة التفسير الأول. فی التفسير الثانی مرجع الضمير مذكور وهو (طائفة)، لكنّ الثانی ضعيف لأنّ ميدان الجهاد ليس محلًا للتعلم إلّابالتوجيه الذی ذكر، وفی التفسير الثالث يقدر المحذوف، لكنه يتفق مع الروايات التی تفسر النفير (بالهجرة للتفقه فی الدين). «ذكر فی تفسير الثقلين ۹ روايات فی هذا المجال».

(۳). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لوددتُ أن اصحابی ضربتُ رؤوسهم بالسياط حتی يتفقهوا» (اصول الكافی، ج ۱، ص ۳۱).

(۴). بالنسبة للسموات السبع يرجع إلی ذيل الآية ۲۹ من سورة البقرة وبالنسبة للارضين السبع إلی ذيل الآية ۱۲ من سورة الطلاق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۵

وكيفما كان فإنّ الآية تبين بوضوح حقيقة أنّ أحد أهداف الخلق هو العلم والمعرفة، وتعريف الإنسان بعلم اللَّه وقدرته وصفاته وذاته، وهذه الآية صريحة فی بيان إمكان المعرفة إلی حدٍ بعيد «۱».

۵- الهدف من بعثة الأنبياء هو التعليم والتربية

إنّ القران الكريم ذكر هذه المسألة بشأنِ الرسول الكريم صلی الله عليه و آله عدة مرّات، من جملتها ما جاء فی سورة البقرة:

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۱۵۱)

وقد جاء هذا المعنی فی كلّ من الآيات ۱۲۹ من سورة البقرة و ۱۶۴ من سورة آل عمران و ۲ من سورة الجمعة.

فإذا كانت المعرفة غير ممكنة،: فكيف أمكن أن تشكل المعرفة أحد الأهداف المهمّة لبعثة الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله «۲».

٦- التفكّر والتدبّر هو الهدف من نزول القرآن

«كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْکَ مُبَارَکٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَکَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ . (ص/ ٢٩)
«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (سورة محمد/ ٢۴)

---

(١). جاء في حديث أنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام خاطب أصحابه قائلًا: «أيّها الناس إنّ اللَّه جلّ ذكره ما خلق العباد إلّاليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه» (بحار الأنوار، ج ۵٠، ص ٣١٢).

(٢). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كفى بالعلم شرفاً أن يدَّعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذمّاً أنْ يبرأ منه مَن هو فيه» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨۵).

نفحات القرآن، ج١، ص: ۴۶

مادتها (دُبُر) وتعني ظهر الشيء، ومن ثم استعملت بمعنى التفكّر والتفكير بعواقب الامور، وذلك لأنّ عواقب الامور ونتائجها تتّضح بالتفكّر.

إنّ الآية الاولى أوضحت أنّ التدبر هو هدف نزول القرآن كي لا يقتنع الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب وينسوا الهدف الأخير منها.

والآية الثانية اعتبرت ترك التدبر دليلًا على أقفال القلوب وتعطيل الحس.

وعلى أيٍّ فإنّ هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر، دعوة تثبت بوضوح إمكانية المعرفة «١».

٧- المعرفة هي الهدف من المعراج

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الاسراء/ ١)

ونفس معنى الآية هذه ورد في سورة النجم، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر، والآية هي:

«لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرى . (النجم/ ١٨)

تبين هاتانِ الآيتان- على الأقل- أحد الأهداف المهمّة لمعراج النبي صلى الله عليه و آله وهي قضية رؤية آيات الحق الكبرى الرؤية التي تعتبر أهم مصادر المعرفة «٢».

٨- الدعوةُ للإسلام بدأت بالدعوة للعلم

«إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَم الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم . (العلق/ ١- ۵)

إنّ هذه الآيات التي تعتبر أول أنوار الوحي التي شعّت في قلب الرسول الطاهر صلى الله عليه و آله في

---

(١). يقول الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «ما بعث اللَّه أنبياءه إلى عباده إلّاليعقلوا عن اللَّه فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة». (أصول الكافي، ج ١، ص ١۶).

(٢). للتفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٨ من سورة النّجم.

نفحات القرآن، ج١، ص: ۴٧

غار «حراء» فى جبل «ثور»، بدأت بقضية المعرفة وختمت بها.

إستهلّت الآيات بِحَث الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله على القراءة التى هى احدى وسائل المعرفة، وختمت بالبحث عن المعلِّم الأعظم للكون أى اللَّه الذى يُعتبر الإنسان تلميذه المُبْتَدِىء.

أليست هذه كلها دلائل واضحة على إمكانية المعرفة؟!

ج ج

۹– العلم نور وضياء

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد/ ۱۶)

«وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ». (فاطر/ ۱۹ و ۲۱)

إنّ هذه الآيات جعلت الظلمات فى عداد العمى والنور فى عداد البصر، وهى إشارة إلى أنّ العلم نور وضياء، والجهل يساوى العمى وهى من أجمل التعابير للتشجيع على المعرفة «۱».

۱۰– إدراك أسرار الوجود خاصّ بالعلماء

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . (الروم/ ۲۲)

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . (العنكبوت/ ۴۳)

فى الآية الأولى عُدَّ إدراك اسرار كتاب التكوين خاصاً بالعلماء وفى الثانية عُدَّ فهم كتاب التدوين خاصاً بهم كذلك.

وهذا تشجيع لطلب العلم والمعرفة من جهة، ودليل على مسألة المعرفة من جهة أخرى

ج ج

---

(۱). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «العلم نور يقذفه اللَّه فى قلب من يريد أن يهديه». (الوافى، ج ۱، ص ۷).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۴۸

۱۱– اللَّه أول معلّم

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا». (البقرة/ ۳۱)

«الْرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرآنَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . (الرحمن/ ۱– ۴)

«الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق/ ۴)

«عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَم يَعْلَمْ . (العلق/ ۵)

إنّ معلم الكون العظيم تارة يعلم آدم الأسماء، وتارة اخرى يعلم الإنسان ما يحتاجه ومالم يعلمهُ (بواسطة التكوين والتشريع).

وتارة يوعز للإنسان بتناول القلم لِتَعلّم الكتابة، وتارةً اخرى يجرى على لسانه حرفاً أو حرفين ويعلمه الكلام، وهذا يكشف عن احدى صفاته عزوجل هى تعليم العباد، التعليم الذى هو وسيلة للمعرفة.

ج ج

۱۲– بالعلم يتميَّز الإنسان عن الموجودات الأُخرى

«قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا انْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ اقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . (البقرة/ ٣٣)

إنّ هذا الخطاب الذی ورد فی الآیة كان موجهاً للملائكة بعد أن أمرهم بأن یسجدوا ویخضعوا لخلیفته (آدم) عندما خلقه، لكی یوقروه بعد علمهم بمكانته وتفوقه علیهم، وقد فهم الملائكة أهلیة آدم علیه السلام لخلافة اللّٰه سبحانه وتعالی فی الأرض بعد أن وجدوا فیه القابلیة والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصی درجاتهما، كما أعربوا عن شدید أسفهم وندمهم حیال ما ساورهم من تردد أو استفسار عن أهلیته للخلافة الإلهیّة فی بادیء الأمر «۱».

ج ج

---

(۱). یقول الرسول الأكرم صلی الله علیه و آله: «أكثر الناس قیمة أكثرهم علماً وأقل الناس قیمة أقلهم علماً». (بحارالأنوار، ج ۱، ص ۱۶۴).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۹

۱۳- درجاتُ القرب من اللّٰه تتناسبُ مع درجات المعرفة

«يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . (المجادلة/ ۱۱)

بدأت الآیة بالحدیث عن الاصول الأخلاقیة فی آداب المجلس، ثم عن درجات العلماء والمؤمنین بعنوان النتیجة والجزاء لعملهم بهذه الاصول الأخلاقیة.

«الدرجات» جمع «درجة» وهی تستعمل للسلم عندما یرتفع إلی الأعلی تقابلها «الدركات» جمع «دركة» التی تستعمل لنفس السلم عندما ینزل إلی الأسفل كسلم السرداب (الطابق الأسفل).

إنّ استعمال «درجات» نكرةً ایحاءٌ إلی عظمة تلك الدرجات، واستعمالها جمعاً لا مفرداً یمكنه أن یكون إشارةً إلی اختلاف درجات العلماء.

بالطبع أنّ الرفع هنا لم یقصد به الرفع المكانی، بل السمو فی طریق القرب من الساحة الربانیة.

استنتج العلّامة الطباطبائی رحمه الله فی تفسیر (المیزان) أنّ المؤمنین قسمان:

قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غیر العالمین)، والمؤمنون العالمون أفضل درجة من المؤمنین غیر العالمین ثم استدل بالآیة:

«هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر/ ۹)

ویحتمل أنّ الآیة تشیر إلی علاقة الإیمان بالعلم «۱»، وسنشیر إلی هذه الآیة تفصیلًا إن شاء اللّٰه «۲».

۱۴- الأنبیاء یُطالبون بعلم أكثر

«وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً». (طه/ ۱۱۴)

---

(۱) تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۲۱۶.

(۲). جاء فی حدیث الإمام الصادق علیه السلام: «إنّ الثواب بقدر العقل». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۸۴).

نفحات القرآن ج۱ ۱۰۰

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۰

إنّ الآیـة الکریمـة تخاطب الرسول الأعظم صـلی الله علیه و آله وتدعوه إلی طلب العلم بالرغم من أنّ الرسول الأعظم صـلی الله علیه و آله یحضـی بمقام علمی شامخ وعظیم، وهذا یکشف عن أنّ الإنسان لا تقتصر عملیة طلبه للعلم علی مرحلة من المراحل، بل إنّ طریق العلم مستمر ولیس له نقطة انتهاء.

«قَالَ لَهُ مُوسی هَلْ أَتَّبِعُکَ عَلَی أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً». (الکهف/ ۶۶)

فموسی علیه السلام بالرغم من أنّه من اولی العزم وبالرغم من انشراح صدره بمقتضی الآیة:

«رَبِّ اشْرَحْ لِی صَدْرِی . (طه/ ۲۵)

وبمقتضی الآیة «ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَی آتَیْنَاهُ حُکْماً وَعِلْماً». (القصص/ ۱۴)

وبالرغم من هذا المقام العلمی الرفیع، إلّاأنّه کان مطالباً بأن یخضع أمام «الخضر» ویتعلم منه کالتلمیذ.

وعلی أی حالٍ، فإنّ هذه الآیات أدلة واضحة علی إمکانیة وضرورة طلب العلم، والسعی المستمر فی طریق التعلم والمعرفة «۱».

۱۵- المعرفة مفتاح نجاة الإنسان

«قُلْ إِنَّمَا أَعِظُکُمْ بِوَاحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا للّهِ مَثْنی وَفُرَادی ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا». (سبأ/ ۴۶)

إنّ خطاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی هذه الآیة موجه لأعدائه المنغمسین فی الکفر والشرک، ومختلف أنواع الفساد الأخلاقی.

وقد بیّن لهم أنّ مفتاح نجاتهم من هذا المستنقع الخطر هو التفکّر والعلم الذی هو طریق وسبیل المعرفة.

وعلی هـذا الأسـاس بالامکـان معرفـة جـذور أی ثورة وأی تحول أساسـی فی المجتمعـات البشـریة من خلاـل معرفـة ثوراتهم الفکریة والثقافیة.

---

(۱). یقول أمیر المؤمنین علیه السلام: «العلم میراث الأنبیاء والمال میراث الفراعنة». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۵).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۱

فلو کانت المعرفـة غیر ممکنـة فلماذا التفکیر؟ بالخصوص بعد حصـر الموعظة بالتفکّر وذلک باسـتعمال «إنّما» التی تفید الحصـر، وهنا یثبت أنّ مفتاح النجاة هو المعرفة فقط!

لکن هـذا التفکر سواءاً کان- جماعیاً أو فردیاً- ینبغی أن یکون متزامناً مع القیام للّهوفی سبیله، ولهذا یقول «انْ تَقومُوا للّه أی بعیداً عن التعصب والعناد، والهوی النفسانی الذی سیأتی شرحه فی موانع المعرفة إن شاء اللَّه.

وقد أکّد النبی یوسف علیه السلام علی هذا الموضوع، وقال عند جلوسه علی عرش السلطة فی مصر:

«رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَعَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْارْضِ أَنْتَ وَلِیِّ فِی الـدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِی مُسْـلِماً وَأَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ . (یوسف/ ۱۰۱)

من الملفت للنظر هنا هو أن علم تعبیر المنام من العلوم ذات الأهمیّة القلیلة، وبالرغم من ذلک فإنّ قصة یوسف علیه السـلام فی القرآن تکشف بوضوح عن أن علمه بتعبیر الرؤیـا أدّی إلی إنقاذه من سـجن عزیز مصـر، کما أدی إلی إنقاذ مصـر من القحط والمجاعـة، لأنّ العزیز رأی مناماً عجیباً عجز المفسـرون عن تأویله، إلّاأنّ أحد السـجناء الذین قد أُطلق سراحهم وسبق لیوسف انْ فَسَّرَ رؤیاه فی السجن کان حاضـراً فی البلاط آنذاک فقال: إنّی أعرف من یفسّر الرؤیا جیداً، وعندما فسّر یوسف علیه السلام له ما رآهُ فی منامه الذی یتعلق بالامور الاقتصادیة لسبع سنوات مقبلة، أطلق سراحه وتهیَّأت مقدمات حکومته من جهة، ومن جهة اخری استطاع أن یضع برنامجاً دقیقاً لانقاذ أهل مصر من المجاعة خلال سنوات القحط المقبلة.

إنّ الآیـة السابقـة التی تحـدثت عن علم تأویل الأحادیث (فی المنام) بعـد حـدیثها عن ملک یوسف (حکومته)، یمکن أنّها تشـیر إلی

العلاقة بين هذين الاثنين.

وكيفما كان فإنّ هذه الآية توحى بأنّ مفتاح النجاة هو العلم والمعرفة.

وحتى أنّ أبسط العلوم يمكن أن يكون سبباً لانقاذ دولة «۱».

ج ج

(۱). يقول الإمام على عليه السلام مخاطِباً كميل: «يا كميل ما من حركة إلّاوأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تحف العقول، ص ۱۹).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۲

۱۶- العلم فخر بجميع أشكاله

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤمِنِينَ* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا ايُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . (النمل/ ۱۵ و ۱۶)

بالرغم من ملك وعظمة «سليمان» و «داود» اللذيْن لم يكن لهما مثيل بل ويحتمل عدم قيام حكومة كحكومتهما على مرّ التاريخ كما فى الآية ۳۵ من سورة (ص) «وَهَبْ لِى مُلْكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى خصوصاً وأن حكومتهما لم تخص الانس، بل امتدت حتى شملت الجنّ والحيوانات وحتى القوى الطبيعية كالريح، مع هذا كله فاللَّه عندما يَهَبُ نعمه إلى الوالد وولده، يبدأ بنعمة العلم والمعرفة، لذا كانا يشكرانه لما فضّلهما على كثير من عباده (يحتمل أن يكون الشكر بهذا الاسلوب) «على كثير من عباده» لا غير لأنّه كان هناك من أُتُوا علماً أوفر مما أوتىَ سليمان وداود)، والجدير بالذكر هو أنّ (سليمان) بالرغم من ملكه العظيم «بحيث إنّ كل من شك فى ذلك ضحكت على عقله الطيور والأسماك»، رغم هذا، فانه كان يفتخر بعلوم قليلة الأهميّة مثل معرفته بلغة الطيور قبل افتخاره بملكه وحكومته ومواهبه الإلهيّة الاخرى.

إنّ هذه النصوص الجميلة تُبيّنُ عظمة مقام العلم بجميع أبعاده، وهو بنفسه دليل واضح على إمكانية وضرورة المعرفة «۱».

۱۷- المعرفة شرط أساسى للادارة والقيادة

عندما اقترح على يوسف التصدى لمسؤولية مهمة فى حكومة مصر، قال:

«إِجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ . (يوسف/ ۵۵)

عندما أعلن بنو اسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنذاك «جالوت» الذى شردهم، طالبوا نبيّهم بأن يعين لهم قائداً كى يجاهدوا «جالوت» الظالم، تحت رايته، قال لهم النبى:

(۱). جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «العلم أصل كل حال سنى ومنتهى كل منزلة رفيعة» (المحجة البيضاء، ج ۱، ص ۶۸).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۳

«انَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة/ ۲۴۷)

والجدير بالذكر إنّ «طالوت» الذى كُلِّفَ بمهمة قيادة بنى اسرائيل لمقارعة الملك القوى والظالم، كان قروياً مجهولًا يعيش فى احدى القرى الساحلية وكان يرعى مواشى أبيه ويزرع!

لكنّه كان ذا قلبٍ واعٍ، وجسم قوى، ومعرفة دقيقة وعميقة بكثير ممّا يجرى حوله، ولهذا عندما رآه النبى «اشموئيل» عينّه قائداً على بنى

اسرائيل ولم يعبأ باعتراضاتهم على تعيينه، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية في انتخاب القائد كامتلاك الثروة والأموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء، حيث كانوا يعترضون بأنّه مع ما عندنا من أشخاص ذوى سمعة وثروة، وهم أجدر من طالوت لهذه المسؤولية، فكان يجيبهم النبى: إنّ هذا الاختيار هو انتخاب الهىّ، والكل يجب أن يسلّم لأمره.

إنَّ هاتين الآيتين تدلان بوضوح على أنّ المعرفة والعلم من عناصر القيادة والإدارة، وتؤكدان ما قلناه عن المعرفة حتى الآن «۱».

۱۸- العلم منبع الإيمان

«وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». (سبأ/ ۶)

«إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبنَا لَمَفعُولًا». (الاسراء/ ۱۰۷- ۱۰۸)

«فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسى . (طه/ ۷۰)

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ فَيُؤمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ...».

(الحج/ ۵۴)

---

(۱). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۴

«... وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ . (آل عمران/ ۷)

إنَّ الآية الأخيرة تلقى الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والإيمان، وتبيّن بأنّ المطلع والمتبحر هو الأرسخ في الإيمان والتسليم «۱».

إنَّ هذه الآيات تبين بوضوح أن المعرفة هى إحدى السّبل المؤدية إلى الإيمان، والإيمان الذى ينبع منها سيكون راسخاً قوياً ومتجذراً إلى مستوىً بحيث نقرأ في قصة موسى عليه السلام السحرة فى عصر فرعون، أنّ إيمانهم بموسى عليه السلام كان بسبب معرفتهم بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن سحراً، فما كان من فرعون إلّاأنْ هدّدهم بشدّة قائلًا لهم: «آمنتُم لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ؟!» فالطغاة يريدون التحكم حتى بعقول الناس وإيمانهم القلبى وفهمهم ولا يتصرف أحدٌ بأى شىء إلّاباذنٍ منهم، وقد جاء فى تهديد فرعون لهم أنّه قال:

«فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ...». (طه/ ۷۱)

لكنهم كانوا بدرجة من الصمود بحيث كانوا يقولون له:

«لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ». (طه/ ۷۲)

وفعلًا فقد نفّذ فرعون وعيده الذى قطعهُ على نفسه بالإنتقام من السحرة المؤمنين، واستشهدوا من أجل المعتقد الذى ذابوا فيهِ عشقاً ونالوا مبتغاهم الاسمى وهو الشهادة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسى إنّهم: «كانوا في أول النهار كفاراً سحرة وفي آخر النهار شُهَداء بَرَرَةٌ».

إنَّ ثمرات العلم له تنحصر بالإيمان فحسب بل تشمل الإستقامة والصمود أيضاً. «۲»، «۳»

---

(۱) ما ذكرناه حقيقة لا تنكر سواء قلنا بأن كلمة «الراسخون» معطوفة على «اللَّه»، أو قلنا بأنها مبتدأ وخبرها الجملة اللاحقة، لأنّه على كلا الفرضين، الضمير فى «يقولون» يرجع إلى «الراسخون فى العلم» وبه تتّضح العلاقة بين الإيمان والعلم فى الآية.

. (۲) يعتقد البعض أنّ «العلم» والإيمان» شىءٌ واحد. فإذا كنا نعلم بأنّ هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم، فنفس هذا العلم إيمان

بـه، لكـن المحققيـن يقولـون بفصـل الإيمـان عـن العلـم، لأنّ الإيمـان يمكن أن يكـون ثمرة من ثمـار العلم (وليس الثمرة الضـرورية والدائمية) لكنه ليس عين العلم والإيمان التسـليم القلبى والقبول والاعتراف الرسمى، بينما كثيراً ما يحصل أن يعتقد الإنسان بشىء ولم يسلم به، كما يحكى القرآن عن البعض فى سورة النمل الآية ١۴ «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وعُلُوّاً» ..

(٣) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «العِلمُ حياةُ الإسلام وعماد الإيمان». (كنز العمال، ج ١٠، ص ١٨١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ۵۵

١٩- العلم منشأ تقوى اللَّه وخشيته

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ». (فاطر / ٢٨)

يقول الراغب فى مفرداته «الخشية هى الخوف الذى يكون متزامناً مع التعظيم، وغالباً ما ينشأ عن العلم».

«وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ . (البقرة/ ١٩٧)

إذ لم تكن هنـاك علقـة بين «العلم» و «التقوى لم يخـاطب اللَّه سـبحانه وتعالى «أولو الألباب» داعيهم للتقوى فى الآيـة، وهـذا الخطاب دليل على هذه العلقة المباركة.

«فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (المائده/ ١٠٠)

«كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . (البقرة/ ١٨٧)

إنَّ هـذا التعبير فى الآيـة الأخيرة يـدل بوضوح على أنّ اللَّه تعالى يبين الآيات كمقدمـة لإيجاد الوعى لـدى الناس، والوعى يكون أحد سُبل التقوى

بالطبع ليس كلما كان العلم كانت التقوى لأنّ هناك علماء غير عاملين، لكن المتيقن أنّ العلم مقدمة وأرضية خصبة للتقوى ويعتبر من المصادر الأساسية للتقوى وَالتقوى غالباً ما تكون قرينة العلم، العلم الذى يكون مقروناً بالإيمان سيكون منشأً للتقوى كذلك.

والعكس بالعكس، فالجهل غالباً ما يؤدى إلى نفى التقوى والورع «١».

٢٠- العلم منشأ الزهد

«وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . (القصص / ٨٠)

---

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام «أعظم الناس علماً أشدّهم خوفاً من اللَّه». (غرر الحكم، الحكمة ٣٢۶).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ۵۶

أشارت هذه الآية التى جاءت فى أواخر سورة القصـص إلى قصة (قارون) ونقلت نصـيحة علماء بنى اسرائيل لكافة الناس، الذين تمنوا امتلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته.

فعنـدما شاهـد أهل الورع من علماء بنى اسـرائيل تَعَلُّقَ الناس بالدنيا وحبهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها خاطبوهم قائلين: ويلكم يا عبـدة الدنيا! لا تخدعكم الثروة وبهارج الدنيا، فالجزاء الإلهى خير لكم فى الدنيا والآخرة إن عملتم صالحاً وكنتم مؤمنين، لكن لا ينالُ هذا الثواب الإلهى إلّاالصابرون الرافضون الظلم والاغراءات المادية.

إنّ عبـارة (اوتوا العلم) تـدل بوضوح على وجود علاقـة بين (الورع والزهـد) من جهـة والعلم والمعرفـة) من جهـة اخرى، وأنّ العارفين بزوال الدنيا وحقارة الثروات المادية فى قبال الجزاء الإلهى وخلود الآخرة، فانّهم لا ينخدعون بالماديات ولم يتمنوا ثروة قارون «١».

٢١- التطور المادى مرهون بالعلم

«قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْم عِنْدِى . (القصص ٧٨)

الكلام الـذى ورد فى الآيـة الكريمـة قاله قارون الغنى والمغرور والأنانى عندما نصـحه علماء قوم موسـى أن اسـتثمر ثروتك فى مجال منافع العباد ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد اللّه كما أحسنَ اللّه اليك ولا تتخذ ثروتك وسيلة للفساد.

لكنه أجاب قائلًا: إنّى جمعت هذه الثروة بفضل علمى ومعرفتى.

والذى ينبغى ذكره هنا هو أنّ اللّه لم ينفِ ادّعاءهُ هذا.

بل يقول تعالى «اوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً». (القصص/ ٧٨)

---

(١). يقول الإمام الصادق عليه السـلام: «إنَّ ممّا خاطب اللّه به موسـى بن عمران قال: إنّ عبادى الصالحين زهدوا فيها بقدر علمهم بى». (بحار الأنوار ج ١٨، ص ٣٣٩).

نفحات القرآن، ج١، ص: ٥٧

إنَّ هذا التأييد الضـمنى يكشف أنّ لقارون علماً تمكن بواسطته أن يجمع ثروته العظيمة (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء- كما يدعى بعض المفسرين أو كان معرفته لقواعد وفنون التجارة والأعمال).

إنَّ المسلَّم به هو أنّ ادعاء قارون لم يصـلح حجة لمنع انتفاع الناس بثروته، وذلك أنّ الإنسان مهما كانت لديه من مؤهلات وقابليات، لا يمكنه لوحـده أن يكسب ثروة بهـذا الحجم فلابدّ أنّه قد اسـتفاد من الآخرين فى سبيل تحصـيلها، لذا فهو مَدينٌ للمجتمع ولتعاونهم معه.

وعلى أى حـالٍ، فـإنّ مـا تبينه هـذه الآيـة هو وجود علاقـة بين «العلم المـادى» والتطور المـادى»، وهـذا ما نشاهـده بوضوح فى عصـرنا الحاضر، حيث إنّ أقواماً تقدموا مادياً فى مجال الصناعة والحضارة المادية وذلك بفضل علومهم وتقنيتهم وصناعاتهم «١».

٢٢- العلم مصدرالقوة أو (العلم قوّة)

«قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى . (النمل/ ٤٠)

هذه الآيةُ لها علاقةٌ بقصة سـليمان وملكة سـبأ، فعندما أراد سـليمان أن يأتى بعرشها، تعهد عفريتٌ من زعماء الجنّ بأن يأتى به قبل أن يقوم سـليمان من مجلسه، لكن وزير سـليمان «آصف بن برخيـا» الـذى كان عنـده علم من الكتاب، والـذى كان علمه يمكنه من القيام بأعمال خارقة للعادة قال لسليمان: إنّى استطيع أن آتى به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال، فشكر سليمان ربّه على الفضل الذى آتاه إيّاه من الأنصار والأعوان والأصدقاء.

وهـذه الآيـة وإن جـاءت فى مورد خاص، لكنها تكشف بوضوح عن العلاقـة الموجودة بين العلم والقوّة، وترغب وتشـجع على كسـب العلم «٢».

---

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أحط من الحمق». (اصول الكافى، ج ١، ص ٢٩).

(٢). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». (اصول الكافى، ج ١، ص ٢٩٠).

نفحات القرآن، ج١، ص: ٥٨

٢٣- العلم و التزكية

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِکَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (البقرة/ ۱۲۹)

ما ورد فى الآيـة الكريمـة الـذى يعـد بمثابة دعاءٍ دَعا به «إبراهيم» و «إسـماعيل» عليهما السـلام فى ضـمن أدعية دعيا بها اللّه، يكشـف بوضوح عن العلاقة الوثيقة بين «العلم والحكمة» من جهة، و «التزكية والتربية» من جهة اخرى وقد تقدم العلم هنا على التزكية.

لكن فى الآيتين التاليتين واللتين تناولتا منهـج الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله بعـد البعثـة، تقـدمت التزكيـة على العلم فيهما، حيث يقول اللّه تعالى هناک:

«لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولًـا مِّنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (آل عمران/ ۱۶۴)

كما أنّ الآية الثانية من سورة الجمعة تشبه الآية المتقدّمة مضموناً.

الظاهر أنّ الاختلاف فى التعبير حين يقـدم العلم على التزكيـة تارة والتزكية على العلم تارة اخرى ناشـىءٌ من التأثير المتبادل بين هذين الاثنين، فإنّ العلم مصدر التربية الأخلاقية، والتربية الأخلاقية تصلح لأنّ تكون فى- بعض مراحلها- مصدراً للعلم.

وعلى هـذا، فكل منهما يهيىء الأرضيـة للآخر، وهـذا هو معنى التأثير المتبادل للعلم والتزكيـة (وسـيأتى شـرح هـذا الموضوع فى بحث مؤهلات المعرفة إن شاء اللّه) «۱».

۲۴- علاقة العلم بالصبر

«وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً». (الكهف/ ۶۸)

هذا الحديث نطق به العالم الربانى (الخضر) مخاطباً به موسى بن عمران، عندما سأله أن

---

(۱). يقول أمير المؤمنين فى حـديث له حول العلم: «ومن ثمراته التقوى واجتنـاب الهوى ومجانبـة الـذنوب». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۶).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۹

يعلمه من علومه، فاجابه الخضر: إنّک لم تَحُط بأسرارى وألغاز أعمالى، ولن تتحملها وذلک لقلّة احاطتک ومعرفتک.

وهذا التعبير يبين بوضوح أنّ عدم العلم والمعرفة يؤدّى إلى نفاد صبر الإنسان.

بالطبع أنّ الصبر قد يكون مصدراً لزيادة العلم والمعرفة، وعليه فهذان الإثنان بينهما تأثير متبادل كما يصـرح بذلک القرآن فى عدد من الآيات:

«إِنَّ فِى ذَلِکَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

(ابراهيم/ ۵)، (لقمان/ ۳۱)، (سبأ/ ۱۹)، الشورى ۳۳)

ومن الواضـح أن طريق العلم والمعرفـة طريق صـعب مليءٌ بالمنغّصات، ولا يمكن أن يـدرک العلم إلّابالصبر والتحمل والصـمود، وأنّ العلماء والمخترعين والمكتشفين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلّابالمثابرة والصبر.

۲۵- العلم والمعرفة خير كثير

«يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثيراً». (البقرة/ ۲۶۹)

وكلمة «الحكمة» مشتّقة من مادة «حَكْم» على وزن (خَتْم) وتعنى الصدّ والمنع بهدف الإصلاح ولهذا يقال لزمام الحيوان «حَكَمَة» على وزن (شَجَرة)، وبما أنّ العلم والمعرفة يحول دون اتخاذ الإنسان سلوكاً مشيناً، فلهذا سميت «حكمة».

كما أنّ «العقل» يعنى الامساك والحفظ، ولهـذا قيل للحبل الـذى تُربط به رِجلا الجمل «عقال»، فالعقل قيل له عقلًا لأنّه يصون الإنسان من الانحراف عن جادة الصواب.

وعلى أيّة حال، فإنّ القرآن الكريم وصف العلم بأبلغ وأجمل توصيف حيث قال (خيراً كثيراً)، وهذا التعبير يشمل جميع النِعَم والمواهب الإلهيّة المادية منها والمعنوية.

إنَّ المستخلص من خمسة وعشرين عنواناً ذكر حتى الآن حقيقة بيّنه واضحة وهى: إنّ القرآن وبالاستعانة بعبارات شيقة ولطائف البيان يحثّ الإنسان على طلب العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٠

ويعدّهما أفضل موهبة ونعمة إلهية، ويستفاد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أنّ طريق العلم مفتوح للجميع، ولا شىء أنفع منه، وهذا هو الشيء الذى نحن بصدده «١».

والآن ننتقل إلى عناوين اخرى تدور حول محور «الجهل» وبملاحظة آثاره السلبية والمدمرة، نشق طريقنا نحو العلم والمعرفة وما ينتج عنهما من آثار إيجابية وحيوية.

٢٦- أصحاب السعير هم الجاهلون

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الاعراف/ ١٧٩)

إنَّ كلمة «ذرأ» مأخوذة من مادة ذَرْء على وزن (زَرْع) وتعنى الخلق، لكن المستخلص من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها يعنى «نثر البذور».

ويحتمل لهذا السبب ذكر الراغب فى «مفرداته» أن معناها الأصلى هو «الاظهار والايضاح»، بينما قال البعض كما فى «التحقيق فى كلمات القرآن»: إنَّ معناها الأصلى هو «النثر والنشر».

فإذا أُريد منها الخلق فيكون معنى الآية: إنَّ أولئك الذين وهب اللَّه لهم السمع والبصر والفؤاد ... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم، وإذا كانت «ذرأ» بمعنى النشر والنثر، فالآيةُ تُشير إلى أنّ أشخاصاً كهؤلاء سينثرون فى جهنم.

وعلى أيّة حال فهذه الحقيقة تكشف عن أنّ عاقبة الجهل وتعطيل وسائل المعرفة ليست سوى نار جهنم.

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ». (الملك/ ١٠ و ١١)

---

(١). يقول الإمام على عليه السلام: «لا كنز أنفع من العلم». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦١

نعم إنَّ ذنبهم العظيم هو أنّهم لم يستفيدوا من عقولهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصغوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم، وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

إنّ سياق الآية الثانية التى تنسب الإثم إلى أصحاب السعير وهم يعترفون بأنّ مصيرهم ما كان هذا لو أنهم استفادوا من عقولهم، وهذا الاعتراف الكاشف عن الندم، دليل على أنّ سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم، وإذا زعم بعض المفسّرين كالفخر الرازى عند تفسيره للآية الاولى أنّها دليل على الجبر، فإنّ الثانية تنفى مزاعمه وتصلح لأنّ تكون مفسرةً للاولى لأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وعلى أيّة حال فإنّ العلاقة بين «جهنم» و «الجهل» لاجدال فيها فى القرآن وسوف تتضح فى الأبحاث القادمة أكثر «١».

٢٧- الجهل مصدر انحطاط البشر

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ . (الأنفال/ ۲۲)

إنَّ هـذه الآيةً والتى قبلها تُشيران إلى موضوع واحد لكن الأخيرة تشير له صراحة والسابقة تلميحاً، والموضوع هو: إنّ الإنسان متى ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التى منحها اللَّه له فانّه سينحط ويسقط إلى مستوى يجعله أضل من جميع الدواب التى على وجه الأرض، ولَم لا ـ يكون كـذلك مَن بإمكـانه أن يصل إلى أعلى عليين فى جوار ربّ العالمين، وأن يصل إلى مقام «لا يرى به إلّااللّه»، ولكن بتركه جميع المواهب والمِنَح الإلهيّة فإنّه سيسقط إلى أسفل سافلين.

إضافةً إلى هـذا، فإنّ الإنسان الـذى لا يسير فى جادة الخير والهدايـة، فانه ربّما يستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الإلهيّـة فى طريق الشر، وسيرتكب جرائم مفجعة ويخترع

---

(۱). فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنّ اللَّه أوحى إليَّ أنَّه مَن سلك مسلكاً يطلب فيه العلم سهلت له طريقاًالجنة». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۷۳).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۲

وسائل رهيبة لم يدنُ إلى مستوى وحشيته أيٌّ من الحيوانات المفترسة، كما نشاهد نماذجه فى عصرنا الحاضر عند أُناس بعيدين عن اللَّه والبشرية «۱».

۲۸- الجهل عمى

«افَمَنْ يَعْلَمُ انَّمَا انْزِلَ الَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ اعْمَى انَّمَا يَتَذَكَّرُ اولُوا الْالْبَابِ .

(الرعد/ ۱۹)

تضع الآيـة الكريمـة العلماء وذوى الفكر فى مقابل العُمى، والتقابل هـذا يكشف عن أنّ العمى والجهل سواء، وقد جاء هذا المعنى فى آيات اخرى بأسلوب آخر:

«وَمَا يَسْتَوِى الْاعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلا الظِّلُّ وَلَاالحَرُورُ* وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ...» «۲». (فاطر/ ۱۹- ۲۲)

۲۹- الحياة مع الجهل هى أرذل العمر

«وَمِنْكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ...». (الحجّ/ ۵)

وقد جاء فى سورة النحل الآيةً ۷۰ نفس ما جاء فى هذه الآيةً من معنىً مع اختلاف ضئيل.

إنَّ كلمـة «أرذل» مشتقة من مـادة «رذل» وتعنى الموجود الضـال، كمـا فى كثير من معـاجم اللغـة مثل «المقاييس» و «صـحاح اللغـة» و «المفردات» وغيرها، وبتعبير آخر الشيء الذى لا يُعتنى به أو لا قيمة له.

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل مطية شموس من ركبها زلَّ ومن صحبها ضلَّ». (غرر الحكم، ج ۱، ص ۸۵).

(۲). يقول الرسول الأـكرم صلى الله عليه و آله: «من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعـة بقى فى ذل الجهل أبـداً». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۷۷).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۳

وعليه فالمراد من «أرذل العمر» أيّام وساعات من العمر التى تقلّ قيمةً عن بقية أيّام العمر، وقد نعت القرآن الأيّام الأخيرة من الشيخوخة التى تتزامن مع نسيان العلوم وفقدانها ب «أرذل العمر»، وعليه فأفضل أيّام العمر وساعاته هى الأيّام والساعات التى تكون مقرونه بالعلم

والمعرفة «۱».

۳۰- الجهل مصدر الكفر

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (الأعراف/ ۱۳۸)

إنَّ ما يثير العَجب هو أنّ بنى اسرائيل شاهدوا بأم أعينهم الإعجاز والعظمة الإلهيّة فى غرقِ الفراعنة، ونجاتهم عندما عبروا النيل، وبالرغم من ذلک كله يقترحون على موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.

لكن موسى أجابهم أنَّ جهلكم دعاكم إلى عبادة الأصنام.

وفى الحقيقة أنّ عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن الجهل، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يعبد ما يصنع بيده؟ وكيف له أن يطلب حل المعضلات والمشاكل الكبرى التى تعترى حياته من قطعة من خَشب أو معدن؟!

إنَّ تاريخ عبادة الأصنام يكشف عن أنّ هذا العمل القبيح نَما وتطور تحت ظلٍّ من الخرافات والأوهام، وكلما تقدمت الشعوب فى مجال العلوم والتقنية كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً:

إنَّ النبى العظيم «هود» كان يصرح لقوم «عاد» بهذا الأمر إلّاأنّه عندما شاهد فيهم الإصرار على عبادة الأصنام طلب من اللَّه سبحانه أن يُنزل العذاب عليهم قال:

«إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَاللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرسِلْتُ بِهِ وَلكِنّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

(الاحقاف/ ۲۳)

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «الجهل فى الإنسان أضرّ من الأكلة فى الأبدان» (غرر الحكم).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۴

إنَّ التعبير ب «تجهلون» أى بصيغة المضارع الذى عادة ما يدل على الاستمرار، يوضح أنّ «الجهل المستمر» كان منبع الشرک وعبادة الأصنام، وفى الحقيقة إنَّ تعاضد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الاجتماعية، وهى: الجهل باللَّه وبأنّه لا كفو ولا مثيل له، والجهل بمقام الإنسان وأنّه أشرف المخلوقات، والجهل بالطبيعة وأنّه لا قيمة للجمادات فى قبال موجود كالإنسان.

ترى كيف سمح الإنسان لنفسه أنْ يجعل قطعة من الحجر اقتطعت من الجبل تارة فى درجات السلّم فى منزلة يسحقها بأقدامه، وتارة يصنع منها صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى ، يعدون هذا جهلًا «۱»؟

۳۱- الجهل السبب الأساسى للفشل

«يَا ايُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنينَ عَلَى الْقِتَالِ انْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِأَتَيْنِ وَانْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِأَةٌ يَغْلِبُوا الْفاً مِّنَ الَّذينَ كَفَرُوا بِانَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ . (الأنفال/ ۶۵)

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى معركة «بدر» وعدم تساوى عدد المشركين والمؤمنين فيها، وهى تنفى اسطورة توازن القوى كإيعاز إسلامى إلهى تأمر الآية بعدم التراجع فى المعركة حتى لو كان عدد جنود الإسلام عُشْرَ جنود العدوّ! لكن الذى يسدُّ النقص الكمى فى القوات الإسلامية- كما تصرح الآية- هو شيئان: الأول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين، والثانى هو جهل وحماقة الأعداء.

وهذا يدل بوضوح على أنّ الاستقامة والصبر هما الطريق للنصر، وأنّ الجهل هو سبب الخسران والفشل.

الجهل بالقابليات والطاقات الإلهيّة المودعة فى ذات الإنسان.

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السـلام: «الجاهل لا يرتدع، وبالمواعظ لا ينتفع». (غرر الحكم، ج ۱، ص ۶۸). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلّة العقل». (اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۸).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۵

الجهل بقدرة اللَّه عزّ وجلّ وعظمته.

الجهل بتقنيات وقواعد المعركة، وأنواع اخرى من الجهالة «۱».

۳۲- الجهل مصدر لاشاعة الفساد

«أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (النمل/ ۵۵)

إنّهم قوم لايؤمنون باللَّه يجهلون بهدف الخلق وقوانينه، ويجهلون الآثار السيئة لهذا الإثم والعار يعنى «اللواط»

إنّ هـذا الحـديث الذى نطق به النبى العظيم «لوط» يشـير بوضوح إلى أنّ ميل أولئك القوم إلى هذا العمل البشع والقبيح (اللواط) نشأ عن الجهل وعدم المعرفة.

والنبى يوسف عليه السلام يُشير إلى هذا المعنى باسلوب آخر:

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ . (يوسف/ ۳۳)

إنَّ ذكر النسـاء بصـيغة الجمع يـدل على أنّ نساء مصـر كُنَّ يُردنَ أن يُخرجنَ يوسف عن جادة العفاف وليس امرأة عزيز مصـر (زليخا) فقط، ويوسف عليه السلام كان مستعداً لتقبل السجن برحابة صدر على الابتلاء بحبِّ نساء مصر له.

إنَّ الجملـة الأخيرة من الآيـة السابقة تُشـير إلى أنَّ العشق الملوّث بالإثـم والانحرافات الجنسـيـة (على الأقل فى كثير من الموارد) ناشـئٌ عن الجهـل، الجهـل بـالقيم المجبول عليهـا الإنسان، الجهل بالآثار القيمـة للعفاف والطهارة والنزاهـة، والجهل بمردودات الإثم، وأخيراً الجهل بالأوامر والنواهى الإلهيّة.

وكما نرى فى قصة يوسف بوضوح أنّ السبب الأساسى فى ارتكاب الجريمة من قِبَل

(۱). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «من عمل على غير علم كان ما يُفسدُ أكثر ممّا يصلح». (مشكاة الأنوار، ص ۱۳۵).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۶

إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم:

«قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ انْتُمْ جَاهِلُونَ . (يوسف/ ۸۹)

نعم أنتم الـذين عـذبتم أخاكم أولًا، ثم ألقيتموه فى الجب عن جهل ثانياً! أنتم الـذين كذبتم على أبيكم ذلك الشـيخ العجوز وأَدْمَيْتُمْ قلبه عندما أخفيتم ابنه عنه، وفى النهاية بيعه بعدة دراهم بخسة كما يُباع الرق ولم تفوا بعهدكم الذى عاهدتم به أباكم تجاه الأخ الآخر «بنيامين» عندما اتُّهِمَ بالسرقة فتركتموه وحيداً.

وجهلكم هو وحده منشأ جميع هذه الأفعال «۱».

۳۳- الجهل أساس التعصب والعناد

«إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ...». (الفتح/ ۲۶)

إنَّ كلمـة «حمية» مشـتقة من مادة «حَمْى» على وزن «حَمْد»، وكما يذكر الراغب فى «مفرداته» أنّ معناها الأولى هو الحرارة الناشـئة من

أشياء مثل النار والشمس والقوة الباطنية فى جسم الإنسان (الحرارة الذاتية والباطنية للأشياء)، ولهذا يقال لارتفاع درجة حرارة المريض (حُمّى على وزن (كُبْرى ، وبما أنَّ التعصب والغضب يولـدان حرارة وحرقـة فى باطن الإنسان قيل «حمية»، وقد جاء فى كتاب «التحقيق فى كلمات القرآن الكريم» أنّ «الحمية» هى شدة الحرارة والعلاقة والتعصب فى الدفاع عن النفس «٢».

إنَّ هذه الآية نزلت فى حوادث صلح الحديبية وتوضيح قصة سبب النزول: أنَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قصد مكة للحج فى السنة السادسة من الهجرة، إلّاأنّ المُشركين منعوا المسلمين من دخول مكّة تعصباً لجاهليتهم، مع أنَّ السماح بزيارة مكة كان مباحاً للجميع

---

(١). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «فقيه واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٧).

(٢). «هى شدة الحرارة، والعلاقة والتعصب فى الدفاع عن نفسه والتعفّف والترفع». (مادة حمى .

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٧

حسب قوانينهم وسننهم المتعارفة، فهم بهذا انتهكوا حرمة الحرم الإلهى، ونقضوا سنتهم، إضافة إلى أنّهم وضعوا حائلًا ضخماً بينهم وبين الحقائق.

إنّ إضافة «الحمية» إلى «الجاهلية» من قبيل إضافة «السبب» إلى «مسببه»، التعصب والعناد والغضب ينشأُ عن الجهل دائماً، لأنّ الجهل لا يسمحُ للإنسان أن يفكر بعواقب أعماله، ولا يسمحُ له قبول أن فكرته قد تكون خاطئة، وأنَّ هناك علماً أوسع وأكبر من علمه، ولهذا نرى أنّ شدّة عناد وتعصّب الأقوام الجاهلة أكثر منها فى الأقوام الاخرى، ولهذا السبب نجد أن الأنبياء والرسل عندما يبعثون إلى قوم بالرسالات والأنوار الإلهيّة الساطعة، يواجهون مقاومة عنيفة، ويتهمون بمختلف التهم، وقد أورد القرآن الكريم نموذجاً من ذلك:

«وَعَجِبُواْ أن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنهُمْ وَقالَ الكَافِرونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ* أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً وَاحِداً إِنَّ هَذا لَشَىءٌ عُجَابٌ* وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ يُرَادُ* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . (ص/ ٤- ٧)

حيث ترى أنّ حديثهم مملوء بالعناد، الناشىءُ عن الجهل والغرور «١».

٣٤- الجهل مصدر لاختلاق الحجج

«وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . (البقرة/ ١١٨)

هناك قضية تتكرر دائماً فى تاريخ الأنبياء والرسل وهى أنّ الجاهلين والمعاندين يختلقون الحجج الواهية من أجل الهروب من الإيمان بالأنبياء والرسل والتسليم للحق الذى يرونه بأم أعينهم من خلال المعاجز الإلهيّة ووسائل الاقناع التى يأتى بها الرسل فتراهم تارة يقولون لِمَ بَعثَ اللَّهُ بشراً رسولًا؟ لِمَ لَمْ يأت مَلَك محله؟

---

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أصل كل خير والجهل أصل كُل شر». (غرر الحكم، ص ٢٠ و ٢١).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٦٨

وتارة يقولون: لِمَ لم ينزل علينا كتاباً نقرأُه؟

و أُخرى يقولون: لن نؤمن ما لَمْ نرَ اللَّهَ والملائكة جهرة.

وتارة اخرى يقولون: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب وتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، كما فى سورة (الإسراء) فى الآيات ٩٠، ٩٣.

كما أنّ هناك أمثلة ونماذج اخرى ذكرت فى القرآن الكريم.

فى الحقيقة أنّ ذوى العلم يكتفون بدليل منطقى واحد، وإذا تعددت الأدلة عندهم ازدادوا رسوخاً وإيماناً.

لكن المتعصبين والجاهلين المعاندين غير مستعدين للتخلى عن عقائدهم وخرافاتهم، فيتمسكون كل يوم بحجّة فى سبيل الهرب من الحقيقة، وإذا ما دُحِضَتْ حجتهم تركوها وتمسكوا بحجة اخرى، ذلك لأنّ هدفهم ليس طلب الحقيقة بل التملص منها «١».

٣٥- الجهل هو سبب التقليد الأعمى

«إِذْ قَالَ لِابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى انْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنْتُم انْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (الأنبياء/ ٥٢- ٥٤)

إنَّ كلمة «التماثيل» جمع «التمثال» والتى تعنى الموجود الذى له وجه، وتطلق على التماثيل المنحوتة والرسوم.

وكلمة «عاكفون» مشتقة من مادة «عكوف» وتعنى التوجه المستمر نحو شىءٍ والمتزامن مع التعظيم، واصطلاح «اعتكاف» يطلق على العبادة الخاصة المعروفة التى تقام فى المسجد وهى مشتقة من نفس المادة.

نعم، إنَّ عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقىٌّ على عملهم القبيح هذا، وغالباً ما كانوا

---

(١). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

نفحات القرآن، ج١، ص: ٦٩

يقتنعون بتقليدهم الأعمى ولهذا نعتهم ابراهيم عليه السلام بأنهم وآباءهم فى ضلالٍ مبين.

إنّ ابراهيم عليه السلام فى بقية محاكمته التاريخية لعبدة الأصنام فى بابل يقول: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟! ثم يضيف «أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء/ ٦٦- ٦٧)

يعنى أنّ هذا التقليد الأعمى ناشىءٌ عن عدم التعقل والتأمل وهو نابع من الجهل، ودليله واضح، فإنّ ذوى العلم يتمتعون باستقلال فكرى، واستقلالهم الفكرى هذا لا يسمحُ لهم بالتقليد الأعمى بينما الجاهلون تراهم مرتبطون بهذا وذاك وبشكل أعمى فيتبعون الآخرين على غير بصيرة.

٣٦- الجهل عامل الخلاف والفرقة

«لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَميعاً الّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ اوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِانَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْقِلُونَ . (الحشر/ ١٤)

إنَّ كلمة «قرى تعنى جمع «قرية» ومعناها الأماكن المعمورة أعم من الأرياف والمدن، وقد تطلق على مجموعة يسكنون فى مكانٍ ما، و «قرىً محصَّنةٍ» تعنى المناطق الآمنة من العدو بسورٍ أو ابراج أو خنادق أو غيرها.

إنَّ هذه الآية تتحدث عن طائفة «بنى النضير» (إحدى ثلاث طوائف يهودية تقطنُ المدينة) حيث تكشف عن فزعهم وخوفهم الباطنى واختلافهم وفرقتهم، فتصرح الآية للمسلمين: إنّكم تحسبونهم جميعاً ومتحدين لكنّ الواقع أنّ شملهم متفرق بسبب جهلهم وعدم معرفتهم.

إنّ الاختلاف ينشأ عن الجهل، والاتحاد ينشأ عن المعرفة دائماً، فالجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاتِهِ فحسب، بل يجهلون اسس التعايش السلمى، واسلوب التعاون وشروط النشاطات المشتركة، وهذه المسألة أدّت بهم إلى الاختلاف والفرقة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۰

إنّ المتعصبين والمعانـدين والمتكبرين والحاقـدين والسـفهاء، لاـ يمكنهم الاتحـاد مع الآخرين، لأنّ كلًا من هـذه الصـفات تكون مانعاً كبيراً امام الوحدة، ويجب أن نعلم بان منشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل «۱».

۳۷- الجهل هو سبب سوءالظن بالآخرين

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنْ بَعْـدِ الْغَمِّ أَمَنَـةً نُعاساً يَغْشَى طَائِفَـةً مِّنْكُمْ وَطَائِفـةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُـهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ...». (آل عمران/ ۱۵۴)

تحدثت هذه الآية عن الليلة المضطربة والملتهبة التى عاشها المسلمون بعد معركة أُحُد، حيث احتمل بعض المسلمين هجوم قريش فى تلك الليلة مرّة اخرى لتدمير آخر ما تبقى من مقاومة المسلمين بعد ما أُنهكوا فى المعركة نهاراً.

فى هـذه الأثناء أنزل اللَّه على المسـلمين نعاساً مهدئاً لهم، إلّاأنّ ضـعيفى الإيمان قد تاهوا فى أفكارٍ رهيبة فما اسـتطاعوا النوم آنذاك، وكـانوا يتسـاءلون: يـا ترى هـل أن وعود الرسول حقّـةٌ؟ هـل أننـا سنتتصـر فى النهايـة مع مـا حصل لنا فى أحـد؟ هل سـننجو من هـذه المهلكة؟ أو أنّ كل ما قيل لنا كان كذباً؟ وما إلى ذلك من الوساوس وإساءة الظن الجاهلى.

لكن الحوادث التى حصـلت فيما بعـد بينت لهم خطأهم الفاحش، وأنّ كافـة الوعود الإلهيّة حقة، ولو أنّهم انفصـلوا عن أفكار الجاهلية تماماً لَما أساءوا الظن باللَّه ورسوله.

والتعبير فى الآيـة يوحى بأنّ الجهل هو أحـد أسـباب إساءة الظن، وأنّ عـدم قدرتهم على التحليل الصـحيح للحوادث جعلهم يسـيئوون الظن، ولو كانت لهم القدرة الكافية على تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا فى شباك سوء الظن.

ج ج

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لو سكت الجاهل ما اختلف الناس». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۱).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۱

۳۸- سوء الأدب ينشأ عن الجهل

«انَّ الَّذِينَ يُنَادُونَکَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ . (الحجرات/ ۴)

كـان البعض يضـايق الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله حيث كانوا يقفون عنـد باب بيته منادين بصوت عالٍ: «يا محمـد!» «يا محمـد! اخرج إلينا» فكان رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يتأذى من اسلوبهم هـذا، ولكنّه كان يكظم غيظه وذلك لما كان يتصف به من خُلُقٍ عظيم، إلى أن نزلت هذه الآية، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومحاطبتِهِ (فى سورة الحجرات).

والتعبير ب «أكثرهم لاـ يعقلون» إشـارة جميلـة إلى أنّ سوء الأـدب غالبـاً مـا ينشـأ عن الجهل فكلما فُقِـد العلم حل سوء الأدب مكانه، وكلما تواجد العلم تواجد الأدب معه.

«وَاذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ انْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ انْ اكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . (البقرة/ ۶۷)

إنَّ الآية تتعلق بقضية قتلٍ حدثت فى بنى اسرائيل كادت أن تجر إلى معارك كبيرة بين قبائل بنى اسرائيل لجهلهم بالقاتل: فأمر اللَّه أن يذبحوا بقرة ويضربوا بقسمٍ منها المقتول كى ينطق ويُعرفهم قاتله.

وبما أنّ هذه القضية كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبنى اسرائيل، فقد قالوا لموسى ابتداءً: أتتخذنا هزواً؟

فأجـاب موسـى عليه السـلام: أعوذ باللَّه أن أكون من الجاهلين أى أنّ الاسـتهزاء من معالم الجهل ودليل على العجب والتكبر والغرور،

فإنّ الذين يتمتعون بهذه الصفات يتخذون الآخرين هزواً كى يحقّروهم، ونعلم أن التكبر والعجب ينشآن عن الجهل حتى أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء «۱».

۳۹- الجهل سبب الندم والمشاكل الاجتماعية

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ان جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا انْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۱).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۲

مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . (الحجرات/ ۶)

إنَّ هـذه الآية تمثل قاعدة أساسية تأمر المسلمين بأنْ يتبيّنوا ويتأكّدوا من كون الرواة ناقلى الأخبار من الثقات ويحققوا فى الخبر الذى وصلهم من فاسق أو شخص لا يُعتمد عليه فلا يستعجلوا باتخاذ الإجراءات على ضوء ما نُقِلَ لهم من خبر، لأنّه قد يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية.

فمن البديهى أنَّ الجاهلَ لا يُمكنه أنْ يتّخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف القضايا، وعدم معرفته هـذه تؤدّى به إلى كثير من المآسى والمشاكل الاجتماعية والتى نهايتها النّدم.

۴۰- الجهلُ وتبدّل القيم

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى انْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى انْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُو شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَانْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۲۱۶)

إنَّ نشاطات الإنسان وفعالياته تنسجم دائماً مع القيم التى يعتقد بها، ومعرفة هـذه القيم لها دور أساسى فى تبلور وتوجيه نشاطات الإنسان وفعالياته.

فالجهلُ وعدم المعرفة قد يؤدى به إلى الوقوع فى الخطأ عند التمييز بين (القيم) وبين (أضدادها)، أى أنْ يشخص ما هى القيم التى تكون سبباً فى التقدّم والخير والبركة، ويفرق بينها وبين ما هو عامل الشرّ والشقاء والانحطاط.

إنّ الآية السابقة تقول: إنّ للجهاد فى سبيل اللَّه قيمة- فهو سبب للعزة وصيانة ماء الوجه والفخر والموفقية-، لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره، وتعتبرون القعود وترك الجهاد قيمةً وعاملًا للسلامة والسعادة، لكنه عامل وسبب لشقائكم.

وعلى هـذا، فالجهل هو سبب الخطأ فى تمييز القيم، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة وغير المدروسة تجاه القضايا المختلفة والحوادث المتنوعة التى تحدث فى الحياة اليرمية وعامل للافراط والتفريط «۱».

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لا ترى الجاهل إلَّا مفْرِطاً أو مُفَرِّطاً». (نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ۷۰).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۳

الخلاصة و النتيجة:

إنّ المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والتى دُرجت تحت أربعين عنواناً، ولربّما تكون أكثر حيث (لا ندعى تحديدها بهذه العناوين أبداً) والتى تحثُ على طلب العلم والمعرفة، تمثل اهتمام القرآن البالغ بمسألة المعرفة فى جميع المجالات، سواء فى مجال

معرفة الذات والصفات الإلهيّة، أو فى مجال معرفة الكون والسماوات والأرض وجميع الكائنات والإطّلاع على أسرار المخلوقات الأرضية والسماوية الطبيعيّة أو ما وراء الطبيعة، ومعرفة النفس والإلمام بمختلفِ العلوم.

ومن خلال البحث فى الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأُمور التالية:

١- إنَّ طريق العلم والمعرفة ميسر للناس كافة، وكلٌّ حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوى ما أمكنه منه، وبدون ذلك فالدعوة للعلم والتأكيد على أهميته لا معنى لها.

٢- إنَّ قيمة الإنسان لها علاقة مباشرة بمقدار معرفته للّهوأسرار عالم الوجود.

٣- إنَّ أكبر مفخرة وموهبة للإنسان هو قابليته واستعداده لتقبل المعارف بالرغم من ضعفه الجسمانى.

۴- إنَّ طلب العلم هو طريق الانتصار والغلبة على مختلف المشاكل: وهو طريق تزكية النفس.

۵- من أجل مواجهة الشقاء ومختلف المفاسد نحتاج إلى العلم والمعرفة قبل أى شىءٍ آخر.

نؤكّد أنَّ هذه الآيات نزلت فى زمان خيمت فيه غيوم الجهل السوداء، وغطت أفق المنطقة بل العالم ظلاماً، فى حين أنّ شمس العلم قد غابت وغرق الناس فى أمواج الجهل.

حقّاً إنَّه لشىءٌ عجيب أن تكون مثل هذه البيئة مهداً لهذه الرسالة ذات التعاليم السامية أن يكون إنساناً امياً رسولًا لمثل هذه المدرسة العظيمة مدرسة الإسلام الخالد وهذا دليل حى على حقانية القرآن.

إنَّ الملفت للنظر هو احصاء سبعمائة آية من قبل بعض المحققين تتحدث عن العلم

نفحات القرآن، ج١، ص: ٧۴

والمعرفة وأرضياتها ومصادرها، وبالقياس إلى آيات الأحكام والتى تقدر بخمسمائة آية، نستطيع أن نستنتج أن القرآن أولى أهميّة كبرى للعلم والمعرفة فاقت الأهميّة التى أَوْلاها للأحكام الشرعية.

ج ج

توضيحات

١- إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية

اشارة

إنَّ وجود عالم خارج الذهن أمر مسلم وبديهى لايحتاج إلى برهان، ويعترف بهذا عملياً حتى السوفسطائيون أو المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجية.

لكن البحث ينصب فى هل من سبيل إلى معرفة هذه الواقعيات؟

وإذا كان الجواب بالايجاب فما هى سُبُل المعرفة ووسائلها؟

ما هى شروط الوصول إلى المعرفة؟

وبتعبير آخر، هل يمكن تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية، أى انعكاس صورة ما فى الخارج عيناً فى الذهن أم لا؟ إنَّ جميع تعاريف المعرفة والاختلافات الحاصلة حول ذلك ترجع إلى هذا الموضوع «١».

ومن جهة اخرى فإنّ جذور جميع العلوم والمعارف البشرية تكمن فى الإجابة عن هذا السؤال.

وبـالرغم من أنّ أغلب الفلاسـفة (سواء المـاديين منهم أو الإلهيين) يؤيـدون إمكانيـة معرفـة الواقعيات الخارجيـة، إلّاأنّ البعض منهم لا يعتقد بإمكانيتها، وقد ذكرت أربعة أدلة لإثبات مرادهم:

---

(١). وعلى هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن: تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية، وانعكاسها فى مرآة الذهن كما هى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٥

١- إنّ الحواس هى أهم وسائل المعرفة، والبصر يقع فى الدرجة الاولى من حيث الأهميّة، لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة!

فالشهاب المشتعل فى المساء نراه كخط من النور الممتد، بينما هو عبارة عن نقطة ضوئية متحركة لا أكثر!

وإذا كنّا نمشى فى شارع مُشجّر الطرفين، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها تقترب من بعضها البعض، وتتصل وتشكل زاوية فى نقطة بعيدة عنّا بينما الأشجار لم تلتقِ على طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية، والفاصلة بينها متساوية فى جميع نقاط الشارع.

وإذا كانت احدى يـديك باردة والاخرى حارة ووضـعتهما فى ماء دافىء، فانّك تحس بالحرارة باليـد الباردة، وبالبرودة باليد الحارة، فيرتسم فى الذهن إحساسان متضادان اتجاه الماء فى آن واحد.

ولدينا الكثير من الأمثلة عن عدم إمكان الاعتماد على حاسة البصر وبقيّة الحواس (اللامسة وغيرها).

ومع وجود هـذا النقص فكيف نعتمـد على حواسنا؟! بـل إنَّ عـالم الخارج يمكن أن يكون وهماً أو أضـغاث أحلام ولا غير، وهل أنّ الذى نراه فى الرؤيا ونعتبره حقيقة فى ذلك الحين، يُمثل الحقيقة؟

٢- لا- نكـاد نرى اثنين من العلماء أو المفكرين فى هـذا العالم يتفقان فى جميع المسائل، وما هـذه الاختلافات بين العلماء إلّادليلًا على فقداننا الطريق الذى يهدينا إلى معرفة الحقائق.

فالذى رأه واقعاً عينياً قد يكون برأى الآخرين وهماً وخيالًا لا أكثر والعكس صحيح.

وحتى الإنسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تجاه قضية معينة تحت ظروف مختلفة، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة.

٣- إنّ الموجودات فى العـالم كلّهـا فى حركـة مسـتمرة، وينتـج عن هـذه الحركـة تحول أوضـاع الموجودات وحتى أفكارنـا ومعـارفنا وعلومنا خاضعة لهذه الحركة، فكيف يمكن

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧۶

أن تحصل لنا معرفة حقيقية لهذه الموجودات والعلاقات بينها، مع أنّ المعرفة تستدعى الاستعاذة بأمرٍ ثابت.

۴- نعلم أنّ العالم يُمثل نظاماً موحـداً ومترابطاً، ومعرفـة جزء منه تسـتدعى معرفـة الكل، وعليه، فإنّ فقـدان حلقة من السلسـلة المترابطة للعالم يُخلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أى جزء منه.

ومن جهة اخرى فإنّ الواقعيات التى لايمكن للبشر إدراكها كثيرة ولا يحصى عددها بالقياس إلى حجم المعلومات البسيطة.

وعلى هـذا، فكيف يمكن لنا أن نعـد معرفـة العالم أمراً متيسـراً؟ إذن يجب الاعتراف بأنّ ما فى أذهاننا مجرّد تصورات لها قيمـة علمية فقط، وليست لها أية قيمة واقعية.

ج ج

الجواب:

يمكن الإجابة على هذه الاستدلالات بثلاث طرق:

١- إنّ جميع الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة الواقعية، يؤمنون بالكثير من المسائل الواقعية، فهم يمسكون بأقلامهم ليبرهنوا ويستدلوا فى مؤلفاتهم على صحة ما ذهبوا إليه وخطأ مخالفيهم، ومن خلال انكارهم فانّهم عرفوا المئات من المسائل الواقعيـة، ومن خلال هـذه

المعرفـة دقـوا طبول الحرب ضـد مخـالفيهم واسـتفادوا فى حربهم هـذه من الكـثير من الامـور الواقعيـة مثـل، القلم، والورق، الخطوط، الكلمات، الجمل والعبارات، الكتب، دور الطبع والنشـر والمكتبات، المخالفين أنفسهم، المخاطبين، الأمواج الأثيرية، النور وغيرها، كل ذلك يمثل اموراً واقعيـة اسـتفادوا منها فى معرفتهم ليشـنوا بها حرباً على المعرفة، فلقد اسـتعانوا بالمعرفة ضد المعرفة وهو خطأ فاضـح يستدعى الدقة والتأمل.

٢- إنَّ خطأهم الكبير هو عـدم تمييزهم بين مسألـة كون معرفـة الإنسان محـدودة وبين أصل مسألـة المعرفـة، فأن اسـتدلالاتهم لا تنفى إمكانية المعرفة مطلقاً، غاية الأمر أنّها تثبت

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٧

أنّ معرفة الإنسان محدودة أو مقرونة بالاخطاء أحياناً.

أَجَل، لا يمكنهم إنكار وجود «الشـهاب» بل إنّ ما يقولونه فى هـذا المجال هو أنّ الخط النورانى الـذى نراه ليس خطاً نورانياً بل نقطةٌ نورانيةٌ، والتصور الخاطىء هذا نشأ عن خطأٍ فى حاسة البصر، إذ ليس الخطأ فى وجود نفس الشهاب بل فى تصور خطٍ ممتدٍ ملتهبٍ.

كما أنّ الخطأ ليس فى نفس وجود الشارع والأشـجار على طرفيه بل الخطأ فى أنّ الأشـجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها البعض فى أبصارنا، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافىء، فليس الخطأ فى نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعينة، بل فى تمييز درجة الحرارة.

ولكنّا- كما سـبقت الإشارة- لا ندعى إدراكنا لجميع حقائق الوجود، كما لا ندعى أن معرفتنا منزهة عن أى خطأ، بل ما نريد إثباته هو إمكانيـة المعرفـة على سبيل القضـية الجزئيـة، وقـد نشأ خطأ أصـحاب الرأى القائل بعـدم إمكان المعرفة من ادعائهم القاطع الجازم بعد وجود المعرفة.

والملفت للنظر هو أن ما ذكره مخالفو إمكانيـة المعرفـة من أدلـة يمكن أن يسـتخدم كـدليل ضـدهم، لأنّهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس، فـإنّ مفهوم ادعـائهم أن هـذه الحقيقـة اكتشـفناها بحواسـنا الاخرى أو بطرق عقليـة، فنـدرك خطأ الحاسـة المعيَّنـة فى ذلك المورد، وهذا اعتراف صارخ بصحة بعض المعارف.

فعندما نقول مثلًا: إنّ الخط الملتهب الممتد الذى نراه عند ظهور الشـهاب فى السماء خطأٌ، فذلك بسبب إنا لاحظنا بحواسنا الاخرى إنَّ الشهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها إلى الأرض وذلك لسرعتها واحتكاكها بطبقة الهواء، وعندما تبدو لنا كالنقطة النيرة، وبما أنّها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين فى التمييز ونراه خطاً ممتداً وملتهباً، مستقيماً منحنياً.

كذلك الأمر بالنسبة للخطين المتوازيين عندما نراهما متقاطعين من بعيد، بينما رأيناهما من قريب متوازيين فعند مقارنة المعلومات التى حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعترف بخطأ أبصارنا من بعيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٨

إذن يجب القول بأنّ أى حكم بخطأ بعض المعلومات، دليل على معرفة كثيرٍ من الحقائق (دقّق النظر فى ذلك).

٣- إنّهم فى الحقيقـة لم يميزوا جيـداً بين «البـديهيات» و «النظريات» ولا بين «المعرفـة الإجمالية» و «المعرفة التفصـيلية» ولا بين «الامور المطلقة» و «الامور النسبية»، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتمييزهم لهذه المواضيع الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ.

ج ج

إيضاح:

إنّ هنـاك حقـائق لاـ يشك بها أحـد إلّاالسوفسـطائيون وكما قلنا سابقاً أنّهم ينكرون الحقائق بالسـنتهم ويعتقـدون بها فى قلوبهم وهى الحقـائق التى لاـ حاجـة إلى التفكير فى إثباتهـا، فالكـل يعرف مثلًا أنّ اثنين زائـداً اثنين يساوى أربعـة، وأنّه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصـيف والشـتاء فى آن ومكان واحـد، أو شـخصاً واحداً يكون فى مكة والمدينة فى آن واحد وحتى أولئك الذين يعدّون

اجتماع النقيضين أو الضدين ممكناً، فانّهم يتلاعبون بالألفاظ فقط، ويذعنون لهذه الحقائق قلبياً، فمثلًا بالنسبة ل «اجتماع الضدين» يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً فى ساعة ومشمساً فى ساعة اخرى، إذن اجتماع الضدين أمر ممكن، أمّا إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً فى ساعة ومكان واحد؟ فسيجيبون: لا.

وفى مقابل هذه المعلومات البديهية هناك قسم آخر من المعلومات وهى «المعلومات النظرية» التى تحتمل الخطأ والترديد، وما ذكره المنكرون من عدم إمكانية المعرفة فانّه يتعلق بهذا النمط من المعلومات.

كما أنّ هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالأمثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الأعداد وامتناع اجتماع النقيضين والضدين).

ولكن لا يمكن إنكار أنّ هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التى تتغير بتغير الظروف،

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٧٩

فمثلًا الحرارة والبرودة أمران نسبيان، فكل شيءٍ حرارته أكثر من حرارة جسم الإنسان فهو حار، وكل شيءٍ حرارته أقل من حرارة جسم الإنسان فهو بارد، فإذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا تتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندنا، ولهذا قد يجلس شخصان فى غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب تشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب فتح الأبواب.

بالطبع، فى هذا المجال توجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة حرارة الغرفة وتصورنا عن الحرارة والبرودة ينشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم تجاه المسألة.

كما أنّ فى العالم هناك حقائق ثابتة وحقائق متغيرة، والأمثلة التى ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة، وحتى الماركسيون القائلون بتغير وتبدل الحقائق فى العالم يستثنون حقيقة التحول والتغير كقانون ثابت، ويعتقدون أنّ كل ما فى العالم فى تحولٍ وتغيّر مستمر إلّانفس قانون التحول والتغير فانّه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعةً اخرى من القوانين يفرضون ثباتها اضافةً إلى هذا القانون).

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فإنّ هناك «معرفةً إجماليةً» ومعرفةً تفصيليةً» هناك حقائق لا نعرف عنها إلّاشيئاً إجمالياً، فلا معرفة لنا بخصائصها وعلاقاتها بالأشياء الاخرى فى العالم تفصيلًا، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعنى نفى المعرفة الإجمالية عنها.

فمثلًا العين جزء من الجسم، وما لم نعرف الجسم بجميع أعضائه جيداً لا نتمكن من معرفة علاقة العين بأعضاء الجسم الاخرى، لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلًا لا يمنع من معرفتنا لها إجمالياً وأنّها تقع فى الرأس وتحت الجبين، ولها سبع طبقات، وكل طبقة مهمّة خاصة بها، وفائدتها رؤية المناظر واللقطات المتنوعة.

وبالنظر لما تقدم يتضح أنّ أدلة المخالفين لنظرية المعرفة نشأت من عدم دقتهم فى التقسيمات السابقة، فعندما يقولون: إنّ العالم كتلة واحدة، وعدم معرفتنا لمفردة من مفرداته يفقدنا المعرفة بأى جزء منه، فقولهم هذا خلطٌ فى الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والإجمالية، لأنّا إذا أردنا معرفة جزءٍ ما فى العالم بجميع علاقاته بباقى أجزاء العالم يجب

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٠

علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقّة، فهذه معرفة تفصيلية، بينما المعرفة الإجمالية لا تستدعى ذلك كله، ومعرفتنا للأرض والسماء وأفراد البشر والكائنات التى من حولنا هى كلها من هذا القبيل من المعرفة «١».

وهناك ايضاحات أكثر فى هذا المجال سنعرض لها فى الفصل اللاحق إن شاء اللَّه تعالى

ج ج

٢- العلم البشرى المحدود

اشارة

۱- «وَيَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ امْرِ رَبّى وَمَا اوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ الَّا قَلِيلًا».

(الاسراء/ ۸۵)

۲- «... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَکْسِبُ غَدَاً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِایِّ ارْضٍ تَمُوتُ ...».

(لقمان/ ۳۴)

۳- «وانْ مِّنْ شَئ‌ءٍ الَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَکِنْ لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...». (الاسراء/ ۴۴)

۴- «وَعَسَى انْ تَکْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّکُمْ وَعَسَى انْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّکُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَانْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۲۱۶)

۵- «لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالْارْضِ اکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَکِنَّ اکْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ .

(غافر/ ۵۷)

۶- «... لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِکَ امْراً». (الطلاق/ ۱)

۷- «قُلْ لَّاامْلِکُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً الَّا مَا شآءَ اللَّهُ وَلَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَکْثَرتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ...». (الاعراف/ ۱۸۸)

۸- «... آبَائُکُمْ وَابْنَائُکُمْ لَاتَدْرُونَ ايُّهُمْ اقْرَبُ لَکُمْ نَفْعاً ...». (النساء/ ۱۱)

۹- «وَلَوْ انَّمَا فِى الارْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ کَلِمَاتُ اللَّه انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَکيمٌ . (لقمان/ ۲۷)

---

(۱). قد يقال إنّ منکرى المعرفة لا ينکرونها کلياً، وعلى هذا فالنزاع بينهم وبين المؤيدين لنظرية المعرفة يکون نزاعاً لفظياً.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۱

شرح المفردات:

إنّ کلمة «روح»- وکما جاء فى قواميس اللغة- فى الأصل اشتقت من مادة «ريح» ويطلق على التنفس کذلک، وبما أنّ هناک علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الإنسان استعملت الروح بمعنى النفس، ومن ثم بمعنى تلک الحقيقة المجرّدة التى يتوقف بقاء الإنسان عليها.

إنّ «روْح» على وزن (لَوْح) تعنى النسيم البارد، وکذلک اللطف والرحمة، ومنه اشتُقّت کلمة «الرائحة» و «المروحة».

وَإنّ کلمة «تفقهون» مشتقة من مادة «فقه» وقد جاءت- کما فى لسان العرب- بمعنى الاطلاع على شى‌ءٍ وفهمه، لکنها تطلق اطلاقاً خاصاً على علم الدين (أو علم الأحکام)، وذلک لرفعة وأهميّة هذا العلم، والراغب فى مفرداته يقول: «الفقه يعنى الاطلاع على شى‌ء خفى بواسطة الاطلاع على أمرٍ ظاهر ومکشوف» وعلى هذا مفهومه أخص من مفهوم العلم.

وَمعنى کلمة «غَيْب»- وکما جاء عن ابن منظور فى لسان العرب- هو «الشک» ويطلق على کل شى‌ءٍ خفى عمله عن الإنسان، (ولعل ذلک بسبب أنّ الأشياء الخفية غالباً ما تقع مجالًا للشک).

يقول الراغب عند تفسيره لجملة «يؤمنون بالغيب»: إنّ الغيب شى‌ء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائى ويعرف بواسطة إخبار الأنبياء.

وکلمة «نفدت» أُخذت من مادة «نَفَدَ» على وزن (حَسَدَ)، «والنفاد» کما يستخلص من المفردات ولسان العرب- يعنى الفناء والدمار، و «مُنَافِد» تُطلق على الشخص القوى للغاية فى استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه، و «نفاد» جاءت بمعنى نضوب ماء البئر.

جمع الآيات وتفسيرها

كان عدد من المشـركين أو أهل الكتاب يسألون النبى صلى الله عليه و آله عن «الروح»، فأمر اللَّه سبحانه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وكما جاء ذلك فى الآية الاولى أن يجيبهم بأنّ «الروح» من أمر ربى

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٢

ويضيف لهم بأنهم ما أُوتوا من العلم إلّاقليلًا، ولهذا فلا قابلية لهم لإدراك حقيقة «الروح» «١».

وفى هذه الآية إشارة واضحة إلى كون العلم البشرى محدوداً (وذلك لأنّ الروح المقصودة فيها هى روح الإنسان) وهى أقرب شىء إلى الإنسان وذلك لأنّ الإنسان ما استطاع الاحاطة علماً بجوهر روحه التى هى أقرب إليه من الحقائق والموجودات فى الكون، وأنّ ما يعرفه عنها هو معرفة سطحية وإجمالية، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الاخرى !

ج ج

أمّا الآية الثانية والتى هى آخر آية من سورة لقمان، تكشُف عن علوم خاصة باللَّه تعالى وأشارت إلى خمسة منها: قيام الساعة، نزول المطر، الجنين الذى فى رحم الام، الحوادث المستقبلية التى تتعلق بأعمال الإنسان والمكان الذى يموت فيه الإنسان، وقد أُشير إلى هذه العلوم الخمسة فى الروايات تحت عنوان «مفاتيح الغيب الخمسة» التى لا يعرف عنها أحد إلّا اللَّه «٢».

وقد يعلم الإنسان علماً إجمالياً عن هذه الأمور الخمسة بالاستعانة بالقرائن، إلّاأنّ الجزئيات لا تتضح لأحد أبداً، فلا يعلم- مثلًا- ما هى قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وأنّه سليم أم سقيم، وحتى جنسه (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلى مراحل متأخرة من حياته فى الرحم.

إنَّ القرآن يخاطب الإنسان فى هذه الآية ويقول: يا أيّها الإنسان أنّك لا تعلم عن غدك شيئاً ولا تعلم فى أى أرض تموت، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما فى العالم وعلمك محدود؟!

---

(١). إنّ جملة «ما أُوتيتم من العلم إلا قليلًا» فُسِّرت من قبل أغلب المفسرين بكونكم أُوتيتم قليلًا من العلم، إلّاأنّ البعض فسّرها بأنّ قليلًا منكم أُوتى علماً، إلّاأنّ هذا التفسير الأخير يتنافى مع ظاهر الآية التى تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح مخاطباً لها فتأمل.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٨، ذيل الآية ٣۴ من سورة لقمان.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٣

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسبيح وحمد جميع الكائنات للَّه، فجميعها بلسان حالها وبالنظام الدقيق والعجيب الذى يهيمن عليها- تحمد وتثنى على اللَّه وتشهد بنزاهته عن أى نقص وعيب، وتملأ العالم بلسان حالها- أو بقولها إضافة إلى لسان حالها- بهمهمة التسبيح والتحميد، وكل ذرة فى هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها، تحمد اللَّه وتثنى عليه بمعرفة، وقد شرحنا هذين الرأيين فى التفسير الأمثل «١».

وعلى أيّة حال، فنحن لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لا نعرف كل شىء عن أسرار هذا العالم ونظامه، كما لا نستطيع فهم ما تقول أيضاً.

و من هنا يتّضح أنّ العالم ملىءٌ بالهمهمة والألحان الإلهيّة ونحن غافلون عن ذلك لأننا لم نحط به خبراً، وهذا دليل واضح على كون علمنا البشرى محدوداً.

ج ج

وتحدثت الآية الرابعة عن «الجهاد» وتقول للذين يكرهون الجهاد: أنتم تجهلون «الخير» و «الشر» ولا تميزون بينهما، فانّكم أحياناً ما تكونون فی حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حبّاً ورغبةً فيه، وهذا دليل واضح على علمكم المحدود حيث إنّكم لا تميزون أحياناً بين ما هو شرٌ لكم وما هو خيرٌ لكم، إلّاأنّ اللَّه يعلم ذلك وقد اوضح بواسطة الوحی (الذی هو أحد مصادر المعرفة) وبيّنَ لكم ما فيه خير وما فيه شر.

إنّ الآية الخامسة مع إشارتها إلى عظمة خلق السموات والأرض أشارت إلى حقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الإنسان، وأشارت أيضاً إلى عدم معرفة أكثر الناس لهذه القضية، هذا فی الوقت الذی كانت فيه معلومات الإنسان بصورة عامة وفی الحجاز بصورة خاصة محدودة تجاه خلق السموات والأرض، ولعلهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية فی كبد السماء، واليوم حيث توسعت معلوماتنا تجاه خلق السموات والأرض، فانّها لا زالت محدودة.

---

(۱). التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۴ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۴

والآية السادسة بعد أن أشارت إلى قضية الطلاق والعدّة وضرورة بقاء المطلقة فی بيت الزوج عند إعتدادها بالعدة الرجعية، تقول: قد يحدث اللَّه أمراً جديداً فی هذه الأثناء أی اثناء مجاورتها لزوجها السابق، الأمر الذی قد يؤدّی إلى الصلح بينهما.

والملفت للنظر هنا هو أنّ مخاطب الآية نفس الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فإذا كان الرسول صلى الله عليه و آله مع علمه الواسع يُخَاطَب بخطاب كهذا فما حال باقی أفراد البشر؟!

وهذا دليل على قصور العلم البشری إلى مستوى بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق.

ج ج

وفی الآية السابعة يؤمر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بأن يقول: إنّی لا أملكُ لنفسی نفعاً ولا ضرّاً، وأن يعترف:

إنّی لا أعلمُ الغيب (إلّا ما علمنی اللَّه) وانی لو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرت وازددتُ من الخير لنفسی وما مسنی ضرٌّ وما حصلت لی مشكلةٌ.

إنّ هذا الحديث قاله الرسول صلى الله عليه و آله عندما كان أهل مكة يسألونه عمّا إذا كان يوحى إليه فلِمَ لا يعلم ما سيؤول إليه امر ارتفاع وانخفاض اسعار السّلع أو الجفاف وهطول الغيث فی المناطق المختلة كی يستزيد من الخير وينتفع أكثر، فأجابهم: إنّ عالم الغيب هو اللَّه وهو صاحب العلم غير المحدود.

عندما يعترف الرسول صلى الله عليه و آله مع علمه الواسع حيث يقول اللَّه تعالى فيه «... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ...». (النساء/ ۱۱۳) بأنی لا أعلم من الغيب (وهو الأمر الخارج عن الحس) إلّا ما علمنی اللَّه فكيف حال بقيّة البشر؟

ج ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۵

والآية الثامنة بعد أن بينت أحكام إرث الأولاد والأب والأم فی حالات مختلفة ذكرت:

حتى أنفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو الأولاد أنفع لكم؟ وأيهم أحق بأموالكم كی يخصص له سهم أكثر.

نعم، لستم على بينة بمصالحكم الشخصية، لهذا السبب لا تستطيعون أن تسنّوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره، إنّ المُقنّن يجب أن يكون الهاً محيطاً بِكل أسرار الوجود، نعم، إنّ قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يسن قوانين تحافظ على مصالحه، ولهذا نرى أنّ القوانين البشرية فی حالة تغيير دائمی، فإذا كان الإنسان يجهل مصيره إلى هذا الحد، فكيف به تجاه الموجودات الاخرى الموجودة فی الكون؟

وأخيراً، فإنّ الآيـة التاسـعة والأخيرة فى البحث هذا تحدثت عن العلم الإلهى اللامتناهى، وصوّرت اللانهاية فى الأذهان بحيث يسـتطيع حتى الـذى لم ينل من العلم إلّا القليل بل وحتى الأُمى أن يرسم فى ذهنه صورة عنها، بالرغم من صـعوبة تصور اللانهايـة حتى للعلماء، حيث قالت: لو أنّ ما فى الأرض من شجر يصير أقلاماً رغم أن الأشجار قد يصل عددها إلى مليارات (بل قد يُصنع الملايين من الأقلام من شـجرة واحـدة: وبـالرغم من أنّ حوضاً صـغيراً قـد يملأ الملايين من الـدواة فكيف بالمحيطات والبحار، وإضافـة إلى هـذا كله، لو اجتمعت الملائكة وكُتاب الانس والجن على أن يكتبوا بهذه الأقلام وهذا الحبر كلمات اللَّه وعلمه ما اسـتطاعوا وسوف تنصرم الأقلام وينتهى الحبر وما زالت كلمات اللَّه جلّ جلاله وعلومه فى بداية الدفتر، هذا من جهة.

ومن جهـة اخرى فأنّنا نعلم أنّ المراد من كلمات اللَّه هو الكائنات الموجودة فى العالم، وعلى هـذا فالآيـة دليل واضح على سـعة العالم وقصور علم البشر.

ج ج

نتيجة البحث:

إنّ ما يستخلص من الآيات السابقة هو أنّ معرفة الإنسان وعلومه رغم سعتها بحدّ ذاتها

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۸۶

ورغم أنّ علوم ومعارف البشـر فى حالـة ازدياد فى كل يوم بل كل ساعة ولحظة، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق، رغم هذا كله فإنّ هذه المعلومات بالقياس إلى المجهولات كالقطرة بالنسبة للبحر.

إذا لم يكن الإنسان عارفاً بخيره وشرّه ونفعه وضـره ولا بِكُنْهِ روحه التى هى أقرب إليه من أى شىءٍ آخر، ولا بالحوادث المقبلة عليه، ولا بساعة موته، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور فى الكواكب البعيدة فى العالم اللا متناهى.

وممـا لاـ شـك فيه أنّ جهـل الإنسـان بهـذه الامور لا لعجزه بل لسـعة الكون، وقـد يكون انكار البعض لنظريـة إمكان المعرفـة نشأ من خلطهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشرى واقترانه بالاخطاء.

إنّ القرآن كما يدعو إلى العلم والمعرفة ويؤكّد على أن باب العلم مفتوح للجميع، يصـرح بقصور العلم البشـرى، هذا النقص والقصور اللذان يدعوانه إلى الاعتراف بعظمة الكون وخالقه وبحاجته إلى الرسل وأصحاب الوحى.

ونختم هذا الحديث بمقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء يوم عرفة، حيث يقول:

«إلهى أنا الفقير فى غناى، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى، الهى أنا الجاهل فى علمى، فكيف لا أكون جهولًا فى جهلى».

ج ج

۳- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشرى

اشارة

إنّ كون علم البشـر محـدوداً أمرٌ مسـلم به وبـديهى ولا يحتاج إلى دليل أو برهان لإثباته، إلّا أنّه بالالتفات إلى النقاط التاليـة يتّضـح لنا الأمر أكثر:

۱- إنّ قدرة حواس الإنسان محدودة، فالعين رغم أنّها أهم وسيلة للمعرفة فى الامور الحسية فهى لا تستطيع رؤية شىءٍ من بعيد، إضافة إلى أنّ عدد الألوان التى يشاهدها

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۸۷

الإنسان محدودٌ جدّاً لأنّ الألوان ما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعين على رؤيتها.

كذلك بالنسبة للاذن فانّها لا تسمع كل شيءٍ بل تسمع أمواجاً صوتية محدودة، وبمجرّد ارتفاع أو هبوط درجة تردد الأمواج فسوف لا تسمع شيئاً، وكذا الحال فى بقية الحواس.

إنّنا بالعين المجرّدة نستطيع رؤية عدّة آلاف من النجوم فى السماء فقط، بينما هناك المليارات من النجوم موجودة فى السماء.

صحيح أنّ الوسائل العلمية ضاعَفَت من قدرة الحواس، إلّاأنّها هى بدورها محدودة القدرة أيضاً.

٢- إنّ قدرة إدراكاتنا وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندنا على الاطلاق، وهذا الأمر يصدق حتى بالنسبة إلى أكثر الناس علماً وذكاءً فإنّ قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة أيضاً.

٣- من جهة اخرى فإنّ العالم واسع بدرجة لا يمكننا استيعابه، ونستطيع أن نقول: إنّ علمنا كلما إزداد، ازدادت عظمة العالم فى أذهاننا.

ولإدراك عظمة هذا العالم (إلى المستوى الذى يصل إليه فكرنا) يكفى أن نعرف أنّ المنظومة الشمسية والنجوم التى نشاهدها حولنا جزء من المجرّة التى تسمى بدرب التبانة (المجرّات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من النجوم التى تشكل عالماً خاصاً بحد ذاتها).

وفى هذه المجرة- على ما يقول العلماء- يوجد أكثر من مائة مليارد نجمة! والشمس بالرغم من عظمتها ونورانيتها فانّها تعتبر من النجوم المتوسطة الحجم فى هذه المجرة.

ونفس هؤلاء العلماء يقرّون- وبالاستعانة بالتلسكوب والحسابات الكمبيوترية- أنّ هناك مليارد مجرة فى هذا العالم تقريباً! «١»

---

(١). جاء فى كتاب (هل وكيف ولماذا) أنّ الفكليين يعتقدون بوجود عدد كبير وهائل من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر والبعض الآخر أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات العادية للنجوم عن وجود مليارد مجرة تقريباً فى هذا العالم. نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٨

إنّ ذكر هذه الأرقام سهل على اللسان لكن ما أصعب تصورها؟! وينبغى أن لا ننسى أنّ معلوماتنا عن هذه المجرات والنجوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا إذا تجاوزنا هذا المحور؟!

٤- ومن جهة ثانية فإنّ عالمنا هذا له بداية ونهاية فلا يعلم أحد عن المليارد سنة الماضية ولا عن المستقبل شيئاً، فهو كالسلسلة بدايتها الأزل وتمتد إلى عمق الأبد، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهى الحلقة التى نعيش فيها، وما ماضيها أو مستقبلها إلّاكشبح مرسوم فى أذهاننا.

صحيح أن الإنسان- وبدافع من فطرته- فى سعى مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين الماضية معلومات كثيرة ادخرها فى خزائن مكتبات العالم الكبيرة والصغيرة.

وصحيح أنّ بعض المكتبات كبيرة إلى مستوى بحيث يصل مجموع طول رفوف الكتب فيها إلى مائة كيلومتر (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة المتحف الانجليزى)! وقد يصل عدد الكتب فى بعضها إلى ستةُ ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس)، بل قد يصل عدد الكتب فى بعضها إلى خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الأمريكية المعروفة)، وقد تصل فهارس الكتب فيها إلى حجم مكتبة كبيرة، وقد يصل الأمر بالبعض أن يستعمل وسائل النقل للتنقل فيها من مكان إلى آخر! لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسراره، فإنّ مجموعها لا يشكل إلّاكقطرةٍ من محيط كبير للغاية.

ج ج

ولا بأس أن نشير هنا إلى شهادات بعض العلماء فى هذا المجال كى يعرف القارىء أنّ ما ذهبنا إليه معترف به عند الجميع.

١- يقول «كريس موريس» الطبيب والعالم النفسانى فى كتابه «سر خلق الإنسان»:

«عندما نفكر بالفضاء اللامتناهى، أو الزمان السرمدى، أو الطاقة العجيبة المودعة فى

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٨٩

الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتى تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين الاخرى التى يرتبط قوام العالم بها، عندما نفكر بهذه ندرك مدى ضعفنا ونقصان علمنا» «١».

٢- ويذكر الدكتور «الكسيس كارل» فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:

«إنَّ المساعى التى بذلت فى العلوم التى اطلع عليها الإنسان لم تصل إلى نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة إلى حدٍ كبيرٍ» «٢».

ولهذا السبب جعل «الإنسان ذلك المجهول» عنواناً لكتابه القيّم، فإذا كانت معرفة الإنسان عن نفسه محدودة إلى هذه الدرجة، فواضح حال معرفته عن الأكوان والعوالم الاخرى.

٣- ويقول العالم المعروف «وليام جيمس»:

«علمنا قطرة، وجهلنا بحر عظيم».

٤- ويقول الفكلى المعروف «فلا ماريون»:

«أستطيعُ أن أهيىء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الإجابة عليها» «٣»!

٥- ويضيف فى كلام آخر له:

«نحن نفكر لكن ما هو فكرنا؟ ونمشى، لكن ما هو عملنا العضلى هذا؟ لا أحد يعلم بذلك.

أرى أنّ إرادتى قدرة غير مادية، لكننى عندما أريد أن أرفع يدى أرى أنّ الإرادة غير المادية تحرك يدى والتى هى عضو مادى، كيف يحصل هذا؟ وما هى الواسطة التى تحول

(١). سرّ خلق الإنسان، ص ٨٧ (بالفارسية).

(٢). الإنسان ذلك المجهول، ص ۵.

(٣). على اطلال المذهب المادى، ص ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٠

الطاقة غير المادية إلى مادية؟ لا يوجد من يجيب على هذا السؤال» «١».

إذا كانت معلوماتنا تجاه أوضح وأبسط الامور العادية هكذا، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زماناً ومكاناً.

۶- يقول (انشتاين» الرياضى المعروف والمكتشف للنظرية النسبية والبُعد الرابع، فى أحد كتبه:

«لقد علّمنا كتاب الطبيعة الذى نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرَفْنَا أُسس لغة الطبيعة ...

لكن رغم قراءتنا للمجلدات وفهمنا لها فإنّنا مازلنا بعيدين عن كشف أسرار الطبيعة» «٢».

وينبغى هنا اضافة هذه الجملة على الشهادات السابقة:

من العجيب حقّاً أن كل اكتشاف جديد يحصل فى هذا العالم يزيد من مجهولات الإنسان، وبعبارة اخرى إنّ اكتشافات العلماء فى مختلف المجالات كاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز قيم فى نقاط مختلفة من الأرض.

وبديهى فإننا إذا اطلعنا على وجود مكتبة فى احدى المدن، أو كنز قيم فى خربةٍ فقد أزلنا النقاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها من خلال هذا الاكتشاف، مثل عدد الكتب ومحتواها وكُتّابها وشخصياتهم وقضايا اخرى من هذا القبيل،

كذا الحال بالنسبة للكنز فإذا اطلعنا على وجوده تبلورت في أذهاننا مجاهل اخرى عنه مثل نوعيته ومحتواه ....

ولا نذهب بعيداً، فإنّ عالم الكائنات المجهرية (المكروبات والبكتريا والفايروسات) كان في يوم ما مجهولًا كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الاولى عند كشفه لبعضٍ من هذه الكائنات تجلى أمامه عالم كبير من المجهولات.

إنّ اكتشاف الكواكب «اورانوس» و «نبتون» و «بلوتون» في المنظومة الشمسية وكذا

---

(١). على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨.

(٢). خلاصة الفلسفة النسبية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩١

كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية، ومن هنا يجب الاذعان والاعتراف بأنّ العلوم البشرية كنور شمعةٍ وان حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم من ذلك!

ومن هنا ينبغي القول: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلّا مَا عَلَّمْتَنا». (البقرة/ ٣٢)

ونختم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول في خطبة الأشباح:

«واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدَدِ المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اللَّه- تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك ولا تُقدّر عظمة اللَّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين»! «١».

ج ج

تذكير:

إنّ الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً لهُ آثار ونتائج إيجابية بنّاءة، نذكرها هنا:

١- الحد من الغرور العلمي: نعلم أنّ البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء الغرور العلمي، ومثاله ما ظهر في حدود القرن الثامن عشر الميلادي في اروبا فعندما حصلت قفزة في العلوم الطبيعية آنذاك، تصور بعض العلماء أنّ جميع ألغاز الكون قد حلت وأنّ أسراره قد كُشفت، ولهذا أنكروا كل شيء يكمن وراء معلوماتهم، بل سخروا من جميع الامور التي لا تدخل في اطار معلوماتهم، وقد وصل انكارهم إلى حدٍ سخروا من وجود الروح حيث قال بعضهم: لا نؤمن بوجود الروح مالم نشاهدها تحت سكاكين الجراحة في غرفة العمليات، أو بما أنّ اللَّه لا يدرك بالحس فلا وجود له!

إنّ هذا النوع من الغرور خلق مشاكل كثيرة، والأمر الوحيد الذي يمكنه أن يحطم هذا

---

(١). نهج البلاغة، الخطبه ٩١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٢

الغرور العلمي هو الالتفات إلى ضآلة العلوم البشرية بالقياس إلى المجهولات، طبقاً للأدلة التي ذكرت سابقاً.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة هو الذي جعل العلماء المتعمقين يعترفون بما قاله أحدهم:

«إنّ علمي وصل إلى مستوىً بأنّي أعلم أنّي لا أعلم» و «معلوماتي صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية».

٢- الحركة العلمية الأسرع: إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يسوق الإنسان نحو السعي الحثيث والجهاد المخلص والمتواصل لحل ألغاز عالم الوجود، خاصة وأنّه يرى أنّ أبواب العلم مفتوحة أمامه، ولا ييأس من الحصول على علوم أكثر.

وَمن الواضح أنّ الإنسان لا يسعى وراء الكمال مالم يشعر بالنقص، ولا يبحث عن الدواء ما لم يحس بألم المرض، ولهذا يقال: إنّ الاحساس بالألم احدى نِعَم اللّه العظيمة، وان أسوء الأمراض هى تلك التى لا يصحبها الألم لأنّ المريض لا يطّلع على المرض إلّابعد أن ينقض عليه ويهلكه.

إنّ الالتفات إلى ظئالة العلم البشرى يخلق عند الإنسان ردّ فعل إيجابىّ يدفعه نحو التحقيق والتفحص أكثر فأكثر، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده على نقصان العلم البشرى.

٣- الالتفات إلى مبدأ أسمى من الآثار الإيجابية التى يتركها الاحساس بالنقص العلمى عند كل فرد هو أن الإنسان شاء أم أبى يجد نفسه بحاجة إلى مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة، وألغازه محلولة، إنّ هذه القضية تهيىء الأرضية لقبول دعوة الأنبياء، وتفتح أمامه سبلًا للاهتمام بالمصادر والطرق العلمية التى تفوق علم البشر.

على أيّة حال، إنّ الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً مع غض النظر عن كونه حقيقة، له آثار تربوية وإيجابية جمة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٣

مصادر وسُبُل المعرفة

اشارة

(مصادر المعرفة الستة)

الحس والتجربة

العقل والتحليل المنطقى.

التاريخ و الآثار التاريخية.

الفطرة والوجدان

الوحى السماوى

الكشف والشهود

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٥

تمهيد:

بعد ما ثبت لنا إمكان المعرفة وإمكانية الوصول إليها إجمالًا، جاء الدور للبحث عن سبل المعرفة، وبتعبير آخر عن مصادرها ومنابعها التى تمكننا من معرفة الحقائق الموجودة فى العالم، لأنّنا بالاستعانة بهذه السُبُل يمكننا تبديل «الواقعيات» إلى «حقائق»، بواسطة هذه المعالم وذلك لأنّ كلًا من هذه السُبلُ معلم وهادٍ يرفع الحجاب عن أسرار العالم ومجهولاته.

وقبل كلّ شىء ينبغى معرفة رأى القرآن فى هذه المسألة، لأنّ محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعى والتحقيق حول تعليمات القرآن الكريم.

وقد وصلنا بالتحقيق والتتبع الدقيق فى الآيات المختلفة والمنتشرة فى القرآن الكريم إلى هذه النتيجة وهى أنّ طرق المعرفة ومصادرها فى القرآن الكريم تتلخص فى ستة أمور:

١- الحس والتجربة (الطبيعة).

٢- العقل والتحليل المنطقى.

٣- التاريخ والآثار التاريخية.

٤- الفطرة والوجدان.

٥- الوحى السماوى.

٦- الكشف والشهود.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٧

١- الحس والتجربة

اشارة

لنمعن النظر خاشعين فى البداية إلى الآيات الكريمة التالية:

١- «افَلَمْ يَنْظُرُوا الَى السَّمَاءِ فَوقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنّاهَا وَمَا لَها مِنْ فُرُوجٍ . (ق/ ٦)

٢- «اوَ لَمْ يَنْظُروا فِى مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالارْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىءٍ ...». (الاعراف/ ١٨٥)

٣- «افَلا يَنْظُرُونَ الَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَالَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ* وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَالَى الارْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . (الغاشية/ ١٧- ٢٠)

٤- «فَانْظُر الَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الارْضَ بَعْدَ مُوتِها ...». (الروم/ ٥٠)

٥- «فَلْيَنْظُرِ الْانْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دافِقٍ . (الطارق/ ٥- ٦)

٦- «فَلْيَنْظُرِ الْانْسَانُ الَى طَعامِهِ* انَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً* ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرضَ شَقّاً* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً* وَعِنَباً وَقَضْباً». (عبس/ ٢٤- ٢٨)

٧- «اوَ لَمْ يَرَوا الَى الْارْضِ كَمْ انْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . (الشعراء/ ٧)

٨- «اوَ لَمْ يَرَوا انَّا نَسُوقُ المَاءَ الَى الارْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تأْكُلُ مِنْهُ انْعَامُهُم وَ انْفُسُهُمْ افَلَا يُبْصِرُونَ . (السجدة/ ٢٧)

٩- «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ انَّهُ الحَقُّ ...». (فصلت/ ٥٣)

١٠- «اوَ لَمْ يَرَوا الَى الطَّيرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ الَّا الرَّحمنُ انَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ». (الملك/ ١٩)

١١- «وَفِى الارْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِى انْفُسِكُمْ افَلَا تُبْصِرُونَ .

(الذاريات/ ٢٠- ٢١)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٩٨

١٢- «وَاللَّهُ اخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالابْصَارَ وَالْأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ . (النحل/ ٧٨)

ج ج

إنَّ الآيات الواردة فى هذا المجال كثيرة جدّاً، وما ذكر هنا نماذج واضحة فى مجالات مختلفة «١».

شرح المفردات:

إنَّ كلمة «ملكوت»- على ما يقوله الراغب فى مفرداته- مصدر «مَلَك» وقد اضيفت لها التاء، وتستعمل فى الإشارة إلى (ملك اللَّه) فقط دون غيره، بينما جاء فى «مجمع البحرين» و «لسان العرب» أنّ الملكوت يعنى «العزة والسلطنة»، ويقول البعض: إنّها اشتقت من «مُلك» على وزن «حُكْم» وتعنى «الحكومة والملكية»، واضيفت لها التاء والواو للمبالغة.

وكلمة «قضب» على وزن (جِذْب)- وكما جاء فى لسان العرب- فى الأصل تعنى «قطع» بحيث قال بعض المفسرين: إنها تعنى

الخضروات التى تُحصد فى فصول مختلفة «٢».

وكلمة «جُرُز» تعنى الأرض الفاقدة للنباتات، أو الأرض التى لا ينبت فيها نبات، و «جَرَزَ» على وزن (مَرَض) وتعنى القَطع ونقل صاحب «لسان العرب» عن بعض أئمّة اللغة أنّ الأرض الجرز تطلق على الأرض التى قلع نباتها أو انقطع عنها المطر.

---

(١). يمكن الرجوع إلى الآيات التالية: الاعراف، ١٨٥؛ ويوسف، ١٠٩؛ الروم، ٩؛ غافر، ۶؛ النحل، ٧٩؛ الشعراء، ٧؛ الاحقاف، ٣٣؛ الملك، ١٩؛ يس، ٧٧؛ الأنعام، ۶؛ النحل، ٧٨؛ المؤمنون، ٧٨؛ ق، ٣٧؛ الاحقاف، ٢۶؛ هود، ٢۴؛ غافر، ٢١؛ محمد، ١٠.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣١۶؛ تفسير مجمع البحرين، ج ١٠، ص ۴۴٠. نُقِلَ عن ابن عباس أنّ المراد من «القضب» فى الآية هو «الرُطَب» الذى يقتطف من النخيل لكن بالنظر إلى الآية الاخرى التى أشارت إلى نفس الكلمة فإنّ هذا التفسير بعيد. وقال البعض: يحتمل أن يكون المراد منها هو فواكه الشجيرات مثل الخيار والرقى، أو جذور بعض المزروعات مثل الجزر والبطاطس.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٩٩

وأمّا كلمة «افئدة» جمع «فؤاد» وتعنى القلب- كما يقول الراغب- إلّاأنّ الفؤاد يطلق على القلب الذى له حالة إنارة وإضاءة، وهذا أمرٌ ملفت للنظر حيث يعد اللّه القلب المنَّور والمنير من مواهبه، وجدير بالذكر أنّ صاحب «لسان العرب» ذكر أنّ أصلها جاء من «فأد» على وزن (وَعْد) ويعنى المشوى، وعلى هذا تكون كلمة «فؤاد» إشارة إلى العقول التى تتحلى بالأفكار الناضجة!

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآية الاولى يدعو اللّه الإنسان إلى الالتفات إلى السموات والأرض وجمالهما وكيفية بنيانهما والنظام الذى يتحكم بهما وإحكامهما واتقانهما وخلوهما من العيب.

وفى الآية الثانية يدعو اللّه الناس إلى مشاهدة نظام السموات والأرض والكائنات، وذلك لإيقاظ القلوب للسير فى طريق التوحيد ومعرفة الخالق.

والآية الثالثة تلقى نظرة من السماء إلى الأرض حيث تلفت نظر الإنسان إلى شيئين:

أحدهما خلق الإبل وعجائب هذا الخلق (بالخصوص لُاناس يعيشون فى محل نزول القرآن).

والآخر تسطيح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها، ويعتبر القرآن المشاهدة فى جميع هذه المراحل منبعاً مهماً للمعرفة.

وفى الآية الرابعة والتى يخاطب اللّه فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله يلفت نظره إلى مسألة نزول الغيث وإحياء الأرض بعد موتها ويقول له: «فانظر إلى آثار رحمة اللّه كيف يحيى الأرض بعد موتها».

وفى الآية الخامسة يشير اللّه إلى مبدأ خلق الإنسان وأنّه يجب أن ينظر من أى شيءٍ خُلِقَ؟ قد خلق من ماء دافق، ويذكر المشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك.

وفى الآية السادسة يأمر اللّه الإنسان بأن ينظر إلى غذائه وطعامه كيف نبت وشق الأرض

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٠٠

وخرج النبت من التربة بواسطة نزول المطر فصارت الحبوب والفواكه والخضروات، فإذا نظرنا إليها ودققنا فى كل ورقة من أوراقها لوجدناها كتاباً وسفراً يحكى لك عن معرفة اللّه.

ج ج

والآيات الست السابقة تدعو إلى «النظر» بينما الآيات الخمس التى بعدها تدعو إلى «الرؤية» بالرغم من أنّ كلًا من هذين الاصطلاحين

فى كثير من الأحيان يستعملان بمعنى واحد، إلّاأنّه كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة- يطلق «النظر» على حركة العين والتفحص والدقة فى مشاهدة شىءٍ، بينما تطلق «الرؤية» على نفس المشاهدة «۱»، بالطبع أنّ كلا المفردتين تستعملان بمعنى المشاهدة الحسية تارة وبمعنى المشاهدة الذهنية والفكرية تارة اخرى، إلّاأنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ المعنى الأولى لهما هو المشاهدة الحسية.

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية السابعة تدعو المشركين لمشاهدة مختلف النباتات التى تنبت أزواجاً أزواجاً فى أرجاء المعمورة.

والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك إلى رؤية مياه البحار ومصدرها تلك القطرات العالقة فى الغيوم وهطولها منها على الأرض اليابسة وخروج الزرع الذى يستفيدون منه هم وأنعامهم.

وقد أشارت الآية التاسعة إلى جميع آيات «الآفاق» و «الأنفس»، وهى آيات اللَّه فى هذا العالم العظيم وفى العالم الصغير وهو وجود الإنسان، وقالت: نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كى يتبين لكم الحق ويتضح.

والآية العاشرة دعت إلى مشاهدة الطيور وكيفية طيرانها فى السماء، فتارة صافّات اجنحتها وتارة اخرى قابضات، وهذا الأمر هو الذى يجعلها تطير فى السماء خلافاً لجاذبية الأرض، كما أنّ طيرانها بسرعة تارة بصف الأجنحة واخرى بقبضها، وكأنّ هناك قدرة خفية تدفعها إلى الأمام، ولكلٍ من الطيور شكلها الخاص بها والوسائل الضرورية لحياتها.

---

(۱). يراجع مفردات الراغب ولسان العرب مادة «نظر».

نفحات القرآن ج ۱ ۱۴۹

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۱

والآية الحادية عشرة لفتت الأنظار إلى مسألة خلق الأرض ومن ثم خلق الإنسان الذى يعتبر خلقة عالَماً عظيماً مليئاً بالضجيج رغم صغر حجمه، وأنبّت الذين لا يبصرون رغم أنّهم قادرون على الإبصار بخطاب «أفلا يبصرون».

(ينبغى الالتفات إلى أنّ «البصيرة» جاءت من مادة «بصر» الذى يعنى «العين» إنّ «بصر العين»، ورغم استعمالها بمعنى «النظر» و «الرؤية» إلّاأنّها تختلف عنهما بالتأكيد على عضو البصر وقوته، لكنها كالمفردتين السابقتين قد تستعمل بمعنى المشاهدة الباطنية والفكر).

وأخيراً، فإنّ الآية الثانية عشرة تؤكد على الأعضاء الثلاثة أى الأذن والعين والقلب والتى تعتبر ثلاثة أعضاء أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح على اعتبار المشاهدة والحس من المصادر الأساسية للمعرفة.

النتيجة:

إنّ الآيات السابقة والتى غالباً ما تحدثت عن قضية التوحيد ومعرفة اللَّه، أمرت الناس بأن يفتحوا أعينهم أثناء سلوك طريق المعرفة والتوحيد من أجل الوصول إلى الهدف، عندها سيرون اسم «اللَّه» على جبين كل موجود فى هذا العالم، ويشاهدون الأنظمة الدقيقة والغريبة التى تتحكم بالعالم، ومن ثم يصلون- بواسطة برهان النظم- لا إلى معرفة ذات اللَّه فحسب، بل صفاته وتوحيده وتدبيره وقدرته وعلمه اللامتناهى.

وبالنظر إلى أنّ أهم مسألة فى الإسلام هى مسألة التوحيد ومعرفة اللَّه، وأنّ أهم دليل فى القرآن على المعرفة هو برهان النظم، وأهم منبع لبرهان النظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهميّة الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم.

وقد استعان القرآن كثيراً ب «المشاهدة الحسية» ليس فى مسألة التوحيد فحسب بل فى مسألة المعاد أى ثانى أهم مسألة فى الإسلام أيضاً، وقد صوّر لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا، كما جاء ذلك فى سورة (ق) حيث يقول تعالى

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۲

«وَنَزَّلْنا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُّبارَكاً فَأَنْبَتنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* ... وَاحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ : أى فى يوم القيامة. (ق/ ۹ و ۱۱)

كما- وأنّه للكشف عن عاقبة الظلم والجور وأهلهما- دعا اللّه الناس لمشاهدة ما خلّف هؤلاء من آثار ومشاهدة مدنهم الخربة.
هذا كلّه تأكيد من القرآن على ضرورة الاستعانة ب «الحس والمشاهدة» كمصدر للمعرفة.

توضيح

الفلاسفة ومصدر الحس:

هنـاك اختلاف كبير في وجهات نظر الفلاسـفة فيما يخص قضـية اطّلاعنا على العالم الـذي يحيط بنا وما هي المراحل التي نطويها للوصول إلى هـذه المعرفـة؟ ومن أي مصـدر تصل أذهاننا؟ إنّ أكثر الفلاسـفة عدّوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين على طرفي الإفراط والتفريط في هذا المجال.

١- «الحسيون» حيث يعتبرون الحس الطريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الاخرى كالعقل.

«إنّ هؤلاء الذين ظهروا في القرن السابع عشـر أنكروا قيمة البرهان القياسـي العقلي، واعتبروا اسـلوب التجربة الاسـلوب الوحيد والسليم والمعتمـد عليه في هـذا المجال، وتعتقـد هـذه المجموعـة بعـدم أصالـة وتجـذر الفلسـفة النظرية العقلية المسـتقلة عن العلوم التجريبية، ويعـدون العلم ثمرة الحواس فقط، والحواس لا تتعلق إلّابظاهر وعوارض الطبيعـة، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسـفية الأوليـة، وذلك لأنّها نظرية وعقلية بحتة وتتعلق بالامور غير المحسوسة، ولا يدرك الإنسان هذه المسائل نفياً أو إثباتاً» «١».

---

(١). اصول الفلسفة والمنهج الواقعي للشيخ المطهّري، ج ١، ص ۶ (مع تلخيص قليل).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٣

إنّ الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب «الديالكتيكي» من المتحمسين لهذه النظرية، فهم يقولون:

«إذا انقطعت جميع قنوات التأثير الخارجي عن حسّـنا، فهـذا يعني أنّا سوف لا نعرف شـيئاً، وسـيعجز الـذهن عن جميع نشاطاته، وتبقى معرفـة الواقعيات أمراً محالًا، وعلى هـذا فالحس منشأ المعرفـة ومبنى أحكامنا اتجاه أي مسألـة، فينبغي القول أنّ الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد» «١».

٢- المجموعة الاخرى هي التي تقع في الطرف المقابل للمجموعة الاولى تماماً وهي التي لا تولي أي أهميّة للحس في مجال المعرفة.

يقول «ديكـارت»: «لا نسـتطيع الوثوق بالمفاهيم التي وصـلتنا من الخارج بواسـطة الحواس الخمسـة بأنّ لها مصـداقاً خارجياً أم لا، وإذا كان لها مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع» «٢».

مسار الحكمـة في اوربا: «يعتقد (ديكارت) أنّ محسوسات الإنسان لا تتطابق مع الواقع، وأنّ الحس هو وسـيلة ارتباط بين جسم الإنسان والخارج، ويرسم لنا صورة كاذبة عن العالم، فهو يعتقد أن المفاهيم النظرية هي أساس العلم الواقعي» «٣».

والخلاصة: أنّ هذه المجموعة تعتقد أن المعقولات فقط لها قيمة علمية يقينية، أمّا المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقينية «۴».

إنّ المجموعةَ الاولى تستند إلى أخطاء العقل النظري والاختلاف الفاحش بين العلماء في المسائل العقلية، بينما تستند المجموعة الثانية إلى أخطاء الحواس، حيث يذكرون أعداداً لا تحصى من أخطاء حاسة البصر التي تعتبر أهم وأوسع حس للإنسان.

---

(١). المادية الديالكتيكية «نيک آئس»، ص ٣٠٢، (ملخص)- بالفارسية-.

(٢). مسار الحكمة في اوربا، ج ١، ص ١٧٢ (مع تلخيص)- بالفارسية-.

(٣). المصدر السابق.

(۴). اصول الفلسفة، المقالة الرابعة (قيمة المعلومات).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۰۴

لكن ممّا لا شك فيه أنّ كلتا المجوعتين خاطئتان، ونوضح ما ندعيه بصورة مركزة فنقول:

بالنسبة للحسيين يمكن حصر أهم إشكالاتهم فى النقاط التالية.

۱- إنّ كلّ إنسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية لا يمكن الاستفادة منها للاستدلال، لأنّ كل استدلال يجب أن يستند إلى قضية كلية.

ومن هنا تبدأ مسؤولية العقل، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات، فمثلًا نلاحظ أن قطعة الحجر تكسر الزجاج العادى فى ظروف مختلفة، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل إلى العقل، فيصوغ العقل قاعده كلية تجاه هذه المسألة، وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة فى الظروف والازمنة والأمكنة المختلفة التى تكشف عن أن الضوء ينتشر بصورة خط مستقيم، فالعقل يصوغ قاعدة كليّة من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها فى الخارج والموجود فى الخارج هو مصاديقها لا ذاتها.

وعليه فالإدراكات الحسية كالمواد الخام التى قد «تتحلل» وقد تتركب فى مختبر العقل، ومن خلال هاتين العمليتين نحصل على المفاهيم الكلية التى يستفاد منها فى المنطق والاستدلال.

۲- ممّا لا شك فيه أنّه ينبغى الاستفادة من العقل لإصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس، فعندما نقول:

فإذا اخطأ البصر فى رؤية الأشجار المتوازية متقاطعة من بعيد فإنّ المعيار فى تشخيص و إدراك الخطأ هذا هو العقل.

صحيح أن تمييزنا لهذا الخطأ يستند إلى الحس أيضاً حيث إننا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأنا طوينا الشارع من اوله إلى آخره عدة مرّات وشاهدنا الأشجار فى طول الشارع متوازية ولم تلتقِ فى مكانٍ، لكن هذا الاستدلال الذى يستند إلى الحس يقوى عندما يقول لنا العقل إنّ اجتماع النقيضين محال، ويقول بامتناع أن تكون الأشجار متوازية ثم تلتقى فى

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۰۵

نقطة واحدة، فاستدلالنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد. فى الحقيقة إن قضية امتناع اجتماع النقيضين التى تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات، وعليه فلا يؤخد بالدليل الحسى دون الاستناد إليها.

۳- فضلًا عما سبق، فإنّ ما ندركه بالحس هو ظاهر الأشياء، وما نرى من الجسم بالحس مجرد مظهره لا شيء آخر، وعليه فبدون تدخل الإدراكات العقلية لا نستطيع معرفة حقيقة الجسم.

قد يقال: إنّ الحواس لا دور لها لوحدها بل يجب الاستعانة بالإدراكات العقلية حتى فى العلوم التجريبية، لكن ينبغى الاذعان إلى هذه الحقيقة- وهى أنّ جميع الإدراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول «جان لاك» الفيلسوف الانجليزى المعروف: «لا شيء فى العقل لم يوجد قبله فى الحس».

إنّ هذه الجملة التى أصبحت مثلًا وبقيت ذكرى منه تدل على أنّ الذهن كان كاللوحة البيضاء فى البداية وقد ينقش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس، وأن لا وظيفة للعقل غير «التجريد» و «التعميم» أو «التحليل» و «التركيب» لمدركات الحواس.

لكن هذا خطأ فظيع، وذلك لأنّ علمنا بأنفسنا (الذى هو علم حضورى) لم يحصل بواسطة الحواس، كذلك علمنا بوجود الحواس، أو علمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس، فنحن ندرك محالة أن نكون موجودين ومعدومين فى آن واحد وإن لم نملك حواساً، كذا الأمر بالنسبة لقضايا أخرى لا حاجة فيها إلى الحواس.

وتوجد أبحاث كثيرة فى هذا المجال لو أسهبنا فيها لابتعدنا عن هدف هذا الكتاب، وتَطَرُّقنا لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظريتى «الحسيين» و «العقليين» الذين حصروا سبل المعرفة فى بُعد واحد، وأن نظريتيهما سقيمتان وأن كلًا من «الحس» و «العقل» يشكلان منبعاً ومصدراً للإدراك، كما انعكس ذلك فى القرآن المجيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٧

٢- العقل و التحليل المنطقى

تمهيد:

فى القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلى هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الآيات التى تدعو الناس إلى المعرفة بالاستعانة ب «التفكير».

ونذكر هنا بعض تلك التعابير التى استعملت للإشارة إلى هذا المصدر المهم للمعرفة:

١- العقل.

٢- اللب (وجمعه ألباب).

٣- الفؤاد.

٤- القلب.

٥- النُهى

٦- الصدر.

٧- الروح.

٨- النفس.

كما أنّ هناك تعابير استعملت فى القرآن لبيان مهمة العقل مثل:

٩- الذكر.

١٠- الفكر.

١١- الفقه.

١٢- الشعور. نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٠٨

١٣- البصيرة.

١٤- الدراية.

والآن نبحث كلًا من العناوين السابقة فى ضمن بحثنا عن الآيات التى وردت فيها تلك التعابير «١».

جج

لنمعن خاشعين أولًا فى الآيات التالية:

١- «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (البقرة/ ٢٤٢)

٢- «انَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ والنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّاولِى الْالبَابِ .

(آل عمران/ ١٩٠)

٣- «وَاللَّهُ اخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُم لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْابصَارَ وَالْأَفئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل/ ٧٨)

٤- «وَكَمْ اهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هُمْ اشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِى البِلَادِ هَل مِنْ مَّحِيصٍ* انَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ اوْ الْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ». (ق/ ٣٦- ٣٧)

٥- «كُلُوا وَارْعَوا انْعَامَكُمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّاوْلِى النُّهَى . (طه/ ٥٤)

٦- «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجحَدُ بِآيَاتِنَا إلَّاالظَّالِمُونَ .

(العنكبوت/ ٤٩)

٧- «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

(الحجر/ ٢٩) و (ص/ ٧٢)

---

(١). إضافة إلى العناوين والتعابير السابقة التى اشير إليها، هناك تعابير استعملت فى القرآن وأريد بها مراحل الإدراك مثل: الظن والزعم والحسبان واليقين، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، والتى تبدأ بمرحلة هشة ومتزلزلة من الإدراك وتنتهى باليقين الذى هو أعلى مراحل الإدراك ولا يتصور درجة ومرحلة أعلى منه.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٠٩

٨- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ٧- ٨)

٩- «... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون . (البقرة/ ٢٢١)

١٠- «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعْمَى وَالْبَصِيرُ افَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام/ ٥٠)

١١- «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . (الأنعام/ ٦٥)

١٢- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ احياءٌ وَلَكِنْ لَّاتَشْعُرُونَ .

(البقرة/ ١٥٤)

١٣- «انَّ الَّذِينَ اتَّقَوا اذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَاذَا هُمْ مُّبْصِرونَ .

(الاعراف/ ٢٠١)

١٤- «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدَاً وَمَا تدرى نَفْسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ .

(لقمان/ ٣٤)

شرح المفردات:

«العقل» كما جاء فى لسان العرب ومفردات الراغب- من العقال أى الحبل الذى يُشدْ به ساق البعير لمنعه من الحركة وبما أنّ العقل يردعُ الإنسان عن القيام بالأعمال المشينة اطلقت هذه المفردات عليه.

وقد ذكر صاحب الصحاح أنّها تعنى «الحُجْر» «المنع» بينما قال البعض كصاحب القاموس: إنّها تعنى «العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنقص»، أمّا صاحب مجمع البحرين فقد فسر العاقل بانه: «الذى يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله».

ويظهر أنّ معناه الأولى هو الصد والمنع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق «اعتقل لسانه» كما يقال «للدية» «عقل» لأنّها تحول دون إهراق دماءٍ أكثر، ويقال للمرأة العفيفة والمحجبة والطاهرة «عقيلة».

نفحات القرآن، ج١، ص: ١١٠

يقول «الخليل بن أحمد» فى كتابه «العين»: إنّ العقل يطلق على القلعة والحصن أيضاً.

كما نلاحظ هنا فإنّ مفهوم الحجر والمنع متضمّن لجميع هذه المعانى، وعليه فإن أصلهُ يعنى المنع.

أمّا كلمة «اللب» وجمعها «الألباب»- كما يقول كثير من أهل اللغة- يعنى الخالص والصفوة من كلّ شىء، ولهذا يطلق على المرحلة الرفيعة من العقل «اللب»، فإنّ كل لبٍ عقلٌ لكن ليس كل عقلٍ لُباً، لأنّ اللب هو العقل فى مراحله الرفيعة والخالصة، ولهذا السبب

نُسِبَتْ امورُ القرآن الكريم إلى «أَولى الألباب» لا-تـدرك إلّابالمراحل الرفيعـة من العقل، كما يطلق اللب على باطن كثير من الفواكه لأنَّه خالص من القشر «١».

وإنّ كلمة «الفؤاد»- كما أشرنا سابقاً- من مادة «فأد» على وزن (وَعْد) وفي الأصل معناه وضع الخبز على الرماد أو الحصى الحارة، كي يُخبز جيداً، كما يطلق على طبخ وشوى اللحم «٢».

وعلى هذا فالعقل عندما ينضج يطلق عليه «فؤاد» وجمعهُ «أفئدة».

ويضيف الراغب في مفرداته: إنّ «الفؤاد» يعني القلب مع زيادة وهي الإنارة واللمعان.

إنّ «القلب»- كما جاء في القاموس والمفردات والعين ولسان العرب- في الأصل يعني تغير الشيء وتحوله، وغالباً ما يستعمل بمعنيين، فتارة يطلق على العضو الذي يتكفل بضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن، وتارة اخرى يستعمل فيرادُ به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الاطلاق من حيث إنّ القلب الجسماني والقلب الروحي في حركة وتغيّر مستمرين، وكما يقول بعض أهل اللغة:

ما سمى القلب إلّامن تقلبهوالرأى يصرف بالإنسان اطوارا!

كما أنَّ كلمة «القلب» تطلق على مركز كل شيء مثل: قلب العسكر، لأنّ القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء في القاموس أنّ خالص كلّ شيءٍ يقال له «قلب».

---

(١). لسان العرب والمفردات ومجمع البحرين.

(٢). لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١١١

وكلمة «النُهى تَعنى «العقل» ومن مادة «نهى» على وزن (سَعْى) ويعني المنع من شيء مأخوذ، وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات ومجمع البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أنّ هذه التسمية جاءت من حيث إنّ العقل ينهى عن الأعمال المشينة.

وَ «الصدر» في الأصل يعني القسم الأمامي الذي تحت الرأس (في الجسم) ومن ثم اطلق على القسم الأعلى والمقدم لأيشيءٍ، مثل صدر المجلس أي أعلاه، وصدر الكلام أي بدايته، وصدر النهار أي أوله (كما جاء ذلك في المفردات ولسان العرب).

إلّا أنّه قد يستفاد من بعض الكلمات معنى المقدمية والبداية لكل شيء، وعلى كل حال، بما أنّ العقل عضو مهم ويقع في الجزء الأعلى من البدن أُطلق عليه صدر، خاصة وأنّ القلب الجسماني يقع في وسط الصدر (العضو المعروف من البدن)، وسنذكر فيما بعد أنّ هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوي والانقلابات العقلية.

أمّا كلمة «الروح» في الأصل تعني التنفس، وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة، استعملت بمعنى النفس ومركز العقل وفهم الإنسان.

وقد صرح البعض أن كلمتي «الروح» و «الريح» اشتقتا من أصل واحد، وإذا سميت الروح- التي هي وجود مجرّد ومستقل- روحاً فذلك من حيث إنّ الروح كالريح توجد الحيوية والحركة من دون أن تُرى

وَكلِمة «النفس»- وكما يقول الراغب وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين- تعني الروح التي هي مركز إدراكات الإنسان، إلّاأنّ القرآن الكريم ذكر مراحِلَ النفس:

«فالنفس الامارة» هي النفس التي تأمر الإنسان بالمعاصي وترغبه بها، و «النفس اللوامة» وهي التي تندم على المعاصي التي ارتكبها الإنسان وتوبخه عليها، و «النفس المطمئنة» وهي التي تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت إلى مرحلة الاطمئنان.

من مجموع ما سبق، يتبين لنا أنّ القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة إلى العقل، وكلٌّ من هذه المفردات تشير إلى جانب من جوانب هذا الوجود النفساني، وبتعبير آخر كلٌّ منها يتعلق ببعد من أبعاد العقل.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٢

وبما أنّ هذه القدرة الغامضة تردع الإنسان عن الأعمال المشينة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونُهى

وبما أنّه فى حال انقلاب وتحول دائم قيل له «قلب»، وبما أنّه فى القسم الأعلى من بدن الإنسان قيل له «الصدر».

وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل له «روح» و «نفس»، وعندما يصل إلى مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له «لُبّ»، وأخيراً عندما تنضج أفكاره يطلق عليه «فؤاد».

نستنتج من هذا البيان أنّ استعمال هذه المفردات المتنوعة فى القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان منسجماً ومتماشياً مع الموضوع الذى فى الآية، وهذا من عجائب القرآن التى يدركها الإنسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً.

ج ج

أفعال العقل:

إنَ «الذكر» يمثل الاصطلاح المقابل للنسيان، وكما يقول الراغب: إنّه حالة فى الإنسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره فى الذهن عند الحاجة، وهذا المعنى قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان.

وإنّ «الفكر» يعنى فعالية العقل، وعلى ما يقوله الراغب: إنّه قوة تسوق العلم إلى المعلومات، ويعتقد بعض الفلاسفة: أنّ حقيقة الفكر تتركب من حركتين: حركة نحو المقدمات، ثم حركة من المقدمات إلى النتيجة، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤدّيان إلى العلم والمعرفة يقال لهما «الفكر».

و «الفقه» يعنى «الفهم» بصورة عامة- كما جاء ذلك فى لسان العرب- إلّاأنّ الراغب فى مفرداته يقول: إنّه بمعنى الاطلاع على أمرٍ خفى بالاستعانة بأمرٍ ظاهر وجلى، وعليه فالفقه علم يحصل بالأدلة (بالطبع إنّ الفقه المصطلح فعلياً هو علم الأحكام الإسلامية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٣

أمّا «الشعور» فيعنى العلم والمعرفة- كما يقوله بعض من أئمّة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم- إلّاأنّ الراغب قال فى مفرداته: يعنى «الاحساس»، وإذا كان المقصود هو الاحساس الباطنى فلا اختلاف مهم بين ما قاله الراغب وما قاله الآخرون فى شرح معنى الشعور، وقد جاء الشعور فى كثير من آيات القرآن وأُريد به (العلم)، إلّاأنّه استعمل فى موضع آخر وقصد به الاحساس الخارجى.

إنَّ كلمة «البصيرة» اشتقت من البصر، وقد جاءت- كما يقول الراغب- بثلاثة معانٍ:

بمعنى العين، وبمعنى قوة العين، وبمعنى قوة الإدراك والعلم.

وقد قال البعض: إنّ معناها فى الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة الحسية أو بالعقل «١».

وتستعمل مفردة «البصيرة» بالخصوص فى «الإدراك القلبى والعلم»، ولهذا جاء فى لسان العرب أنّها تعنى الاعتقاد القلبى، وقد فسرها البعض بالذكاء الذهنى.

وقد استعملت بالمعنى الأخير فى القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ هَذِهِ سَبِيْلِى أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى «٢». (يوسف/ ١٠٨)

وكلمة «الدراية» تعنى العلم والخبرة بصورة عامة، أو العلم والخبرة فى الامور الخفية والمستترة، كما قد جاءت بمعنى «الكياسة»، كما يستفاد من قواميس اللغة أنّها فى الأصل تعنى الالتفات إلى شىءٍ ثمّ استعملت وأُريد منها الخبرة بشىءٍ، وقد استعملت فى القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم «العلم»، ويستخلص من هذا القسم من بحثنا أنّ الألفاظ التى استعملت للتعبير عن العقل وأريد منها مفهوم العلم والإدراك ألفاظ متنوعة، وكلٌّ منها تُعبّر عن بُعد وجانب من أبعاد وجوانب العقل، وقد استعملت كلٌّ فى موردها!

فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت «الدراية»، وعند البحث عن التحليل والعقل

(١). التحقيق فی كلمات القرآن الكريم مادة (بصر).

(٢). وقد جاءت فی آيات اخرى واريد منها نفس المعنى كما فی الآيات: القيامة ١۴؛ و الأنعام ١٠۴؛ الأعراف ٢٠٣؛ الاسراء ١٠٢.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١۴

استعمل «الفكر»، وعند البحث عن أمرٍ خفی ومعرفته بالاستعانة بأمرٍ محسوس استعمل «الفقه»، وعند البحث عن الخبرة المقترنة بالحفظ والحضور بالبال استعمل «الذكر»، وعلى هذا السياق تستعمل كل مفردة فی محلها وكل لفظ فی مقامه.

وينبغی الالتفات هنا إلى هذه النقطة وهی أنّ التعبيرات التی استعملت فی القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب، تبدأ ب «الشعور» ويراد منه الإدراك البسيط، ثم مرحلة «الفقه» والذی يعنی إدراك المسائل الخفية من المسائل الجليّة، وبعدها تأتی مرحلة «الفكر» ويُراد منه التحليل العقلی، ثم تأتی مرحلة «الذكر» أی الحفظ فی الذهن والحضور فی البال، ثم مرحلة «النُهى التی تعنی الإدراك العميق لحقائق الامور، وتنتهی هذه المراحل بمرحلة «البصيرة» التی تعنی النظر الذهنی العميق.

وهذا هو معنى البلاغة والفصاحة!

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

قيمه العقل فی مقياس القرآن:

إنَّ أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد بان الهدف من نزول الآيات هو العقل والتفكير لدى الإنسان، وتكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير ب (لعلَّ) التی تفيد بيان الهدف فی موارد كهذا المورد.

وقد أكدت بعض الآيات على هذا الموضوع وذهبت إلى ابعد من ذلك حيث وبّخت الناس على عدم تفكرهم وتعقلهم وآخذتهم بعبارةٍ كهذه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١».

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية، حيث يقول تعالى «قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . (آل عمران/ ١١٨)

(١). آل عمران، ۶۵؛ الأنعام، ٣٢؛ الاعراف، ١۶٩؛ يونس، ۶١؛ هود، ۵١؛ يوسف، ١٠٩؛ الأنبياء، ١٠ و ۶٧؛ المؤمنون، ٨٠؛ القصص، ١٠؛ الصافات، ١٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١۵

إنّ هذه التعابير المختلفة: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، أَفَلا تَعْقِلُونَ، إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهی: إنّ اللَّه وهب الإنسان العقل كی يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة.

والآية الثانية ومن خلال اشارتها إلى آيات اللَّه فی خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار صرحت: إنّ إدراك هذه الآيات أمر يسير لأُولی الألباب.

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ (اولی الألباب) هم العلماء الذين خلصت عقولهم من جميع ترسبات الأوهام، فهم يدركون وقائع نظام الخلق، ويرون جمال الخالق من خلالِ المخلوقات، وهذا يكشف عن أهميّة العقل كطريق لمعرفة الحق جل وعلا.

ج ج

أمّا الآيـة الثالثـة، فبعـد أن أشارت إلى خروج الإنسان من بطن امّه لا يعلم شـيئاً شـرحت وسائل المعرفـة، فبدأت بحاسة «السـمع» الذى تُعرف علومه ب «العلوم النقليـة»، من خلال الاصـغاء إلى أقوال الآخرين، ثم ذكرت «البصـر» الـذى تميز به الأشـياء بعـد مشاهـدتها ثم ختمت ب «الفؤاد» الـذى تُـدرك به الحقـائق غير المحسوسـة، وقـد قلنـا سابقاً: إنّ الفؤاد هو العقل عنـد نضوجه، فهو أعلى درجـة من العقل.

ج ج

والآيـة الرابعـة بعـد إشارتها إلى الأقوام السالفة المقتدرة والتى أُبيدت واهلكت بسبب، وقد أُهلكوا لطغيانهم وفسادهم، ولم يسـتطيعوا الفرار والنجـاة، قـالت: «إِنَّ فى ذلِكَ (فى سيادتهم ثـم إبـادتهم) لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ (أى عقـل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (أى يصـغى للنصائح)»!

والآيـة الخامسة بعد الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة وانبات الزرع فيها الذى يمثل غذاء الإنسان ودوابّه، صـرحت: إنّ هذه الامور آيات يدركها أصحاب النهى

وكنّا قد أشرنا إلى أنَّ النهى هو العقل بما هو ناهٍ عن فعل الأفعال القبيحة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٦

أمّا الآية السادسة فبعد أن أشارت إلى الآيات العظيمة والبيّنة للقرآن، قالت: إنّ هذه الآيات فى صدور (قلوب) الذين أُوتوا العلم، وكما بيّنا من قبل فانَّ الصدر يعنى الجزء المقدم والأعلى من كل شـىء، وهذا يبيّن أنّ العقل الذى يعتبر من المصادر المهمّة للمعرفة، يشكل أشرف جزء فى الإنسان.

والآية السابعة بعد أن ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام خاطبت الملائكة بالقول: «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . (٢٩/ حجر) و (ص/ ٧٢)

وهـذه (الروح الإلهيّـة) هى (جوهر العقل)، وقد اضـيفت إلى اللَّه لأهميتها (ويقال لهذه الإضافة اضافة تشـريفية) لأنّ اللَّه لا روح له ولا جسم، ولأجل هذه الروح الإلهيّة سـجد جميع الملائكة المقربين لآدم عليه السلام، وإلّا فالطين والتراب لا قيمة لهما، وهذا تأكيد شديد على أهميّة وقيمة العقل.

ج ج

والآية الثامنة تشـير إلى خلق (النفس) أى الروح والعقل، وتُقسم بخالق النفس، ثم تضـيف: إنّ اللَّه ألهم وكشف للنفس طريقى الفجور والتقوى بعد أن أوضح لها هذين الطرِيقَيْن، وهذا تلميح جميل إلى الإدراكات الفطرية التى جُبِلَ عليها الإنسان منذ أن بدأ حياته.

كـان هـذا مجموع العنـاوين والمفردات الثمانيـة التى اسـتعملت فى القرآن وأريـد بها الإشارة فى كل مفردة منها إلى جانب وبُعـد من جوانب وأبعاد جوهر العقل، وقد بينت هذه العناوين الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة.

ج ج

إنَّ ما ذكر سلفاً كان بحثاً فى جوهر العقل، أمّا بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل، فهنالك تعابير عديدة فى القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكلٌّ منها تبيّن جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل، وهى كالتالى:

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١١٧

الآيـة التاسـعة بحثت التـذكر واعتبرته الهدف من بيان آيات اللَّه، والتذكّر هو الحفظ والخطور فى الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل، وإذا لم يكن التذكر حاصلًا عند الإنسان ما استفاد الإنسان من علومه شيئاً.

وفى هـذا المجال نرى تعبيرات مختلفـة فى القرآن، فقد يذكر الموضوع الاسـتعانة بالأداة (لعل) التى تفيد بيان الهدف فى موارد كهذا

المورد، وتارةً اخرى يعبر عن الموضوع باسلوب التوبيخ واللوم مثل «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ «١».

وقد يبين الموضوع باسلوب التوبيخ لأولئك الذين لا ينتفعون بالعقل والفكر، فلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها، كما هو الأمر في: «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُون .

(الاعراف/ ٣) و (النمل/ ٦٢).

ج‌ج

وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكر) بعد استفهام استنكارى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِير»؟ وقد وجهت اللوم بقولها: «أفلا تتفكرون»، وكما أشرنا سابقاً إلى أنَّ التفكير يعنى تحليل وتجزئة المسائل للوصول إلى حقائقها، وهو سبيل للفهم الأكثر والأفضل.

وقد تنوّعت تعبيرات القرآن فى هذا المجال، فتارةٌ يكون الاسلوب هكذا «لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُون . (البقرة/ ٢١٩)

وتارة يكون: «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون . (يونس/ ٢۴)، و (الرعد/ ٣)، و (النحل/ ١١)

وتارة اخرى يكون: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فى أَنْفُسِهِمْ . (الروم/ ٨)

ج‌ج

وتحدثت الآية الحادية عشرة عن «الفقه» الذى يعنى الفهم العميق، حيث قالت: «انظر

---

(١). كما فى سور الأنعام، ٨٠؛ هود، ٢۴؛ النحل، ٩٠؛ المؤمنون، ٨٥؛ الصافات، ١۵۵.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١١٨

كيف نصرّف الآيات» بأنواع من البينات «لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ فقهاً عميقاً.

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة: «لَعَلَّهُم يَفقهُونَ . (الانعام/ ۶۵)

كما قد جاءت فى مكان آخر بصيغة: «لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . (الأنعام/ ٩٨)

وفى آية اخرى باسلوب: «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . (التوبة/ ٨١)

وفى اخرى: «بَلْ كَانُوا لَايَفْقَهُونَ الَّا قَلِيلًا». (الفتح/ ١۵)

وكلها تبين الأهميّة القصوى للفهم والإدراك العقلى.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ كلمة «الفقه» تعنى إدراك الامور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الامور الجلية، وهذا الإدراك هو أحد أبعاد الإدراك العقلى.

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن «الشعور»، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء بالأموات قالت: إنّهم أحياء ولكن لا تشعرون أى لا تدركون.

وقد يراد بالشعور هنا معنى الاحساس الظاهرى، أو الاحساس الباطنى، وقد استعمل بكلا المعنيين فى القرآن المجيد.

وقد ذمّ القرآن فى موارد مختلفة، أولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم «١».

ج‌ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن «البصيرة» بعد ما أشارت إلى المتقين، حيث قالت:

إنَّ المتقين إذا ما ابتلوا بوساوس الشيطان تذكروا اللّه وأبصروا وادركوا الحقيقة فنجوا من شباك الشياطين.

إنّ «البصيرة» و «الأبصار» هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصراً حسياً، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أى العقل فذلك «الإدراك العقلى»، والمراد من البصيرة فى هذه الآية هو المعنى الثانى.

---

(۱). كما فى الآيات الآتية، الشعراء، ۱۱۳؛ الحجرات، ۲؛ البقرة، ۹؛ آل عمران، ۶۹؛ الأنعام، ۳۶ و ۱۲۳؛ المؤمنون، ۵۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۹

إنّ الإنسان على نفسه بصيراً: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ». (القيامه/ ۱۴)

والرسول وأتباعه على بصيرة فيما يدعون إليه: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلى أَدْعُو الَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى . (يوسف/ ۱۰۸)

وقد استعملت البصيرة فى جميع هذه الموارد بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق العقل قطعاً.

ج‌ج

وقـد تحـدثت الآيـة الرابعة عشـرة والأخيرة عن «الدراية» التى تعنى الذكاء والخبرة والاحاطة بالمسائل الخفية أو غير المحسوسة، حيث قالت: «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . (لقمان/ ۳۴)

وقـد استعملت الدرايـة فى القرآن بصـيغ السـلب دائماً، ويفيـدنا فى هـذا أنّ الدراية مرحلة عميقة من الفهم والإدراك لا تحصل لِكلِّ إنسان.

ج‌ج

نستنتج من الآيات السابقة النتائج الآتية:

۱- إنَّ القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصلية للعلم والمعرفة، وقد أولاه أهميّة قصوى

۲- القرآن يدعو الجميع للتعقل والتفكّر فى جميع الامور.

۳- التفت القرآن التفاتاً خاصاً إلى ماهيّة الروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكّد على كلٍ من هذه الأبعاد.

۴- عبر القرآن عن نشاطات الروح فى مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة، وقد استخدم واستفاد من كل تعبير فى محله.

إلّا أنّ القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الإدراك الصحيح للعقل، سنبحثها فى فصل (حجب المعرفة) إن شاء اللَّه.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۰

توضيحات

۱- الإدراكات العقلية برؤية فلسفية

بالرغم من أنّ أغلب الفلاسـفة يعتبرون الإدراك العقلى أحـد المصادر المهمّـة للعلم والمعرفة، إلّاأنّ الفلاسـفة الحسـيّين يخالفون هذا الأمر، ولا يعيرون للإدراكات العقلية أهميّة واعتباراً- كما أشـرنا إلى ذلك سابقاً- ويحصرون طرق المعرفة بالتجارب الحسية متذرّعين بالحجج الواهية الآتية:

۱- اختلاف الفلاسفة فى المسائل العقلية، فإنّ كلَّ طائفة منهم قدّمت أدلة ظاهرها يوحى بأنّها منطقية لإثبات مدعاها.

۲- وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقداتهم بحيث يضطر البعض فى مواقع عديدة للاعتراف بخطئه ويسعى لتصحيحه.

۳- كما يجب إضافـة أمر آخر إلى الأمرين السابقين وهو: إنّ التقـدم والتطور السـريع للعلوم الطبيعية فى القرون الأخيرة حلَّ الكثير من ألغاز العالم وأسـراره عن طريق التجربة الحسية، وهذا الأمر قَوّى فكرة الاستناد إلى التجربة الحسية (فى مجال المعرفة) فقط، وألغى بقيّة الطرق.

ونقرأ فى «تاريخ الفلسـفة»: إنّ موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار الحقائق (الحسـية وغير الحسـية) من قبل السوفسـطائيين فى اليونان القديمة، فمن جهة نظروا إلى اختلاف الفلاسفة، ومن جهة اخرى نظروا إلى عوام الناس، فبعضهم يؤيدون ادّعاء وكيلى المتنازعين فى

المحكمة، ويعطون الحق لكلٍ من الطرفين وكأن كلا الطرفين على حق، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لا حقيقة واقعاً.

وهنا ينبغى الالتفات إلى عدة امور لرفع هذه الالتباسات:

الأمر الاول: هو وجوب فصل «الإدراكات البديهية» عن «النظرية» عند التحقيق فى مسألة الإدراكات العقلية، وذلك لأنّ الاخطاء لا تحصل فى البديهيات، فلا يشك أحد فى أنّ الاثنين نصف الأربعة، أو أن شيئاً لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً فى آن واحد ومكان

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢١

واحد، وإذا شاهدنا أشخاصاً يشككون فى هذا الأمر أو يعتقدون، بخلاف ما هو بديهى فهم فى الواقع يتلاعبون بالألفاظ لا أكثر، فيفسرون (النقيضين) أو «الضدين» بمعانٍ غير تلك المعانى المتعارف عليها، والّا فلا خلاف فى اصل الموضوع.

الامر الثانى: لا يخطأ الاستدلال إذا استند إلى مقياس دقيق، فالخطأ ينشأ عندما يستند الدليل إلى مقاييس غير دقيقة، ولهذا لا نشاهد اختلافاً فى مسائل الرياضيات وقوانينها، لأنّها تعتمد على أسسٍ دقيقة، ونمتلك معايير واضحة لمعرفة صحة أو خطأ النتيجة لأى مسألة، والنتائج تكون قطعية كذلك.

الأمر الثالث: إنّ قولنا بوجود أخطاءٍ فى الإدراكات العقلية، دليل على قبولنا للإدراكات العقلية لا على نفيها، وذلك لأنّ مفهوم حديثنا عن الأخطاء فى الإدراكات هو أننا نقلب بعض الحقائق ونخطّىءُ عقائد الآخرين على أساس تلك الحقائق المقبولة لدينا.

مثلًا عندما حكمنا بصحة أحد آراء الفلاسفة المختلفين، فانّنا نعلم أنّ صحة اعتقادين متضادين محال، وهذا إدراك عقلى بديهى، وقضية القائلين: «إنّ الحس لا اعتبار له لأنّه يُخطِىءُ» تماثل هذه القضية، وكما ذكرنا سابقاً، فان تخطئتنا للباصرة فى إدراكها لخط دائرى ممتد ناشئة عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة نورانية متحركة، وبما أنّ «النقطة» تضاد «الخط» حكمنا بخطأ الباصرة فى إدراكها للخط الممتد، وهذا اعتراف ضمنى يوجد حقائق وإمكانية إدراكها.

وآخر الحديث، نقول: فى الحقيقة إنّ جميع المنكرين للإدراكات العقلية يريدون إثبات مدعاهم بنفس الإدراكات، أى أنّهم ينقضون مدعاهم عملياً، وقد هبوا لحرب الإدراكات العقلية بواسطة الإدراكات العقلية.

٢- منزلة العقل فى الروايات الإسلامية

أكّدت الروايات الإسلامية على أنّ للعقل أهميّة قصوى أكثر مما هو متوقع، وأشادت به

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٢

بعناوين مختلفة مثل: أساس الدين، وأكبر غنىً، وأفضل رأس، واعلى قضية، وأفضل صديق، وأخيراً المقياس والمعيار للتقرب إلى اللَّه ونيل الثواب الإلهى.

ونكتفى هنا بذكر اثنتى عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات المأثورة والمنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، والأئمّة عليهم السلام.

ففى هذا المجال:

١- قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «قِوامُ المرءِ عَقلُه، ولا دينَ لِمن لا عقلَ لهُ» «١».

٢- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل» «٢».

٣- وقال فى حديث آخر: «إنَّ اللَّه تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر عقولهم» «٣».

٤- وجاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ الثواب على قدر العقل» «٤».

٥- كما جاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «ما قسّم اللَّه للعباد شيئاً أفضل من العقل ... وما أدّى العبد فرائض اللَّه حتى عَقَلَ

عنه، ولا بلغ جميع العابدين فى فضل عبادتهم ما بلغ العاقل» «۵».

۶- وجاء فى حديث أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام خاطب هشام بن الحكم قائلًا: «يا هشام! ما بعث اللَّه أنبياءه ورسله إلى عباده إلّاليعقلوا عن اللَّه، فاحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر اللَّه أحسنهم عقلًا، وأكملهم عقلًا أرفعهم درجة فى الدنيا والآخرة» «۶».

۷- وقال الرسول صلى الله عليه و آله فى حديث آخر: «لكل شىء آلة وعُدّة، وآلة المؤمن وعدَّته العقل، ولكلِ شىء مطية ومطية المرء العقل، ولكلّ شىء غاية وغاية العبادة العقل» «۷».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۴، ح ۱۹.

(۲). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ۵۴.

(۳). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۰۶، ح ۲.

(۴). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۲، ح ۸ (كتاب العقل والجهل).

(۵). المصدر السابق، ص ۱۲، ح ۱۱.

(۶). المصدر السابق، ص ۱۶.

(۷). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۵، ح ۳۴.

نفحات القرآن، ج‏۱، ص: ۱۲۳

۸- وجاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد اللَّه أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله» «۱».

۹- ويقول الإمام على عليه السلام فى هذا المجال: «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيّهما غلب كان فى حيّزه» «۲».

۱۰- ويقول فى حديث آخر: «العقول أئمّة الأفكار والأفكار أئمّة القلوب، والقلوب أئمّة الحواس، والحواس أئمّة الأعضاء» «۳»، (وبهذا فإنّ أعضاء الإنسان تستند إلى حواسه وحواسه تستعين بعواطفه، وتعتمد عواطفه على أفكاره، وأفكاره على عقله).

۱۱- وجاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «إنَّ الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام، وممَّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يُجزى يوم القيامة إلّاعلى قدر عقله» «۴».

۱۲- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «لا مصيبة كعدم العقل» «۵».

۳- المخالفون لتحكيم العقل

إنَّ لهذا الجوهر الإنسانى (العقل) شأناً رفيعاً وصفات إيجابية كثيرة جداً، والملفت للنظر حقاً أنّه بالرغم من اتصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذه المكانة المرموقة نجدُ مَنْ يذمّونه وَمَن يتأسفون لأنّهم عقلاء، والأغرب من ذلك أنّهم يمتلكون الحجج- حسب زعمهم- على ادّعاءاتهم الجوفاء!

---

(۱). بحار الانوار، ج ۱، ص ۹۳۰، ح ۲۰.

(۲). غرر الحكم.

(۳). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۶، ح ۴۰.

(۴). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۲۴.

(۵). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١۶۵.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢۴

فتارة يقولون: إنَّ العقل يحد من تصـرفات الإنسان ويسلبه حرّيته، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان أو حلالًا حسناً أو قبيحاً خيراً أو شرّاً، فلو لم تكن لنا عقول لكنّا أحراراً.

وتارة يقولون: إنّه يسلب راحة الإنسان حيث نرى العقلاء والأذكياء من الناس لا راحة لهم، إلّاأنّ البسطاء من الناس فرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم.

وإذا قرأنا أشعاراً مفادها ذمُّ العقل أو الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة أو كناية عن مفاهيم اخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذم العقل، بل إنّهم يقصدون أنّ هناك اموراً مؤلمة تحيطهم، والناس فى غفلة عنها.

أو أنّ قصدهم من الجنون المذكور فى بعض الأشعار كصفة للعقل، هو الجنون العرفانى والمراد منه العشق الإلهى، والتضحية بكل شيء فى سبيله.

وعلى أيّة حال، صحيح أنّ العقل يقيد حرية الإنسان وبعض تصرفاته،

إلّا أنّ هذا فخر له، لأنّه يرشدهُ نحو التكامل، إنَّ هذا الادّعاء يُشْبِهُ ادعاء من قال: «إنّ الاحاطة بعلم الطب يحد من انتخاب الإنسان لأنواع الأطعمة ومن امور اخرى»، وهل هذا نقص؟! أم أنّه ينقذ الإنسان من الاصابة بالامراض وفى بعض الأحيان من التسمم القاتل.

أمّا القول بأن العقل يزيد من هموم الإنسان وأحزانه، فهذا يرفع من منزلة الإنسان، العاقل من يتحسّس آلام المضطهدين والمظلومين ويتألم من سلوك المعاندين وبالتالى فهو دليلٌ على الكمال، وكما جاء فى المثل: (إمّا أن يكون ضعيفاً ونحيفاً كسقراط فى زهده أو سميناً وبديناً كالخنزير).

نعم، إذا غفلنا عن مسألة التكامل الإنسانى واعتبرنا الأصل فى الحياة هو اللذّة المادية، فان ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة اللذة المادية صحيح، لكن هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الإنسان الموحّد الذى يؤمن بالرسالة والهدف وتكامل الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإنّ المؤيدين لأصالة اللذة مضطرون لأنّ يسلموا ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية الحادة من حرياتهم وتصرفاتهم، وأن يفرضوا على أنفسهم العناء من

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢۵

هذه الناحية، ومن هنا ندرك كيف أنّ الإنسان يسقط فى الهاوية عند ابتعاده عن تعاليم الوحى والأنبياء.

إلى هنا ننهى البحث عن المصدر الثانى من مصادر المعرفة (العقل) وننتقل إلى المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح فى هذا الفصل.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٧

٣- التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد:

تعرَّض القرآن للقضايا التاريخية باسلوبين:

١- الاسلوب المدوّن، أى أنّ القرآن المجيد يَسردُ للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقة ودقيقة، ويبين الامور الغامضة والمشرقة من تاريخهم، ويشير إلى عواقب أعمالهم، وذلك لتوعية المسلمين وتعريفهم بالقضايا المختلفة، ولكى يرى الناس حقائق من حياتهم فى مرآة تاريخ السالفين.

٢- الاسلوب الثانى، التكوينى، أى كشف القرآن عن الآثار التاريخية التى خلفتها الأقوام الغابرة، الآثار الصامتة ظاهراً والتى تمثل عالماً صاخباً ومثيراً، الآثار التى يمكنها أن تصوّر لنا التاريخ الغابر، الآثار التى تعتبر مرآة أمام الإنسان يرى فيها وجه حياته فى الحاضر والمستقبل.

جج

نبدأ أولًا بقراءة نماذج من كلا القسمين فى الآيات التالية:

١- «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلبَابِ . (يوسف/ ١١١)

٢- «فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون . (الاعراف/ ١٧٦)

٣- «ذَلِكَ مِنْ أَنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائمٌ وَحصِيدٌ». (هود/ ١٠٠)

٤- «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبلِهِ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٨

لَمِنَ الغَافلين . (يوسف/ ٣)

٥- «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبرَةً لِّمَنْ يَخْشَى .

(النازعات/ ٢٥- ٢٦)

٦- «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسمَعُونَ بِهَا ...».

(الحج/ ۴۶)

«افَلَم يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا». (محمد/ ١٠)

٨- «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِين .

(آل عمران/ ١٣٧)

٩- «قُلْ سِيرُوا فِى الأَرضِ فَانْظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (العنكبوت/ ٢٠)

١٠- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ . (البقرة/ ٢٥٨)

١١- «أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ». (الفجر/ ۶- ٧)

١٢- «أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ . (الفيل/ ١)

شرح المفردات:

١- إنَّ كلمة «قصص» تعنى التتبع لآثار شىءٍ ما «١»، وقد سمّيت القصة قصة لأنّ فيها تتبعاً للأخبار والحوادث المختلفة، وعليه فالقصّة لا تعنى الرواية فحسب، بل تعنى- لغوياً- التتبع لآثار الأشياء.

كما تطلق «القصص» على كل شىء متتابع ومتسلسل.

---

(١). ينبغى الالتفات إلى أنّ (قصص) كما هى مصدر لقصَّ يقصّ، هى جمع (قصة)، والمراد منها فى سورة يوسف فى الآيتين ٣ و ١١١ هو المعنى الثانى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٢٩

وبما أنّ (المِقَصّ) يقص الشعر على التوالى قيل له (مِقَصّ)، والقُصّة، على وزن «غُصّة» وتعنى مجموعة الشعر الإمامى «١».

٢- أمّا كلمة «عِبْرة» فاشتقت من مادة (عبور) و (عَبْر) وتعنى الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، و «العبور» فى الأصل- يعنى عبور الماء

سباحة أو بالزورق أو على الجسر وأمثال ذلك، وقد استعملت هذه المفردة بمعنى أوسع وهو الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، ويقال لقسم من الحديث (عبارة) لأنّها تمثل العبور من لسان المتكلم إلى اذن السامع.

أمّا (العبرة) فهي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المُشاهِدِ إلى ما ليس بِمُشاهَدٍ «٢».

وقد ذكر البعض أن «العبرة» تعني الدلالة التي توصل الإنسان إلى مراده «٣».

كما جاءت هذه المفردة بمعنى التعجب «۴» (وقد يكون هذا الاطلاق الأخير لأنّ كثيراً من الامور التي يكتشفها الإنسان عن طريق الحوادث المهمّة والجلية تثير العجب).

٣- كلمة «السير» تَعني الحركة على الأرض، وإذا قيل (سيروا في الأرض) فإنّ القيد الأخير تأكيد للسير، وقد قال الراغب في مفرداته: ذُكِرَ معنيان للسير في الأرض: أحدهما الحركة الجسمانية على الأرض (ومشاهدة الكائنات وآثارها المختلفة)، والثاني هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات، وقد صرح البعض: إنّ السير يعني العبور المستمر في جهة واحدة «۵».

أمّا كلمة «السيرة» فتعني الطريقة والأسلوب، واستعمالها إشارة إلى تاريخ حياة الأشخاص، وقد أُخذت من هذا المعنى

۴- أمّا «الرؤية» فقد جاءت بمعنيين، أحدهما المشاهدة بالعين، والآخر العلم والمعرفة

---

(١). لسان العرب، ومفردات الراغب، ومجمع البحرين.

(٢). مفردات الراغب.

(٣). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ٢٧١.

(۴). لسان العرب.

(۵). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ٢۶٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٠

أو المشاهدة الباطنية «١»، وقد استعملت في القرآن الكريم في موارد كثيرة بالمعنى الثاني أي بمعنى العلم والاطلاع، وأمّا «الرأي» فيعني الاعتقاد القلبي والنظرية سواء كان اعتقاداً يقينياً أو ظنياً، وأمّا «الرويّة» و «التروّي» فيعنيان التفكير أو السعي والبحث للحصول على النظرية.

۵- كلمة «نظر» في الأصل تعني دوران العين أو حركة الفكر لإدراك أمرٍ ما، أو مشاهدته، وجاء أيضاً بمعنى البحث والتفحص وتارة جاء بمعنى المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معانٍ للنظر: ١- مشاهدة الشيء، ٢- التدقيق في الشيء بواسطة العين؛ ٣- التفكير للحصول على العلم أو الظن «٢».

أمّا صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنّه المشاهدة بالعين والثاني المشاهدة بالقلب، والمفيد أنّه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه و آله حيث قال فيه: «النظر إلى وجه على عبادة»، وفي تفسير هذا الحديث ينقل عن ابن الأثير أنّه قال: معنى الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع على عليغ عليه السلام كانوا يقولون:

«لا إله إلّااللَّه ما أشرف هذا الفتى لا إله إلّااللَّه ما أعلم هذا الفتى ...» «٣».

جمع الآيات وتفسيرها

بعد أن أشارت الآية الاولى إلى المصير المؤلم لبعض الأمم السالفة قالت: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ فالتفكير في مصير هؤلاء يُعد الاسلوب الأَمثَل لأُولى الألباب لمعرفة عوامل السعادة والشقاء، وتمييز طريق الهلاك عن طريق النجاة.

---

(١). وفعلها يتعدى لمفعول واحد على المعنى الأول، ومفعولين على المعنى الثانى (لسان العرب والمفردات).

(٢). مفردات الراغب مادة (نظر).

(٣). لسان العرب، مادة (نظر).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣١

ج ج

والآية الثانية خاطبت الرسول قائلة ذكرهم بتاريخ ومصير الامم السالفة من أجل أن تبعث فيهم روح التفكير والتأمل: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلّهُم يَتَفَكَّرُون وهذا يدل على أنّ البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحوة الأفكار ومصدراً للمعرفة.

ج ج

والآية الثالثة بعد أن بيّنت مصير بعض الأقوام السالفة مثل قوم نوح وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثمود، قالت: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ» (أى من القرى من هو باق لحدّ الآن ومنها من زال وفنى «مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . (هود/ ١٠١)

ثم أضافت فى النهاية «إِنَّ فى ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرةِ». (هود/ ١٠٣)

ج ج

و الآية الرابعة التى جاءت فى بداية سورة يوسف، هَيَّأَتْ أذهانَ المخاطبين فى البداية لتلقى وإدراك ما سَيُقال لهم فقالت: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ احْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا الَيْكَ هَذَا الْقُرآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ .

(يوسف/ ٣)

فقد استندت الآيات الأربع إلى موضوع «القصة» والقصص» كوسيلة للمعرفة.

ج ج

والآية الخامسة بعد اشارتها إلى تعذيب فرعون قالت: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالاولى إِنَّ فى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى .

إنَّ هذه الآية ذكرت (العبرة) التى تعنى الانتقال والعبور من حالة قابلة للمشاهدة إلى حقائق غير قابلة للمشاهدة واعتبرتها وسيلة للمعرفة.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٢

وقد أكدت الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة على مسألة «السير فى الأرض»، ودعت الناس إليه باساليب خطابية مختلفة، فمرة خاطبتهم ب: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ومرة «فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبينَ بعد ما ذمتهم لعدم سيرهم فى الأرض.

وفى آيات أُخَر خُوطِبَ جميع الناس أو المسلمين بالقول: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبينَ .

وفى آية اخرى هناك دعوةٌ للناسِ لأنّ يسيروا فى الأرض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة.

ج ج

وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة على مسألة المشاهدة و «الرؤية» ليس بالعين الباصرة، بل بالعقل والبصيرة.

إنّ الخطاب فى الآيات الثلاث فى الظاهر موجَّهٌ إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّاأنّ المراد بها جميع المؤمنين، بل الناس كافة، والخطاب بصيغة استفهام تقريرى، حيث خاطبه اللَّه تارة بالنحو الآتى:

ألم ترَ إلى الذى (أى نمرود ذلك السلطان الطاغى المغرور) حاجّ ابراهيم فى ربّه، وإلى أىّ نهاية انتهى به المطاف؟ وتارة يخاطبه بهذا الخطاب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَاد».

وخاطبه تارة اخرى بنحو آخر قائلًا له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِأَصْحَابِ الفِيْلِ ، مـذكّراً بقصـة أصـحاب الفيل الـذين قدموا من اليمن لهدم الكعبة فانزل اللَّه عليهم طيوراً- بالرغم من ضعفها- ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بمناقيرها فهلكوا بهذه الأحجار الصغيرة.

ومن المسلم به أنّه لا الرسول ولا غيرَه من المسلمين رأى إبراهيم ونمرود وسمعَ

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٣

محاجتهما، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد، فلم يروهم ولم يروا مدنهم العامرة يومذاك، وحتى بالنسبة لأصحاب الفيل فإنّ الرسول صلى الله عليه و آله وُلِدَ فى السنة التى هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة، فلم يرَ شيئاً من الحادث وكذا أكثر المسلمين، وعلى هذا فالمراد من الرؤية هو التدقيق فى تاريخهم.

إنّ ما يلفت النظر هنا هو أنّ الآيات الخمس الاولى ركّزت بحثها على التاريخ المدوّن أى ما جاء فى صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الاربع الأخيرة بحثها على التاريخ التكوينى الحى أى الآثار الباقية عن الأقوام الغابرة فى بقاع مختلفة من العالم.

من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الأخيرة فيها إشارة إلى التاريخ المدون أو التاريخ الخارجى أو كليهما، ويتضح من مجموع هذه الآيات (وأمثالها فى القرآن الكريم) الأهميّة القصوى التى أولاها القرآن لقسمى التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم.

إنَّ اللَّه عزّ وجلّ يدعو الناس تارةً لأنّ يشاهدوا بأم أعينهم قصور الفراعنة وآثار دمار مدن عاد وثمود وقصور نمرود وأعوانه والبلاد التى جُعِلَ عاليها سافلها التابعة لقوم لوط لكى يعرفوا أنَّ مَصير المتجَبّرين سيؤول إلى هذه النهاية.

وتارة نجد القرآن نفسه يشرح بدقة هذه الحوادث ويسلط الأضواء عليها ويعدُّ العِبَر بعد العِبَر ذاكراً عاقبة (المكذبين) و (الظالمين) و (الكافرين) و (المفسدين) فى ضمن بحوثه التاريخية هذه.

فى الحقيقة إنّ القرآن تارة يأخذ بأيدى الناس إلى «مصر» ويريهم الآثار التاريخية ويصور لهم الراقدين تحت التراب ويضع أمام أعينهم العروش التى عصفت بها الرياح، وتارة اخرى يريهم الذين أُركسوا فى العذاب وهُدّمت عروشهم، والخلاصة: فإنّ القرآن يريهم ما خفى عن العيان من قصص الأسلاف.

إنّه يمضى بهم إلى المدن المُخربة كمدينة (سدوم) مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلّ بها ومن هناك إلى جنة شداد، وبلاد بابل، (مركز حكومة نمرود)، ومناطق اخرى.

إنّه يجعل من ايوان كسرى فى المدائن وزخارف كل قصر عبرة لمن اعتبر ونصيحة جديدة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٤

والخلاصة: إنّ القرآن يستند كثيراً فى مجال التعليم والتربية والتوعية إلى التاريخ المدون فى الكتب، وما موجود على وجه الأرض، وهذه، مسألة جديرة بالاهتمام كثيراً.

ج ج

توضيحات

١- مرآة التاريخ

إنّ أهم ما يحصل عليه الإنسان فى حياته هو تجاربه الشخصية، التجارب التى تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة من أجل حياة أفضل وجهاد اكثر ليسعى جاهداً للوصول إلى التكامل الأمثل.

لكن ما هو مقدار التجارب التى يستطيع الإنسان الحصول عليها خلال عمره القصير البالغ مثلًا عشرين سنةً أو خمسين أو ثمانين؟

هذا إذا قضى عمره فى ميادين التجربة ولم يِقضِهِ على وتيرة واحدة.

إننـا، لو اسـتطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش فى عصـر واحـد، أو تجارب جميع من عاش فى القرون والعصور الماضـية، لَحَصَـلْنا على تجارب كثيرة، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفتنا وخبرتنا.

إنّ التاريـخ- إذا تمّ تـدوينه بالطريقـة الصـحيحة والكاملة- فسوف يقدم للباحثين والدارسـين تجارب البشـر على مرّ القرون، وحتى إذا كان ناقصاً فانّه يضم بعض تجارب العصور الغابرة.

ومن هنا تبـدو أهميّة التاريـخ حيث إنّ ما يحـدث الآن قـد تكرر نموذج أو نماذج منه فى التاريـخ سابقاً، وما يقال عن التاريـخ من أنّه «يعيد نفسه» حقيقة لا تنكر وقد تستثنى موارد منه إلّاأنّ اكثر الحوادث داخلة فى اطار هذا القانون.

وقد أشار الإمام على عليه السلام لهذا الموضوع بوضوح فى خطبةٍ له، حيث قال فيها: «عباد اللَّه

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٥

إنّ الدهر يجرى بالباقين كجريه بالماضين» «١».

وقد جاء فى حديث شريف أنّ ما يجرى فى الامة الإسلامية قد جرى مثله فى بنى اسرائيل.

ومن هنا تتضح أهميّة ودور التاريخ فى مجال المعرفة والفكر، ونستطيع القول بتحدى:

إنّه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد:

عوامل الفشل والسقوط.

وعوامل الانتصار والفوز.

وعوامل إزدهار الحضارات.

وعوامل سقوط وانقراض الحكومات (الدول).

وعاقبة الظلم والاستبداد.

وعاقبة العدل والانصاف.

ونتائج وحدة الكلمة والحركة والسعى.

ودور العلم والمعرفة.

وعواقب الجهل والبطر والكسل، كلها قد انعكست فى مرآة التاريخ.

وإن أراد أحـد أن يمنحه اللَّه حياة ثانية فحريٌّ بنا أن نقول له: إنّك إذا درست التاريخ بدقة لوجدت إنّك لم تمنح حياة ثانية فحسب، بل وُهِبَت الآلاف المضاعفة.

وما أجمل ما خاطب به الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام ولَدَهُ الاكبر الإمام الحسن عليه السـلام: «أى بنى إنّى وإن لم أكن عُمّرتُ عمر من كـان قبلى، فقـد نظرت فى أعمالهم، وفكرت فى أخبارهِم وسـرتُ فى آثارهم، حتى عُـدْت كأحـدهم، بل كأنى بما انتهى الىَّ من امورهم قد عمِّرتُ مع أولهم إلى آخرهم» «٢».

---

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٢). نهج البلاغة، وصيته للإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٦

ومع أنّنا لا ننكر النواقص والإشـكالات على التاريـخ المتـداول بين أيـدينا، ولكن رغم هـذه النواقص- التى سنشـير اليها فيما بعد- فهو

غنى بالعلم والمعرفة.

٢- جاذبية التاريخ

لِمَ كان التاريخ معلماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، وذلك لإمكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذى تخضع فيه قضايا حياة الإنسان المختلفة للتحليل.

وعلى هذا الأساس، فكما أنّ العلوم التحليلية حلت الكثير من مسائلها وقدّمت الكثير من البراهين الحية لإثبات الواقعيات بالاختبار، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل، حيث يميز فيه الذهب الخالص من الذهب غير الواقعى، وبه تزول الأوهام عن الأذهان.

إذا حللت ظواهر الأجسام أو تركيباتها فى مختبرات الكيمياء والفيزياء، فانّك فى مختبر التاريخ تحلل أسرار انتصار وفشل الأقوام السالفة، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات، وردود الفعل وصفات ومعنويات الأقوام والأشخاص، واسلوب عملهم بجاذبية وجمال فائق.

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر.

وإذا شاهدنا فى القرآن الكريم تأكيداً على تاريخ الامم السالفة، وشاهدنا فيه من السور الدالّة على المباحث التاريخية حتى أنّ بعض السور تدور معظم آياتها أو كلّها حول تاريخ الأقوام السالفة فذلك كله ناشيء من هذه الملاحظة التى أشرنا اليها.

وقد ينكر المعاندون بعض المسائل النظرية، إلّاأنّه لا يمكنهم انكار واقعيات التاريخ القطعية، وبالخصوص الحوادث التى أشار اليها القرآن حيث نراه يأخذ بأيدى الناس إلى ما خلّفته الأقوام الغابرة، ويروى قصصهم على قبورهم وقمم مدنهم الخربة.

إنّ التاريخ- فى الحقيقة- فرع من المسائل التجريبية، وبتعبير آخر يمكن ادغامه فى مصدر «الحس والتجربة» إلّاأنّه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضى، وأنّ الحس والتجربة قد يتعلقان بذات الفرد فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر.

ولكن الأهميّة الفائقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل للمعرفة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٣٧

٣- شوائب التاريخ

بالرغم من أنّ التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الواقعيات إلّاأنّ المؤسف فيه هو وجود أيادٍ ملوَّثة سعت وتسعى دائماً لتغيير وتشويه الوجه الناصع لهذه المرآة، ولهذا السبب فإنّ هناك كثيراً من الشوائب فى التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق من الكاذب منه.

إنّ سبب التشويه واضح، حيث لم يكن المؤرخون محايدين دائماً، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذى يتناسب مع دوافعهم الشخصية والفئوية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ جبابرة كل عصر سعوا لإِغراء المؤرخين وجذبهم ليكونوا تحت سيطرتهم ونفوذهم، ليملوا عليهم ما يحلو لهم فيكتبوا ما يريد هؤلاء الجبابرة.

وبالرغم من المساعى التى تُبذل بعدَ زوال كلٍّ من الجبابرة والظالمين وتوفر أجواء حرة أكثر فى سبيل إصلاح الأخطاء، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد، إلّاأنّ المؤرخين قد لا يوفّقون فى هذا المجال لإصلاح الخطأ، أو تكون إصلاحاتهم غير كافية.

والملفت للنظر أنّ قضايا التاريخ تتبدّل كلما تبدلت الحكومات المستبدة ذات الميول والإتّجاهات المتضاربة، ف «بنو امية» مثلًا حرفوا

التاريخ الإسلامى بشكل، و «العباسيّون» حرفوه بشكل آخر، كما أنّ الذين خلفوا العباسيين صاغوه بشكل آخر.

إنَّ (استالين) كتب فى زمن ما تاريخ الثورة الشيوعية فى روسيا بشكل، وقد دُرِّس هذا التاريخ فى جميع المدارس آنذاك، والذين خلفوه كانوا يعتبرونه جلاداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة اخرى، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة فى الاتحاد السوفيتى فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصى والمذهبى.

ولهذا السبب، فإنّ البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه- مبالغةً- هذه العبارة: «إنّ التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث أبداً، وأقوام لم توجد أبداً»!!

إلّا أنّ الانصاف يفرض علينا أن نعدّ التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذى غطّاه، وذلك لأنّ التاريخ كأى خبر آخر منه «المتواتر» ومنه «الموثوق» ومنه «الضعيف» ومنه «المجهول».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۳۸

ولا- يمكن انكار ما تواتر فى التاريخ عن جُند المغول وجيش هتلر والحوادث المفجعة فى «الاندلس»، والمئات من هذه الحوادث، والذى يصلح للنفى والإثبات والإشكال هو جزئيات التاريخ، وهى بدورها إذا ثبتت باخبار الثقات أصبحت صالحة للاعتماد عليها.

بالطبع فإنّ الأخبار الضعيفة فى هذا المجال ليست قليلة.

و هذا حكم عادل بحق التاريخ، فينبغى عدم الأخذ بكل ما جاء فى التاريخ، كما لاينبغى نبذ كل ما ورد فيه.

وقد سَلِمَ قسمان من التواريخ من أى تحريف وتلويث وهما:

التواريخ التى ظلّت فى صورة آثار تكوينية فى الخارج، فلا يمكن تحريفها ببساطة، وقد أكد القرآن المجيد على هذا القسم كثيراً، وآيات «السير فى الأرض» بهدف التعرف على تاريخ الامم السالفة ناظرة إلى هذا القسم منه.

والأكثر من ذلك التواريخ التى وصلتنا عن طريق «الوحى» مثل تواريخ القرآن التى تعتبر أصيلة وخالصة من جميع الرغبات والنزعات، فكما أن اللَّه عزّ وجلّ أفضل مقنّن فهو أفضل مؤرخ كذلك، لأنّه خبير بجميع الجزئيات ومنزه عن الإتّجاهات الفردية والجماعية، ومع توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روى لنا التاريخ.

وقد يتعجب البعض ويسأل: لماذا يعيد اللَّه تعالى قصة نوح أو موسى أو فرعون أو مواجهة الأنبياء للمستكبرين والجبابرة عدّة مرّات؟ لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناظرة إلى الحادث من زاوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخى زوايا وجوانب متعددة، فقد ينظر- مثلًا- إلى تاريخ بنى اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاغوت زمانهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عنادهم لأنبيائهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والتشتت وعدم الاتحاد، أو من حيث آثار ونتائج نكران النِعَم، والخلاصة: إنّ كثيراً من الحوادث التاريخية كالمرآة ذات الأبعاد المختلفة، يسلط كلُّ بعد من ابعادها الأضواء على جانب من الجوانب (وسيأتى شرح هذا بالتفصيل فى بحث تواريخ القرآن).

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۳۹

۴- فلسفة التاريخ

إنّ المهم فى التاريخ هو العثور على «جذور» و «نتائج» الحوادث التاريخية.

فإذا حصلت ثورة فى بقعة ما من العالم- مثلًا- ينبغى أولًا دراسة العوامل التى أدتهذه الثورة والتحقق منها بدقة.

ثانياً النظر فى نتائج هذه الثورة، وهذان الأمران هما اللذان يخرجان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلّية، ويبدلانه إلى مصدرٍ مهم للمعرفة.

لكن يؤسفنا أن يكتفى المؤرخون بذكر الحوادث التاريخية، فى مرحلة تبلورها فقط، وقلّما يتجهون نحو جذور وعلل الحوادث ونتائجها، ولم يتركوا فى مجال تحليل القضايا التاريخية آثاراً تُذكر.

إلّا أنّ القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أُصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لمقطعٍ تاريخى يقول:

«فَانْظُرُوا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . (آل عمران/ ١٣٧)

وتارة يقول: «وَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ . (الاعراف/ ٨٦)

وتارة يقول: «فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . (النمل/ ٦٩)

وتارة يقول: «انَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . (الرعد/ ١١)

والجدير بالذكر أن للتاريخ فروعاً عديدة أهمّها تاريخ الإنسان والمجتمعات البشرية، وتاريخ الحضارات، وتاريخ العلوم والفنون البشرية، وهى تواريخ محورها الأساس ومحرك عجلتها هو الإنسان.

يالهم من بسطاء أولئك الذين يظنون أن التاريخ- بالرغم من كل فروعه وتشعباته- نتاج قسرى للقضايا الاقتصادية وخاصةً وسائل الانتاج، أى أنّ التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهزته التى صنعها الإنسان بنفسه!

وعلى هذا الأساس يمكننا القول: إنّ هؤلاء بتصورهم الخاطىء وتفكيرهم الشاذ لم يعرفوا الإنسان ولا التاريخ أبداً.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٤٠

۵- التاريخ «النقلى» و «العلمى» و «فلسفة التاريخ»

اشارة

قسم أحد العلماء المعاصرين التاريخ- من وجهة نظر وزاوية خاصة- إلى ثلاثة أقسام:

١- التاريخ النقلى: وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة التى حدثت فى الماضى، وهو أشبه ما يكون بالفلم الذى يصور حادثة أو حوادث، لهذا فانه جزئى دائماً وليس كلياً، ويتحدث عمّا كان لا عمّا يكون، ويتعلق بالماضى لا بالحاضر، ونقلى لا عقلى.

وهذا الفرع من التاريخ يمكنه- عن طريق المحاكمات- أن يكون معلماً مفيداً، وعبرة من أناس ذلك الزمان، وهو أشبه بتأثّر الإنسان بجليسه، وأشبه بالاسوة التى يذكرها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها.

٢- التاريخ العلمى: وهو التاريخ الذى يتحدث عن قواعد وسنن الامم السالفة التى تُستنبط من دراسة وتحليل حوادث العصور السابقة، وفى الحقيقة فإنّ التاريخ النقلى كالمادة الخام لهذا التاريخ.

ومن ميزات هذه السنن هى إمكانية تعميمها، وكونها علمية، وإمكانية جعلها مصادِر للمعرفة، وإحاطة الإنسان- عن طريقها- بالمستقبل.

وبالرغم من أنّ هذا النوع من التاريخ كلى وعقلى، فانّه علم بما كان لا بما يكون.

٣- فلسفة التاريخ: وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة إلى أُخرى أو بتعبير آخر: هو علم بما يكون لا بما كان.

ويمكن توضيح هذا بالمثال الآتى:

إنّ «علم الأحياء» علم يبحث عن القواعد الكلية التى تحكم حياة الموجودات الحية، إلّا أنّ نظرية «تكامل الأنواع» إذا قلنا بها- تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات إلى نوع آخر، إذن، موضوع البحث فى فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامل التاريخ، إنّ هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلى وعقلى، ورغم ذلك فانّه ناظر إلى مجريات التاريخ من الماضى إلى المستقبل وفائدة هذا

النوع من التاريخ لا تخفى على أحد «١».

(١). ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهرى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما ذكرناه فى شروحنا للاقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات العصرية لمفردتى «العلم» و «الفلسفة» وأنّ المراد كان ايصال المفهوم إلى أذهان القراء فقط.

فضلًا عما ذُكر سابقاً نضيف هنا القول بامكانية ادغام القسم الثانى والثالث فى قسم واحد، ذلك لأنّ القوانين الكلية التى رسمت التاريخ وتُستخرج وتُستنبط من التاريخ النقلى، تارة تكون ناظرة إلى الوضع الراهن للمجتمعات، وتارة اخرى تكون ناظرة إلى تحول وتكامل المجتمعات.

والمهم هنا هو أنّ القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرد لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلى السنن والقوانين الكلية التى حكمت المجتمعات، القوانين التى يمكنها أن تزيل القناع عمّا كان ويكون، أو عن أى تغير وتحول تاريخى كأىّ تقدمٍ أو سقوطٍ أو فشلٍ حصل للمجتمعات.

يشير القرآن- مثلًا- إلى هذه السنة: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . (الأنفال/ ٥٣)

وينبغى الالتفات إلى أنّ القرآن ذكر هذه السنة بعد ما أشار إلى قصة قوم فرعون وعذابهم بسبب ذنوبهم.

ويقول فى آيات اخر (بعد اشارته إلى تاريخ الأقوام القويّة التى اُهلكت بسبب تكذيبهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم): «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ . (المؤمن/ ٨٥)

نعم تنبغى الوقاية قبل العلاج، وهذا قانون كلى، لأنّ الإنسان لو ابتلى بجزاء أعماله فلا فرصة حينئذٍ لجبران الماضى.

الإجابة على إشكال:

قد يُقال إنّ قبول وجود قانون كلى فى تاريخ الإنسان يجسد مفهوم الجبر فى تاريخ

البشر ولا ينسجم وحرية الإرادة والاختيار.

لكن الالتفات إلى نقطة فى هذا المجال يرفع الإشكال بالكامل والنقطة هى:

إنَّ قولنا بوجود قوانين وسنن كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها أو الجماعية) لها مردودات وانعكاسات قهرية، فمصير الأمم الصامدة والعارفة والمثابرة- مثلًا- هو النصر، ومصير الأمم المشتتة والجاهلة هو السقوط والفشل.

هذه سنة تاريخية، فهل أنّ مفهوم هذا القانون الكى هو أنّ الإنسان مجبور، أم إنَّه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الإنسان فى تعيين مصيره؟

وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا: إنّ الإنسان يموت إذا تناول سُمّاً، وهذا المردود قهرى ولا يتنافى واختيار الإنسان وأصل إرادته.

٦- التاريخ فى نهج البلاغة والروايات الإسلامية

بما أنّ نهج البلاغة كتاب عظيم ذا محتوى تربوى غنى جدّاً، وبما أنّ التربية بلا معرفة، والمعرفة بلا تربية أمر محال، فقد أكد هذا الكتاب على القضايا التاريخية كثيراً.

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية يصورها وكأنّه يأخذ بأيدى الناس إلى مكان الحدث ويريهم فرعون

وجنوده ويقتفون آثار مستضعفى بنى اسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم فى نهر النيل.

إنّه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير الدمار الشامل الذى خَلَّفَهُ الطوفان والصواعق والزلازل والحجر الذى أُمطروا به، والناس يشاهـدون أخـذ هـذه الامـم الطاغيـة واللاهيـة مع قصورهم ومـدنهم وبطغيانهم وهلاكهم فى طرفـة عين بحيث لم يبق إلّاآثار الخراب والصـمت القاتـل المهيمن عليهـا، وكـل من سَاحَ فى نهـج البلاغـة مرَّ بهم ورجع بكنزٍ هائل من العلم والمعرفـة والخبرة، إنّ قـدرة نهج البلاغة فى تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقاً، وكذا الأمر عند بيانه لفلسفة التاريخ.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۳

وقد شـرحنا سابقاً كلام الإمام على عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتجربة.

وهناك عبارات جميلة له عليه السلام حول جريان السنن التاريخية حيث يقول:

«عبـاد اللَّه إنَّ الـدهر يجرى بالباقين كجريه بالماضـين، يعود ما قـد ولّى منه، ولا يبقى سـرمداً ما فيه، آخر فعاله كأوّله، متشابهـة اموره، متظاهرة أعلامه» «۱».

وفى تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة الصبر واليقين والعدل والجهاد)، يقول:

«اليقين منها على أربع شُعَب، على تبصرة الفطنة وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة وسنة الأولين» «۲».

ويقول عليه السلام فى موضع آخر:

«واعلموا عباد اللَّه أنّكم وما أنتم فيه من هـذه الـدنيا على سبيل من قد مضـى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامـدة، ورياحهم راكـدة، وأجسادهم باليـة، وديارهم خاليـة، وآثارهم عافيـة، فاسـتبدلوا بالقصور المشـيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة المُلْحَدة التى بُنى على الخرب فناؤها وشيّد بالتراب بناؤها» «۳».

ويقول فى خطبة اخرى:

«فاعتبروا بما أصاب الامم المسـتكبرين من قبلكم، من بأس اللَّه وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتّعظوا بمثاوى خدودهم ومصارع جنوبهم» «۴».

كما يقول فى نفس الخطبة:

«فانظرو كيف كانوا حيث كانت الأولاد مجتمعة والأهواء مؤتلفة، والقلوب مهتدلة.

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

(۲). المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ۳۱.

(۳). المصدر السابق، الخطبة ۲۲۶.

(۴). المصدر السابق، الخطبة ۱۹۲، (الخطبة القاصعة).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۴

والأيـدى مترادفـة، والسـيوف متناصـرة، والبصـائر نافـذة والعزائم واحـدة، ألـم يكونـوا أربابـاً فى أقطـار الأرضـين؟ وملوكـاً على رقـاب العالمين؟! فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر امورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتّت الألفة، واختلفت الكلمة، والافئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع اللَّه عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقى قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» «۱».

ويقول فى خطبة اخرى:

«وإنّ لكم فى القرون السالفـة لعبرة! أين العمالقـة وابناء العمالقـة! اين الفراعنة وأبناء الفراعنة «۲»! اين أصـحاب مدائن الرّس «۳» الذين

قتلوا النبيين، واطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ اين الـذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر ومـدّنوا المدائن؟» «۴».

كما أنّ الروايات الإسلامية أولت عناية كبيره لهذه المسألة، واعتبرتها أحد المصادر المهمّة للمعرفة وبالأخصّ للمسائل الأخلاقية، وتهذيب النفوس، والالتفات إلى واقعيات الحياة.

وقد جاء في رواية أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان في طريقه مع عسكره إلى صفين وصل إلى مدينة (ساباط) ثم إلى مدينة (بهرسير) «۵» (المناطق التي كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت أحد صحابته فجأة إلى آثار كسرى (والملك الساساني

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲، (الخطبة القاصعة).

(۲). العمالقة: أقوام قوية ومتمكنة وجبارة وظالمة كانوا في شمال العراق، وقد فتحوا «مصر» وحكموها لفترة في عهد الفراعنة.

(۳). يعتقد الكثير أنّ أصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحجاز، وكان لهم نبي باسم حنظلة، وقال البعض أنّهم قوم شعيب، ويعتقد بعض آخر أنّ مدنهم كانت بين الشام والحجاز (يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۳۸ من سورة الفرقان).

(۴). نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۲.

(۵). يقول البعض إنّها مشتقة من الأصل الفارسي أي (بوارد شير) أو (دهار دشير) وهي إحدى المدائن السبعة التي كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان، ج ۱، ص ۵۱۵).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۵

المعروف) وانشد البيت:

جرت الرياحُ على مكان ديارهمفكأنّهم كانوا على ميعاد

فقال الإمام عليه السلام: «لِمَ لم تقرأ، هذه الآيات: «كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذلِكَ وَاورَثْنَاهَا قَوماً آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيهِمُ السَّمَاءُ وَالْارْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » «۱».

وقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ داود عليه السلام خرج من المدينة وهو يقرأ (الزبور)، وما من جبل أو حجر أو طير أو حيوان وحشي إلّاويقرأ معه، وهو مستمر في طريقه حتى وصل إلى جبل، يعيش على قمته نبي عابد اسمه (حزقيل)، أدرك مجيء داود عندما سمع ترتيل الجبال والطيور والوحوش، وعندما سأل داود النبيَّ: هل تأذن لي بالصعود إليك؟ فأجابَهُ النبي العابد: لا، فبكى داود، فأوحى اللَّه إلى (حزقيل) بأن لا يوبّخ داود، وأن يطلب من اللَّه تعالى حسن العاقبة، فقام حزقبل وأخذ بيد داود وجاء به إلى محله.

فسأله داود: هل عزمت على الذنب يوماً؟

فاجاب: لا.

ثم سأل: هل حصل عندك الغرور والعجب لكثرة عبادتك؟

أجابه: لا، ثم سأله: هل رغبت في الدنيا وهل أحببت شهواتها ولذاتها؟

أجاب: نعم، نعم قد يخطر هذا في قلبي.

فسأله: ماذا تفعل آنذاك؟ أجاب: أدخل في هذا الوادي واعتبر بالذي فيه.

فدخل داود الوادي، فرأى أريكة من حديد وعليها جمجمة متآكلة وعظاماً رميمة ولوحة مكتوبة، فعرف داود: أن ذلك يتعلق بملك مقتدرٍ حكم سنينَ طويلة وبنى مدناً كثيرة.

وقد بلغ به الأمر إلى ما تراه ...» «۲».

ج ج

(۱). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۲۷.

(۲). المصدر السابق، ج ۱۴، ص ۲۲ (ملخص الحديث).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۶

آخر الحديث حول التاريخ المعلِّم:

إنَّ ما ذكرناه عن التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالامور الآتية:

أولًا: أن لا يدرس الإنسان التاريخ للتسلية.

ثانياً: أن يدرس العلاقة الحقيقية بين القضايا التاريخية وأعمال الإنسان، ولا يحُلل القضايا التاريخية على أساس التبريرات الوهمية كالحظ والصدفة، أو المصير المحتوم أو القضاء والقدر (على التفسير الذى يعتقد به الجاهلون، والذى تُسلب على أساسه قدرة الإنسان فى الاختيار).

ثالثاً: أن يستنبط القوانين التاريخية الكلية من الحوادث الجزئية، وأن يحقق فى اصول ونتائج كل حادثة ثم يجعل نفسه مصداقاً لهذه القوانين ويخرج بالنتيجة.

رابعاً: أن لا يسعى ليجرّبَ الحوادث (التى جربت قبله) بنفسه، وذلك لكى لا يكون مصداقاً لهذا الحديث «من جرّب المجرَّب حلّت به الندامة».

خامساً: أن يكون ناقداً للحوادث التاريخية ومميزاً للمسلَّمات من المشكوكات والأساطير من الواقعيات.

وخلاصة الحديث هو أن يتلقى التاريخ كمصدرٍ مُلْهِم للمعرفة والخبرة فى حياته، وليس بشكله المحرَّف.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۷

۴- الفطرة والوجدان

تمهيد:

عندما يصل الإنسان إلى سنّ الرشد، يتعرف على بعض الحقائق من دون الحاجة إلى معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين حيث تكون واضحة عنده.

و يدرك حسن وقبح كثير من الامور، مثل: قبح الظلم وحسن العدل والاحسان.

و عندما يقوم بعمل مشين، يناديه صوت الوجدان الرادع الباطني يؤنبه على عمله، وعندما يأتى بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسى.

يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة.

يحس فى باطنه ارتباطاً بمبدأ مقدس، وبتعبير آخر: إنّ فى باطنه ما يجرّه ويجذبه إلى اللَّه عزّ وجلّ.

وهذا يكشف عن وجود مصدرٍ للمعرفة فى باطن الإنسان غير المصادر التى قرأنا عنها سابقاً، يطلق عليه «الفطرة»، وتارة «الوجدان» واخرى «الشعور الباطنى».

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل الايضاحات الآتية:

إنّ روح الإنسان تمثل ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة، نـدرك بعضـها، ونجهل الآخر، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاذاة جوانبها المختلفة.

وإنّ العقـل يشـكل قسـماً مـن الروح، ووظيفته التفكير، كمـا أنّ هنـاك قسـماً آخر وهـو الحافظـة ووظيفتهـا حفـظ المعلومـات وخزنها وتقسيمها وتبويبها واستخراج المراد والمطلوب منها- بشكل معجز- من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۸

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء.

والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والإرادة والعزم والتصميم.

والخلاصة ينبغى القول: إنّ الروح بحر عظيم ملؤُهُ العجائب والغرائب، وإنّ القوانين التى تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية.

إلّا أنّه يمكن تقسيم الروح إلى قسمين كليين:

۱- القسم الذى يتعلق بالتفكير والإدراكات النظرية، أى ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاستدلال.

۲- القسم الذى يتعلق بالإدراكات البديهية الضرورية، أى ما هو حضورى ومعلوم عند الإنسان بلا دليل أو برهان.

وكلما تحدثنا عن الفطرة والوجدان، فإنّ مرادنا هو القسم الأخير من الإدراكات.

«الفطرة»: وتعنى الخلقة الاولى أى خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطرية.

و «الوجدان»: ما يجده الإنسان فى نفسه من دون حاجة لتعلمه.

و «الشـعور البـاطنى»: الإدراك الباطنى للإنسان الـذى يسـتلهم منه الإنسان، وعلى أيّة حال، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ هـذا الشـعور أحد مصادر العلم ومعرفة الحقائق، الذى قد يعبر عنه ب «القلب» وهو يختلف بوضوح عن «العقل» الذى هو مركز الإدراكات النظرية بالرغم من أنّهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الإنسان (فتأمل).

بالطبع، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسـفة جميعهم، بل أردنا الإشارة إلى هذا الموضوع، وسـنعيد الإشارة إليه مرّةً اخرى بشكلٍ استدلالى إن شاء اللَّه.

وبعد الالتفات إلى هذه الملاحظة، نتأمل فى القرآن لنرى كيف يكشف لنا عن هذا المصدر.

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۹

نقرأ أولًا الآيات الآتية:

نفحات القرآن ج ۱ ۱۹۲

۱- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَالهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ۷- ۸)

۲- «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . (الأنبياء/ ۶۴)

۳- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ والْأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . (لقمان/ ۲۵)

۴- «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . (العنكبوت/ ۶۵)

۵- «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . (البقرة/ ۱۳۸)

۶- «خَلَقَ الْإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ البَيانَ . (الرحمن/ ۳- ۴)

۷- «عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ . (العلق/ ۵)

۸- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْـدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الـدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون .

(الروم/ ٣٠)

ججج

معانى المفردات:

إنَّ كلمة «الهمها» مأخوذة من مادة «الإلهام» أى- كما يصرح به كبار اهل اللغة- الشيء الذى يقع فى قلب الإنسان، ويقول الراغب فى مفرداته: «الإِلهام: إلقاء الشيء فى الروع ويختص ذلك بما كان من جهة اللَّه وجهة الملأ الأعلى ، والروع يعنى القلب، أمّا الرَّوْع فيعنى الخوف والانبهار.

ثم استشهد بالآية «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» كدليل على ما قاله.

وقد جاء فى لسان العرب: أنّها من مادة (لَهْم) وتعنى البلع، والالهام يعنى التلقين الإلهى، وهو نوع من أنواع الوحى (الوحى بمعناه العام).

ومع الالتفات إلى أصل هذه الكلمة يمكن العثور على سبب الاطلاق، وكأن الروح تفتح فم الإنسان وتلقى فيه حقيقة بواسطة التعليم الإلهى فيمضغها فمه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥٠

«الفطرة»: جاءت من مادة فَطْر، ويعتقد البعض أنها فى الأصل تعنى «البَقْر» وهو الشقّ «١»، بينما يعتقد البعض الآخر أنّها تعنى الشق طولًا، ثم استعملت بمعنى الخلق، وكأنّ ستار العدم يُبْقر ويُمزّق فتخرج منه الموجودات الحية، كما يقال للعمل المنافى للصوم كتناول الطعام (إفطار)، فيقال: إنّ ذلك بسبب بِقْر شيء ممتد ومتصل.

ويقال للنبات الذى يفطر الأرض ويبقرها «فُطر» لأنّه يبقر الأرض ويخرج منها، وقد يطلق على حلب الثدى بالأصابع «فَطْر».

كما أنّ العجين إذا اختمر وصُيِّرَ خبزاً اطلق عليه «فَطْر» «٢».

وعلى كل حال، فإنّ المراد من هذه المفردة فى الآيات هو الخلقة الإلهيّة الاولى والهداية التكوينية نحو حقائق مودعة فى روحِ الإنسان وهو مجبول عليها.

وأمّا كلمة «النفس»- وكما أشرنا سابقاً- فتعنى «الروح» وقد يطلق على ذات الشيء «نفس الشى» كما جاء ذلك فى القرآن الكريم (ويحذّركم اللَّه نفسه) كما قد جاءت هذه المفردة بمعنى «الدم» و «العين» و «الشخص» «٣».

كما أنّها قد تطلق اطلاقاً خاصاً على «النفس الامارة» إلّاأنّها جاءت فى الآيات هنا بمعنى «الوجدان» الذى يشكل قسماً من روح الإنسان.

وكلمة «صِبْغَة» مشتقة من مادة «صَبَغَ» أى طلى لوناً، ويطلق على نتيجة العمل «صبغة»، و «صِبْغ» يعنى الطعام الذى يؤكل مع الخبز بحيث يكون الخبز كالصبغة لذلك الطعام، وادعى البعض أنّه يعنى زيت الزيتون الذى يغمس فيه الخبز ويؤكل.

ويقول الراغب: إنّ «الصبغة» المذكورة فى الآية إشارة إلى العقل الذى جُبِلَ عليه الإنسان وميّزه عن الدواب، وهو كالفطرة «٤».

---

(١). لسان العرب.

(٢). كتاب العين، ولسان العرب، ومفردات الراغب.

(٣). مجمع البحرين الطريحى، مادة (نفس)، ومفردات الراغب.

(٤). مفردات الراغب، مادة (صبغ).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٥١

إنّ التعبير بالصبغة، كما يقول عدد من أئمة اللغة- قد يكون بسبب أنَّ «النصارى يغسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء ممزوج بمادة صفراء اللون (غسل التعميد) معتقدين أنّ هذا الصبغ يطهره وينزهه، والقرآن يصرح لهم: إنّ صبغة الإسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف.

وعلى هذا، فالتعبير بالصبغة يتناسب كثيراً مع الفطرة والخلقة الاولى خاصة وأنّ بعض الروايات فسرت الصبغة ب «الإسلام والولاية» «١».

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآية الاولى بعد أن أقسم اللَّه بالنفس وبالذى سوّاها وما فيها من قابليات، أشار إلى المصدر المُلْهِم للمعرفة وهو «الوجدان الأخلاقى»، وقال: إنّ اللَّه ألهم الإنسان المعرفة فى مجال التقوى والفجور.

وقد جاء فى آية اخرى ما يماثل مفاد هذه الآية، فبعد إشارته إلى خلق الإنسان قال:

وهديناه النجدين.

وينبغى الالتفات هنا إلى أن «نجد»- فى الأصل- المكان المرتفع ويقابله «تَهَامة» أى الأرض المنخفضة، إلّاأنّ النجد هنا- بقرينة ما قبل وما بعد الآية، وبقرينة بعض الروايات التى فسرت النجد- كناية عن الخير والشر وعوامل السعادة والشقاء «٢».

كما أنّ الآية: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرَاً وإِمَّا كَفُوراً». (الإنسان/ ٣)

قد تشير إلى نفس المعنى، أو على الأقل تندرج «الهداية الفطرية» فى المفهوم العام للهداية التى جاءت فى هذه الآية.

ج‌ج

---

(١). تفسير البرهان، ج ١، ص ١٦٧- ١٥٨.

(٢). تفسير القرطبى، ج ١٠، ص ٧١٥٥؛ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤.

نفحات القرآن، ج‌١، ص: ١٥٢

والآية الثانية ناظرة إلى تحطيم الاصنام من قبل بطل التوحيد ابراهيم الخليل عليه السلام:

ومحاكمة عبدة الأصنام له فى بابل، فعندما سُئِلَ: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ (الانبياء/ ٦٢)

اجابهم عليه السلام: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونْ . (الانبياء/ ٦٣)

ثم قالت الآية: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أى ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم وربّهم وخالقهم الذى يغدق عليهم النعم.

يعتقد بعض المفسرين: أنّ عبارة: «فَرَجَعُوا الَى انْفُسِهِمْ تعنى لوم احدهم الآخر، إلّاأنّ هذا خلاف ظاهر الآية، فالتفسير الأول أصح.

نعم، إنّه الضمير الذى يجعل عبدة الأصنام المغرورين يلومون أنفسهم ويوبّخونها.

إنّ التعبير ب «النَّفْس اللَّوّامَة» فى الآية الشريفة: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

(القيامة/ ٢) خاصة وأنّ اللَّه قرنها بيوم القيامة، إشارة واضحة إلى هذه المحكمة الباطنية والوجدان الفطرى.

والآية الثالثة تشير إلى أمر المشركين، حيث يعرضون عن اتباع آيات اللَّه عندما يُدعون إليها ويصرون على اتباع ما كان عليه آباؤهم، فيقول اللَّه فى هذا المجال: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، وبالرغم من ذلك لم يخضعوا للَّهِ تعالى بل لأصنامهم التى صنعوها بأيديهم لجهلهم: «الْحَمْدُ للَّهِ بَلْ اكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ . (لقمان/ ٢٥)

وجوابهم على هذا السؤال عن خلق السموات والأرض، يمكن أن يكون نابعاً عن «الفطرة»، ويوضّح حقيقة أنّ الأنوار الإلهيّة متأصّلة فى

الإنسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس غافلون عن هذا الحكم الفطرى، فيذهبون عنهُ شططاً.

ج ج

وتشير الآية الرابعة إلى نفس المفاد الذى جاء فى الآية الثالثة، فقد وضّحت التوحيد الفطرى الذى يتجلى فى باطن الإنسان عندما يمرّ بالأزمات والشدائد، ومثال ذلك أنّ الناس

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۵۳

عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الأمواج المتلاطمة والزوابع والعواصف يذكرون اللَّه، لأنّهم لا يجدون أحداً يستطيع انقاذهم آنذاك من الشدائد غير اللَّه.

فعندما تُرفع ستائر التقاليد الخرافية والأوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلى فطرة البحث عن اللَّه، يذكرونه ويدعونه بإخلاص كامل.

وما أن يهدأ البحر أو يصلوا إلى الساحل، حتى تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرّة اخرى وتستعيد الأصنام وجودها فى قلوبهم وتسدل ستاراً على فطرتهم مرّة ثانية؟

ج ج

والآية الخامسة، بعد ما عَدَّتْ التوحيد دين وملة إبراهيم وانبياء عظام آخرين كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام قالت: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .

إنَّ النصارى الذين يعتقدون بالتثليث، ويغسلون أولادهم بغسل التعميد، ويضيفون- احياناً- مادة صفراء إلى الماء الذى يُغسل به، ويقرنون عملهم هذا باسم «الأب» و «الابن» و «روح القدس» يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التى ورثوها من آدم عليه السلام «۱».

إنَّ القرآن أبطل هذه الأفكار جميعها وصرح: إنّ صبغة اللَّه أحسن من هذه الصِبَغ الخرافية، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر أرواحكم من كل شرك وإثم وعبادة للأصنام.

وقد جاء فى الروايات- كما قلنا سابقاً- أنّ المراد من الصبغة هو الإسلام والولاية «۲»، وهذا تأكيد على وجود إلهامات فطرية فى ذات الإنسان.

ج ج

---

(۱). لقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس: أنّ غسل التعميد أحد القواعد المقدّسة التى كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام، وهو من فرائض الكنيسة، ويستعملون فيه الماء ويثلثون عليه، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أنّ الغسل هذا وجب على أولاد المؤمنين (القاموس، ص ۲۵۷- ۲۵۸).

(۲). تفسير الميزان، ج ۱، ص ۳۱۶؛ تفسير الدر المنثور، ج ۱، ص ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۵۴

والآية السادسة والسابعة تحدثنا بعد الإشارة إلى خلق الإنسان عن تعليمه البيان وما لم يعلم.

«الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَم . (العلق/ ۴)

وعلى هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم، وهو معلم الإنسان ما لم يعلم، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً إلى التعاليم الفطرية المودعة فى باطن الإنسان بشكل معلومات ملخصة وأولية، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التى جعلها اللَّه فى الإنسان، والتى تمكنه من اختراع اللغة والخط واكتشاف واقعيات الكون الاخرى.

وعلى المعنى الأول تكون الآيات شاهداً على بحثنا.

ج ج

أمّا الآية الثامنة فى البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: «أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حِنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه .

الجميل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة اللّه فطرية فحسب، بل إنّ الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطرى.

والأمر كذلك بالضرورة، وذلك لتنسيق الموجود بين جهاز «التكوين» وجهاز «التشريع» أى أنّ ما جاء مفصلًا فى عالم التشريع، جاء بصورة مجملة فى عالم التكوين، وعندما يتفق نداء الفطرة مع نداء الأنبياء والشريعة، فإنّ هذا الاتفاق يجعل الإنسان فى طريق الهدى

وسنخوض تفصيلًا فى هذا الموضوع عند بحثنا فى التوحيد الفطرى فى المجلد الثانى إن شاء اللّه.

النتيجة:

طبقاً لما قرأناه، فإنّ القرآن المجيد يعتبر «الفطرة» أو «الوجدان» مصدراً غنياً للمعرفة، وقد دعا الجميع- بتعابير مختلفة- للالتفات إلى هذا المصدر لأهميّته البالغة.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٥٥

توضيحات

١- فروع الفطرة والوجدان

إنَّ المعلومات الفطرية والوجدانية لها فروع مختلفة وأهمّها الفروع الأربعة التالية، والملفت للنظر أنّ كل آية من الآيات التى جاءت فى أوّل البحث أشارت إلى فرعٍ من هذه الفروع، وهى:

١- إدراك الحسن والقبح- أى الأخلاق التى يطلق عليها- احياناً- «الوجدان الأخلاقى»، وتعنى أن الإنسان ومن دون الحاجة إلى استاذ أو معلم يعتبر كثيراً من الصفات حسنةً مثل «الاحسان» و «العدل» و «الشجاعة» و «الايثار» و «العفو» و «الصدق» و «الأمانة» وغير ذلك من الصفات.

وفى مقابل هذه الصفات، صفات قبيحة مثل «الظلم والجور» و «البخل» و «الحسد» و «الضغينة» و «الكذب» و «الخيانة» وأمثالها.

والآية: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تشير إلى هذا النوع من التعاليم الفطرية.

٢- إدراك البديهيات العقلية: التى تعتبر أُسس الاستدلالات النظرية، ولا يمكن اقامة البرهان فى أى موضوع من دون الاستناد اليها.

وتوضيح ذلك: أنّ فى الرياضيات مجموعة من القضايا البديهية تنتهى إليها جميع الاستدلالات الرياضية وهى وجدانية، مثل (الكل أكبر من الجزء)، وإذا تساوى أحد شيئين متساويين مع شىء آخر، تساوى كلٌّ منهما مع ذلك الشىء، أو إذا أنقصنا مقدارين متساويين من شيئين متساويين أو اضفنا ذلك المقدار إلى كلٍّ منهما فالنتيجة تساويهما كذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للاستدلالات العقلية الفلسفية، فلا يمكن الاستدلال من دون الاستناد إلى قضية استحالة اجتماع الضدين أو النقيضين وغير ذلك.

ويستخدم القرآن- احياناً- هذه الاصول المسلّم بها لاثبات قضايا مهمة، كما فى قوله:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ . (الزمر/ ٩)

ويقول فى آية اخرى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ امْ هَلْ تَستَوى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد/ ١٦)

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٥٦

۳- الفطرة المذهبية- أنّ الإنسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاستعانة بمعلم أو استاذ كمسألة معرفة اللَّه والمعاد وقضايا عقائدية اخرى يأتى شرحها فى المجلد الثانى إن شاء اللَّه.

والآية: «فَاذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ تشير إلى هذا القسم من المعرفة الفطرية.

ولهذا السبب نرى الإيمان بمبدأ مقدس موجوداً على مرِّ العصور، كما أنّ لدينا قرائن تثبت تجذّر هذا الإيمان عند الإنسان البدائى كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلّاإذا كان متأصلًا فى فطرة الإنسان.

۴- محكمة الوجدان: توجد فى باطن الإنسان محكمة عجيبة يمكن تسميتها «القيامة الصغرى ، تحاكم الإنسان على أعماله، فتشجعه على الحسنات، وتوبخه على السيئات، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات فى باطننا جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهى نفسها التى نقول عنها تارة: (إنّ ضميرنا راضٍ)، وتارة: (إنّ ضميرنا يؤنبنا) إلى حدٍ حيث يسلب منا النوم، بل قد يؤدّى- احياناً إلى نتائج مأساوية مثل الانتحار والجنون والابتلاء بأمراض نفسية، والآية: «فَرَجَعُوا الَى انْفُسِهِمْ تشير إلى هذا القسم.

۲- هل توجد معرفة فطرية؟

بالرغم من أنّ الجميع يشعرون بشكل عام بوجود هذا المصدر فى ذواتهم، أى يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات، أو بتعبير آخر وجود إدراكات لا تحتاج معلماً أو استاذاً، إلّاأنّ بعضاً من الفلاسفة شكك فى هذا المصدر، وعلى العموم توجد ثلاث نظريات فى هذا المجال:

أ) نظرية الذين يعتقدون أن كل ما لدى الإنسان من معلومات موجود فى باطنه، وما يتعلمه فى الدنيا، يتذكره فى الحقيقة، لا أنّه يتعلمه من جديد! هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه «۱».

---

(۱). يقول افلاطون: إنّ الروح قبل حلولها فى البدن ودخولها فى العالم المجازى كانت فى عالم المعقولات والمجردات و «المُثل»، أى أنّها أدركت الحقائق ونسيتها بمجرّد دخولها فى عالم الكون والفساد، إلّاأنّها لم تنمحِ عنها بالكامل، فالإنسان كالظل والشبح فما هو فى «المُثل» يتذكره بمجرّد الالتفات إليه، فكسب العلم والمعرفة تذكر فى الحقيقة، وإذا كان الإنسان جاهلًا منذ البدء فلا يمكنه تحصيل العلم (مسير الحكمة فى اروبا ج ۱، ص ۲۳- نظريات افلاطون).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۷

ب) نظرية أولئك الذين يدّعون أنّ المعرفة بجميع أقسامها عند الإنسان فطرية، بالرغم من اذعانهم لِقابلية الإنسان على إدراك القضايا المختلفة، ويتصورون أنّ إدراكهُ الفطرى انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية.

اعتبر «فرويد» عالم النفس المعروف «الوجدان الأخلاقى» مجموعة من النواهى الاجتماعية والميول المكبتوتة فى ضمير الإنسان، يقول: إنّ «الوجدان الأخلاقى» لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الإنسان، بل إنّه رؤية باطنية بسيطة للنواهى الاجتماعية، ولا يوجد فى تاريخ المجتمع ولا تاريخ الفرد تصورات بدائية عن حسن الأشياء وقبحها، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها «۱».

وقد فسر أتباع المذهب المادى (الديالكتيك) الإدراكات الفطرية على أساس مقولتهم المعروفة «كل شىء وليد الظروف والاوضاع الاقتصادية»، فانكروا وجودها.

ج) نظرية أولئك الذين يرون أن قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مُكتسب، والمعلومات المكتسبة تنتهى إلى تلك المعلومات الفطرية وهى أساسها.

وقد أثبتت الأدلة المنطقية العقلية، والأدلة النقلية من الآيات والروايات هذه النظرية وذلك للاسباب الآتية:

أولًا: أننا نعتقد بوجود قضايا بديهية مُسَلّمٌ بها فی الرياضيات وبدون تلک البديهيات لا يمکن اثبات أيّة قضية رياضية، کذلک الأمر بالنسبة للقضايا الاستدلالية الاخری، فلابد من اعتمادها علی قضايا بديهية مسلّم بها تکون الأساس لکلِّ استدلال.

وبعبارة اخری: لو أنکرنا القضايا الفطرية بالکامل لأَنکرنا جميع معارفنا، لأنّ جميع القضايا العقلية ستکون مرفوضة، وسنسقط فی النهاية فی وأدّی السفسطة.

---

(١). أفکار فرويد، ص ١٠٥؛ ومجموعة ماذا أعلم- للأمراض اخر الروحية-، ص ۶۴ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٥٨

وإذا أثبتنا- مثلًا- بالحس والتجربة أو بدليل عقلی وجود أمر ما، فإذا کنّا غير واثقين بقضية «استحالة اجتماع النقيضين» التی تعتبر من القضايا البديهية جدّاً، فعندئذٍ يمکننا التشکيک بالأمر، والقول بإمکانية عدم وجود الأمر الذی أثبتنا وجوده!

وإذا أردنا إثبات هذه الاصول البديهية بالتجربة والاستدلال فسينتهی الأمر بنا إلی الدور والتسلسل ولا تخفی سلبيات هذا الأمر علی أحد.

ثانياً: فضلًا عمّا سبق، فکما نعترض علی السفسطائيين (الذين ينکرون کل شیء) وکذا المثاليين (الذين ينکرون الحقائق الخارجية، ويعتقدون بالامور الذهنية فقط) وبالاستناد إلی الوجدان نقول: إنّ الوجدان يشهد ببطلان مثل هذه العقائد، لأننا ندرک أنفسنا والعالم الخارجی الذی يحيط بنا بوضوح، فکذلک الأمر هنا، لأنّ هذه الضرورة الوجدانية دليل علی وجود کثير من الإدراکات الباطنية.

وکما أننا نحس بحاجات جسمية وروحية کثيرة (الحاجات الجسمية مثل الأکل والشرب والنوم، والروحية مثل الميل إلی العلم والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس: (إنّ هذه المقتضيات تشکل الأبعاد الأربعة لروح الإنسان).

فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحسن الاحسان والعدالة وقبح الظلم والاعتداء، وفی هذه الإدراکات لا نحتاج إلی مصدر اجتماعی أو اقتصادی أو غير ذلک بل يکفينا الوجدان.

إنَّ حجة أمثال «فرويد» و «مارکس» واضحة، حيث أنّهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع کل قضية اجتماعية وفکرية إلی الجنس أو الاقتصاد، ويصرون علی توجيه کل شیء علی ضوء هذا الأصل.

ثالثاً: إنّ الموضوع واضح من جهة نظر توحيدية، لأنا إذا سلّمنا أنّ الإنسان خُلِقَ للتکامل علی أساس سنة إلهية، فلا ينبغی الشک فی أنّ وسائل ودوافع مثل هذا التکامل يجب أن تکون مهيئة فی ذاته، وموجودة، وأنّ ما جاء به الأنبياء وما ورد فی الکتب

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٥٩

السماوية متناسب وهيئة الإنسان التکوينية.

وعليه، فحاکم التکوين والخلقة متناسب وفی تناسق کامل مع عالَم التشريع.

أو بتعبير آخر، فإنّ خلاصة هذه التعليمات مودعة فی ذات الإنسان وأنّ ما جاء فی الشرائع السماوية هو شرح مفصل لهذه الخلاصة من التعليمات.

ولهذا، فلا يمکن التشکيک فی التعاليم الفطرية التی يؤيدها العقل والرؤية الکونية التوحيدية.

سؤال:

لقد صرّح القرآن بقوله عز من قائل: «وَاللَّهُ اخْرَجَکُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِکُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَالْابْصَارَ والْافْئِدَةَ». (النحل/ ٧٨)

ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وجود للمعلومات الفطرية أبداً؟

الجواب:

أولًا: إنّ الإنسان فی ساعات ولادته لا يعلم شيئاً قطعاً، وحتى المعلومات الفطرية ليست فعالة، وعندما يعرف نفسه ويصبح مميزاً يتحسس المعلومات النظرية ويدركها بلا معلم أو استاذ أو حسٍ أو تجربة، وإلّا فكيف يمكن القول بأنّ الإنسان يعلم كل شيء حتى بوجوده الذاتی- بالتجربة وأمثالها «١».

ثانياً: ألَمْ نقل بأنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً؟

حيث إنّ آياتٍ مثل: «فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» و «فِطْرَتَ اللَّه الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها»

---

(١). نقلت عبارة معروفة عن (ديكارت) قال فيها: «كنتُ شاكاً حتى فی نفسی، ثم رأيت أنی افكر، فأدركتُ أنی موجود» إنّها عبارة مليئة بالأخطاء، لأنّ الذی يقول: أنا أُفكر فانّه يعترف بال (أنا) قبل اعترافه بالتفكير، لا أنّه يعترف بالتفكير قبل الأنا.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٠

التی جاءت فی أول البحث تفسر الآية: «وَاللَّهُ اخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُم لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً»، فتكون المعلومات الفطرية مستثناة من هذه الآية.

سؤال آخر:

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس السؤال الأول وهو: أنّ القرآن الكريم فی الكثير من الآيات أطلق مفردة «التذكير» على علوم الإنسان، مثل: «إِنَّ فِی ذَلِكَ لَآيةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ». (النحل/ ١٣)

ويقول فی آية اخرى: «وَمَا يَذَّكَّرُ الّا اولُوا الْأَلْبَابِ . (آل عمران/ ٧)

وفی اخرى أيضاً: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلّنَاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (البقرة/ ٢٢١)

ألَمْ يكن المراد من هذه الآيات وهو نفس ما ذهب إليه افلاطون، أی أنّ العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود فی سريرة الإنسان، وحاصل عنده منذ القدم؟

الجواب:

إنّ «التذكير» من مادة «ذكر» ومعناه الأولى- كما يقول أئمة اللغة- هو الحفظ، وكما يقول الراغب فی مفرداته: الذكر قد يطلق على حالة نفسية تُعين الإنسان على حفظ العلوم والمعارف، وقد يقال لحضور الشیء فی القلب، أو البيان، وما جاء فی لسان العرب قريب لما جاء فی المفردات، حيث قال: الذكر، يعنی الحفظ كما يعنی الموضوع الذی جرى على الألسن.

وعلى هذا، فالذكر والتذكر لا يعنی حضور الشیء فی القلب بعد النسيان أو استعادة الذكرى فقط، بل يشمل جميع المعلومات.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦١

٣- «الفطرة» و «الوجدان» فی الروايات الإسلامية

لقد أُشير فی الروايات الإسلامية إلى هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

١- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فی حديث معروف له: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصّرانه» «١».

يدل هذا الحديث بوضوح على أن التوحيد، بل حتى الاصول الأساسية للإسلام مودعة فی فطرة الإنسان «٢».

٢- وقد جاء فی حديث أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب الإمام عليه السلام: «التوحيد» «٣».

٣- وفی حديث آخر أجاب عن نفس السؤال بهذا الجواب: «هی الإسلام» «۴».

۴- وقد قال الإمام عليه السلام فی حديث آخر فی هذا المجال: «فَطَرَهُمْ على المعرفة» «۵».

۵- وقد جاءت روايات عديدة عن الإمام الصادق عليه السلام فسرت الآية: «صِبْغَةَ اللّه وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّه صِبْغَةً» بالاسلام «۶».

۶- وقد جاء فى حديث قدسى: «خلقتُ عبادى حُنَفَاء»، وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث يعنى مؤهلين لقبول الحمد، ثم اعتبر معنى الحديث نفس معنى الحديث المعروف «كل مولود يولد على الفطرة».

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهى: إنّ الروايات الإسلامية عبرت عن الأعمال الحسنة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۱.

(۲) يأتى شرح هذا الحديث مفصلًا فى، المجلد الثانى من هذا التفسير.

(۳) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ۱.

(۴) المصدر السابق، ح ۲.

(۵) المصدر السابق، ح ۴، والروايات التى جاءت فى هذا المجال كثيرة ويمكن الرجوع إلى المصادر التالية: بحار الأنوار، ج ۳ باب ۱۱ من أبواب التوحيد.

(۶) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۰.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۲

بالمعروف وعن الأعمال السيئة والقبيحة بالمنكر وتطلق هذه المفردة على الأمر المجهول، فقد يُثْبِتُ هذا الاطلاق أنّ الأعمال الحسنة سلوكات تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها أمّا الأعمال القبيحة والسيئة فهى ممارسات تتنفر منها الروح، ومجهولة عندها.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۳

۵- الوحى السماوى

تمهيد:

توجد آيات كثيرة فى القرآن الكريم حول الوحى، بل إنّ بحثه طرح فى جميع الكتب السماوية، وفى الحقيقة فأَن أتباع الأديان السماوية يعتبرون «الوحى» أهم مصدرٍ للمعرفة، لأنّه ينهل من العلم الإلهى الواسع، فى حين أنّ المصادر الاخرى تتعلق بالإنسان نفسه، وهى محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر.

إنّ الرؤية الكونية الإلهيّة تقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ (ولأجل هداية البشر (أى بيان الطريق له) أوحى إلى رجال الوحى (أى الرسل العظام) بكل ما يحتاجه الناس فى سبيل اجتياز الطريق إلى التكامل والسعادة.

وفى الحقيقة، إنّ العقل إذا كان سراجاً منيراً قويا فإنّ الفطرة والوجدان والتجربة بمنزلة سراجٍ من نوع آخر، و «الوحى» بمنزلة الشمس الساطعة، الأكبر والأعظم من السراجين المذكورين.

وعلى هذا فيُعدُّ الوحى- من وجهة نظر الإلهيين- أهم وأغنى مصدر للمعرفة.

والآن نقرأ خاشعين الآيات الآتية.

۱- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ الَّا وَحْياً اوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِاذْنِهِ مَا يَشَاءُ انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . (الشورى ۵۱)

۲- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى انْ هُوَ الَّا وَحْىٌ يُوحَى . (النجم/ ۳- ۴)

۳- «قُلْ انَّمَا انَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى الَىَ . (فصلت/ ۶)

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۶۴

٤- «ذَلِكَ مِمَّا اوْحَى الَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ...». (الاسراء/ ٣٩)

٥- «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِاذْنِ اللّهِ ...». (البقرة/ ٩٧)

٦- «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ». (النحل/ ٨٩)

٧- «وَكَذَلِكَ اوْحَيْنَا الَيْكَ رُوحاً مِّنْ امْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى الَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(الشورى ٥٢)

٨- «وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الَّا رِجَالًا نُّوحِى الَيهِمْ . (النحل/ ٤٣)

٩- «لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَانْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...». (الحديد/ ٢٥)

١٠- «انَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر/ ٩)

١١- «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ انْ كُنْتُمْ تَعقِلُونَ . (آل عمران/ ١١٨)

١٢- «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً». (النساء/ ١٦٤)

شرح المفردات:

١- «الوحى» استعمل هذا الاصطلاح فى القرآن والروايات والأدب العربى بمعانٍ كثيرة، إلّا أنّ المعنى الأولى للوحى- كما يقول الراغب فى مفرداته- هو «الإشارة السريعة»، ولذا يقال للأعمال السريعة «وحى»، كما يقال «وحى» للحديث الرمزى المتضمن كتابات، والذى يُتبادل بسرعة، والذى قد يحصل بالكتابة أو الإشارة، ثم اطلقت هذه المفردة على المعارف الإلهيّة التى تقذف فى قلوب الأنبياء والأولياء.

وللوحى أشكال متعددة، فتارة يكون بمشاهدة ملك من الملائكة واستماع حديثه، كما هو الحال بالنسبة لجبرئيل عليه السلام حيث كان اللَّه يُوحى إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بواسطته.

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته كما كان يوحى إلى موسى عليه السلام.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٦٥

وتارة يُوحى بالألقاء بالقلب فقط.

وتارة يوحى اللَّه بالالهام فقط كما هو الحال بالنسبة لأُم موسى عليه السلام.

وتارة بالمنام (كالرؤيا الصادقة) «١».

ذكر الخليل بن أحمد فى كتاب العين: إنّ أصل معنى «الوحى» هو «الكتابة»، وقال ابن منظور فى لسان العرب: إنّ الوحى يعنى «الإشارة» و «الكتابة» و «والرسالة» و «الالهام» و «والحديث الخفى» و «كل خطاب يُلقى على شخص آخر».

ومن مجموع ما تقدم نستشف أنّ «الوحى» فى الأصل يعنى الإشارة السريعة والحديث الرمزى والخطاب الخفى المتبادل بالرسائل أو الإشارات، وبما أنّ التعاليم الإلهيّة أوحيت إلى الأنبياء بشكل غامض، أطلقت مفردة «الوحى» عليها، لأنّ الألفاظ التى نستعملها وضعت لمستلزمات حياتنا اليومية، فإذا أردنا أن نستعملها فى الامور الخارجة عن مستلزمات حياتنا اليومية، فينبغى توسيع معانيها، أو تجريدها أو استعمالها فى مناسبات خاصة.

يقول الشيخ المفيد قدس سره فى «شرح الاعتقادات»: إنّ أصل الوحى يعنى الكلام الخفى، وقد أطلق على كل شىء القصد منه تفهيم المخاطب بشكل يخفى عن الآخرين، وإذا نسب الوحى إلى اللَّه عزّ وجلّ فالمراد به التعاليم والأوامر الإلهيّة التى يُخاطب بها الأنبياء والرسل «٢».

٢- أمّا «الانزال» و «التنزيل» فاشتقتا من مادة «نزول» وتعنى- فى الأصل- الهبوط والمجىء من المكان العالى إلى المكان الدانى، وفرقهما عن النزول أنّهما مصدران لفعلين متعديين فى حين أنّ النزول مصدر لفعل لازم.

وقد يكتسب الانزال معنىً حسياً مثل ما جاء فى هذه الآية: «وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً». (الفرقان/ ٤٨)

(١). مفردات الراغب مادة (وحى).

(٢). سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٣٨.

وقد يكون بمعنى موهبة تُوهب من صاحب مقام عالٍ إلى صاحب مقام دان: «انْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ ازْوَاجٍ . (الزمر/ ٦)

وقد يكون الانزال بمعنى إلقاء المعارف الإلهيّة من قِبَلِ اللَّه، وقد استعمل هذا المعنى فى القرآن كثيراً، وهناك بحث لأئمة اللغة فى كون الانزال والتنزيل بمعنى واحد، أو أنّ لكلٍ معنى يختص به، فبعض يقول: إنّه لا اختلاف فى المعنى بينهما غير أنّ التنزيل يفيد الكثرة فقط «١»، بينما يعتقد بعض آخر: أنّ «التنزيل» يفيد التدريج، و «الانزال» يفيد التدريج والدفعى، واعتمد الراغب فى تفريقه هذا على الآية:

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَولَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاذَا انْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ الَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيهِ مِنَ الْمَوتِ . (محمد/ ٢٠)

فالآية تحدثت أولًا عن طلب المؤمنين لنزول آيات الجهاد تدريجياً، ثم أشارت إلى نزول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة، وعندها ينظر المنافقون إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت.

٣- إنّ «تبيين» اشتقت من مادة «بَيْن» أى المسافة الفاصلة بين الشيئين، ثم جاءت بمعنى «الايضاح» و «الفراق»، وذلك لأنّ الفصل بين الشيئين يستدعى هذين الأمرين، ثم استعملت بعد ذلك لكلٍ من المعنيين بصورة مستقلة، فتارة تعنى «الفراق» واخرى «الايضاح».

وقد جاء فى «صحاح اللغة» أن «بين» تأتى بمعنيين متضادين هما، الفراق والآخر الاتصال، ويظهر أنّ معناهما فى الأصل- كما جاء فى غير صحاح اللغة- هو الفراق، إلّاأنّ الفراق قد يؤدّى إلى الاتصال بشيء آخر فاستعمالها فى الاتصال لأنّه يلازم الفراق.

وعلى أيّة حال فإنّ مفردة (تبيين) جاءت فى كثير من آيات القرآن بمعنى الظهور والانكشاف والوضوح، ولهذا يقال للدليل الواضح والمنكشف «بيّنة» سواء كان عقلياً أو محسوساً، فيطلق «البينه» على الشاهدين العادلين (اللذين يعتبران بينة محسوسة)، كما

(١). وهذا رأى صاحب لسان العرب، حيث نقله عن ابى الحسن.

تطلق «البينة» على معاجز الأنبياء، و «البيان» يعنى رفع ستار الأبهام عن شيءٍ، سواء كان بالنطق أو بالكتابة أو بالإشارة.

٤- «التكليم» و «تَكَلُّم» من مادة «كلم»، وفى الأصل- كما يقول الراغب- يعنى التأثير الذى يُرى أو يُسمع، فالذى يُرى كجُرح الآخرين، والذى يُسمع فهو الحديث الذى نسمعه من الآخرين.

يذكر الخليل بن أحمد فى كتابه «العين»: أن أصل التكليم يعنى «الجرح»، وعلى هذا فاطلاقه على النطق كان بسبب التأثير العميق الذى يتركه الحديث فى قلوب المستمعين له، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والخنجر، وكما يقول الشاعر العربى المعروف:

جراحات السنان لها التئامٌولا يلتامُ ما جرح اللسانُ

ويستفاد من بعض العبارات أنّ «التكليم» و «التكلم» لهما معنى واحد، وكلاهما بمعنى النطق والحديث، ولهذا عدت «متكلِّم» احدى صفات اللَّه، فى حين إذا أردنا التقيد بالآية:

«وَكَلَّمَ اللَّه مُوسى تَكْلِيما» ينبغى القول أن اللَّه «مُكلِّم».

ولا يستبعد احتمال استعمال مفردة «التكلّم» فى موارد حيث يحدّث شخصٌ شخصاً آخرَ، إلّاأن «التكليم» مثل «المكالمة» تطلق على الحديث المتبادل بين طرفين، وكلام اللَّه مع موسى عليه السلام فى جبل طور من هذا القبيل.

ومن هنا يطلق «علم الكلام» على علم العقائد، لأنّه يذكر أنّ أول بحث بُحث فيه بعد الإسلام هو كلام اللَّه (القرآن)، حيث كان البعض يعتقد أنّه أزلى، والبعض الآخر: أنّه حادث.

وقد أدّى الخلاف فى هذه المسألة فى القرون الاولى من عهد الإسلام إلى شجار ونزاعات شديدة، حدثت بين المسلمين آنذاك «١».

ونعلم الآن أنّ ذلك النزاع لم يكن له أساس ولا نتيجة، لأنّه إذا اريد من القرآن محتواه،

---

(١). ذكر هذا الاحتمال فى دائرة معارف القرن العشرين كأول احتمال فى مجال التسمية هذه، دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدى، ج ٨ مادة (كلم).

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٦٨

فالمسلم أنّه كان مع علم اللَّه أزلياً، وإذا كان المراد منه ألفاظه وكتابته ونزوله بواسطة الوحى، فهذا حادث فى زمن بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بلا شك، وعلى أية حال، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية «علم العقائد» ب «علم الكلام».

شرح الآيات وتفسيرها

الوحى شمس مشرقة:

لقد انعكس صدى الوحى فى القرآن الكريم بشكل واسع.

حيث أشارت مئات الآيات إلى الوحى كمصدرٍ عظيم للعلم والمعرفة، وأشارت بعضها إليه بهذا العنوان «الوحى» وبعضها ب «التنزيل» و «الانزال» وبعضها ب «تبيين الآيات الإلهيّة» وبعضها ب «تكليم اللَّه للرسل»، وبمصطلحات اخرى.

وأفضل تعبير يُذكر فى هذا المجال أن يقال: إذا كان العقل فى المنظار القرآنى بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مبيناً للحقائق، فإنّ الوحى «كالشمس» الساطعة التى تضىء أرجاء المعمورة».

اشير فى الآية الاولى إلى ثلاثة طرق من طرق اتصال الأنبياء باللَّه عزّ وجلّ، حيث قالت:

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ الَّا وَحْياً اوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ او يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشاءُ انَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ فالطريق الأول هو الايحاء، والثانى هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم اللَّه مع موسى فى جبل طور سيناء، والطريق الثالث هو إرسال رسول لابلاغ الخطاب الإلهى إلى النبى، كما كان يهبط جبرئيل عليه السلام على النبى صلى الله عليه و آله لإبلاغه الخطابات الإلهيّة.

وعلى هذا، فالالهام القلبى وايجاد الأمواج الصوتية وهبوط ملك مكلف بنقل الوحى، ثلاثة طرق لاتصال الأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة.

والآية الثانية بعد أن أقسمت بالنجم قالت: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى انْ هُوَ الَّا وَحىٌ يُوحَى .

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٦٩

إنّ القسم (بالنجم إذا هوى يعنى النجم فى حالة الأفول قد يكون إشارة إلى غروب وافول نور الإيمان والهداية عن الوجود فى عصر الجاهلية، الغروب الذى كان مقدمة لطلوع آخر، أى طلوع شمس الوحى على لسان الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله.

وعلى هذا الأساس، فالآية أدرجت كلام الرسول صلى الله عليه و آله تحت أصلٍ كلىٍّ ناتج عن الوحى والإرتباط الغيبى.

ج ج

والآیة الثالثة أمرت الرسول بأن یتخذ موقفاً تجاه طلبات بعض المشرکین العجیبة وغیر المألوفة، ویقول لهم: إنی لستُ ملکاً من ملائکة اللَّه ولا موجوداً أعلی من البشر ولا ابن اللَّه، ولا شریکه، «إنّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُم یُوحَی إِلَیَ وهذا (الإیحاء) هو الذی یمثل الاختلاف بینی وبینکم.

وعلی هذا، فالرسول یمتاز عن بقیة البشر بمیزة خاصة وهی اختصاصه بمصدر المعرفة هذا وهو (الوحی).

ج ج

والآیة الرابعة، بعد ما ذکرت ستة من أحکام الإسلام المهمّة (حرمة قتل الأولاد وحرمة الزنی وقتل النفس والتصرف فی مال الیتیم ووجوب الوفاء بالعهد وایفاء الکیل) خاطبت الرسول صلی الله علیه و آله قائلة: «ذَلِکَ مِمَّا اوْحی الَیکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ».

وطبقاً لهذه الآیة، فإنّ الأحکام الجزئیة شأنها شأن اصول الدین والعقیدة توحی إلی الرسول صلی الله علیه و آله.

ج ج

والآیة الخامسة نزلت لتجیب علی أولئک الیهود الذین قالوا: إنّ جبرئیل عدونا عندما سمعوا أنّه یأتی الرسول بتعالیم الإسلام، حیث أمرته بأن یقول لهم: «قُلْ مَنْ کَانَ عَدُوّاً

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۰

لِّجِبْرِیلَ فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلَی قَلْبِکَ بِإذْنِ اللّهِ .

والتعبیر فی هذه الآیة یکشف عن أن جبرئیل علیه السلام کان یُنزل- أحیاناً- آیات القرآن علی قلب الرسول مباشرة فی حین أنّ بعض الروایات تشیر إلی أنّ جبرئیل کان یأتی للرسول صلی الله علیه و آله علی هیئة إنسان أحیاناً ویقوم بابلاغه الخطاب الإلهی بهذا الطریق «۱».

ج ج

والآیة السادسة وضحت الحقیقة الآتیة: إنّ القرآن الذی أنزلناه علی الرسول فیه تبیانٌ لکلِّ شیء وحاملًا للهدایة والرحمة والبشارة إلی جمیع المسلمین، وعلیه فإنّ جمیع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظیم أی الوحی.

بدیهی أنّ المراد من «کل شیء» هو جمیع القضایا التی تتعلق بسعادة الإنسان، فتعلم أنّ اسس جمیع هذه القضایا قد جاءت فی القرآن (سواء المادیة منها أو المعنویة) فی صورة قوانین کلیة.

ج ج

وقد صرحت الآیة السابعة بأنّ القرآن روح نزلت علی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله من قِبَل اللَّه عزّ وجلّ، ولم یکن یدری ما الکتاب ولم یکن یدری ما الإیمان، وقد قیل للقرآن «روح» لأنّه یبعث الحیاة فی قلوب المجتمع البشری، وهذا حدیثٌ یذهب إلیه کثیر من المفسرین «۲».

والمراد ب: «ما کنت تدری ما الکتاب» هو أنّ الرسول لم یکن عارفاً بمحتوی الآیات قبل البعثة، وهناک شواهد تاریخیة وروائیة تکشف عن سبق معرفته باللَّه قبل البعثة.

---

(۱). أصرَّ الفخر الرازی علی تأویل الآیة بما یتناسب مع ما ذهبت إلیه الروایات من أن جبرئیل علیه السلام کان یتمثل امام الرسول صلی الله علیه و آله فی صورة إنسان، وبما أن القلب هو مرکز حفظ الآیات عبر اللَّه بهذا التعبیر «فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلَی قَلْبِکَ» (تفسیر الکبیر، ج ۳، ص ۱۹۶)، لکننا لا نری ضرورة لتأویل الآیة بالشکل الذی قاله الفخر الرازی، بل یمکن القول بأن اتصال جبرئیل علیه السلام بالرسول کان یتم بطریقین: جسمانی وروحی.

(۲). یقول الراغب: «سمی روحاً لکون القرآن سبباً للحیاة الاخرویة».

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧١

وعلى أيّة حال إنّ هذا تأكيد آخر على قبول «الوحى» كأهم مصدر للمعرفة، لأنّ القرآن عُدَّ هنا «روحاً» و «نوراً» و «هداية».

والآية الثامنة بعد ما تجاوزت نبوة الرسول صلى الله عليه و آله أشارت إلى الأنبياء من قبله وقالت:

«وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الَّا رِجَالًا نُّوحِى الَيهِمْ فَاسْئَلُوا اهْلَ الذِّكْرِ» فهم على ارتباط وعلم بمنبع المعرفة هذا.

ج ج

وتحدثت الآية التاسعة عن «البينات» ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق والعدالة على الرسل، وقالت: إنّا أنزلنا الرسل وزودناهم بمعاجز من جهة، وبكتب وقوانين حقة من جهة اخرى لكى يقوم الناس بالقسط والعدول عن الظلم، وهذه كلها امور ملهمة من مصدر الوحى.

ج ج

وقد تحدثت الآية العاشرة عن انزال «الذكر» أى الآيات التى تكون سبباً لتذكر الناس ووعيهم، فى الوقت نفسه فإنّ اللَّه يعد الناس فى هذه الآية بحفظ هذا القرآن من أى نقص أوزيادة أو تلف أو تحريف، فالوحى- إذن- هو عامل يقظة الناس، وبما أنّ اللَّه له حافظ، فسيحفظه كمصدر مهم للمعرفة.

ج ج

وتقول الآية الحادية عشرة: «قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ انْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ وهذا دليل واضح على أنّ الآيات الإلهيّة سبب ليقظة العقول ونشاطها.

ج ج

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧٢

وأخيراً، فقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم اللَّه لموسى عليه السلام، وقد كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الإلهيّة، وهو نوع من الوحى.

هذه نماذج من آيات القرآن التى صرحت- رافعةً لأىابهام وشبهة- بأنّ الوحى مصدر وأساس للمعرفة.

هذا فى وقت ينكر فيه الفلاسفة الماديون هذا المصدر على الاطلاق، ويفسرونه بتفاسير نقرأُها فى البحوث القادمة.

وبعدما اتّضح أصل هذا المصدر، نذهب إلى بحث قضايا مختلفة تحوم حوله.

ج ج

توضيحات

١- أقسام «الوحى» فى القرآن المجيد

من خلال ملاحظتنا لآيات القرآن فقد استعملت مفردة «الوحى» فى القرآن المجيد فى عدة معانٍ، بعضها تكوينية واخرى تشريعية، وبصورة عامه فانّها مستعملة فى سبعة معان:

١- «الوحى التشريعى» وهو الذى يهبط على الرسل، وقد جاءت فى أول البحث نماذج من الآيات التى استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى

٢- «الالهامات التى توحى لغير الأنبياء» كما هو الأمر بالنسبة لأم موسى «وَاوْحَيْنَا الَى امِّ مُوسَى انْ أَرْضِعِيهِ ...». (القصص/ ٧)

وهناك إلهام يماثل هذا إلّاأنّه يختلف عنه شكلياً، كالذى حدث لمريم، حيث تمثل لها الوحى وبشرها بولادة عيسى (مريم/ ١٧- ١٩).

٣- «وحى الملائكة» أى الخطابات الإلهيّة التى توجه إليهم، كما جاء ذلك فى قصة غزوة بدر الكبرى فى سورة الأنفال الآية ١٢: «اذْ

يُوحِى رَبُّكَ الَى الْمَلَآئِكَةِ أَنِّى مَعَكَمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا».

۴- «الخطاب مع الإشارة» كما جاء ذلك فى قصة حديث زكريا مع قومه: «فَخَرَجَ عَلَى

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧٣

قَوْمِهِ مِنَ الِمحْرَابِ فَأَوْحَى الَيْهِم انْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً». (مريم/ ١١)

۵- (الالقاءات الشيطانية الغامضة» كما جاء فى الآية: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعضُهُمْ الَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ١١٢)

۶- «تقدير القوانين الإلهيّة فى عالم التكوين» كما فى الآية: «وَاوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ امْرَهَا». (فصلت/ ١٢)

وما جاء فى شهادة الأرض يوم القيامة: «يَومَئِذٍ تُحَدِّثُ اخْبَارَهَا* بِانَّ رَبَّكَ اوْحَى لَهَا».

(الزَّلْزَلَةِ/ ۴- ۵)

قد يكون تلميحاً لهذا المعنى من الوحى.

وقد جاءت مفردة الوحى بمعنى «خلق الغرائز» كما فى الآية: «وَاوْحَى رَبُّكَ الَى النَّحلِ انِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . (النحل/ ۶٨)

ومن جهة اخرى فإنّ هبوط الوحى على الرسل جاء على أربع صورٍ على الأقل، كما جاء ذلك فى القرآن المجيد، وهى:

١- صورة ملك يشاهده الرسول.

٢- وسماع صوت الوحى دون رؤيته.

٣- وفى صورة إلهام قلبى.

۴- وفى صورة رؤيا صادقة، كما جاء ذلك فى قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره اللَّه أن يذبح ابنه إسماعيل (الصافات/ ١٠٢)، أو ما حصل للرسول صلى الله عليه و آله عندما بشره اللَّه- بالرؤيا- بدخول المسلمين الكعبة آمنين (الفتح/ ٢٧).

وقد جاء فى رواية أنّ أحد الصحابة سأل الرسول صلى الله عليه و آله: كيف ينزل عليك الوحى؟

فأجابه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «يأتينى أحياناً مثل صلصلة الجَرس، وهو أشدُّهُ علىّ، فيفصم عنى وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلًا فيكلمنى فأعى ما يقول» «١».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات:

---

(١). بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢۶٠.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧۴

فنبىّ متبأ فى نفسه لا يعدو غيرها، ونبى يرى فى النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه فى اليقظة، ولم تبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام ونبىٌّ يرى فى منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا كيونس عليه السلام ...

والذى يرى فى نومه ويسمع الصوت ويعاين فى اليقظة وهو إمام مثل اولى العزم وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال اللَّه «انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى» فَقَالَ اللَّهُ: «لَايُنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً» «١». (البقرة/ ١٢۴)

٢- ما هى حقيقة الوحى؟

لقـد قرأنا وسـمعنا الكثير عن حقيقـة الوحى، لكن رغم ذلك كله، فإنّ معرفتنا لحقيقته غير ممكنـة، لعـدم ارتباطنا بهذا العالم الغامض، وحتى لو فسّره لنا الرسول بنفسه، فانّه لا ينطبع شىء فى أذهاننا عنه سوى شبح.

ومثـل ذلك كمثل شـخص بصـير يريـد أن يصف أشـعة الشـمس الجميلـة، وأمواج البحر الهائجـة وأجنحـة الطاووس الملوّنـة والمنظر الخلّاب للورد وبراعم الحديقة الخضراء.

لشخص ولد أعمى وقد تحصل صور مبهمة ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى إلّاأنّ إدراك صورها الحقيقية فهو أمر مستحيل.

لكننـا نسـتطيع توضـيح الوحى عن طريق آثـاره وأهـدافه ونتـائجه، ونقول: إنّ الوحى هو الالقاء الإلهى الـذى يتمّ بهـدف تحقيق النبوة والتبشـير والانـذار، أو نقول: إنّه نور يهـدى به اللَّه من يشـاء، أو نقول: إنّه وسـيلة الإرتبـاط بعـالم الغيب وإدراك معارف ذلك العالم، ولهذا السبب نرى القرآن يتحدث عن آثار الوحى لاعن حقيقته.

و ينبغى أن لا نعجب من هـذا الأمر، وأن لا نتخذ عدم إدراك حقيقة الوحى دليلًا على عدم الوجود، أو نفسره بتفاسير مادية جسمية، فإنّ فى عالم الحيوانات التى نعدها فى مستوى

(١). اصول الكافى ج ١، باب طبقات الأنبياء.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧٥

أدنى من مسـتوانا فضـلًا عن عـالم النبوّة، تُشاهـد آثـار أحاسيس وإدراكات يعجز البشـر عن إدراكها، فبعض الحيوانات تضـطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية أحياناً، وتارة تحدث أصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفجع، هذا كله بسبب تحلّيها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع الزلزلة، الأمر الذى تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا فى العصر الحاضر.

أو أنّ بعض الحيوانات تتنبأ بتغييرات الأحوال الجويـة للأشـهر القادمـة، فتبنى بيوتها وفقاً لتلك الأحوال فى الأشـهر المقبلة عليها، وتعد الطعام الذى يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء، فإذا كان طويلًا- مثلًا- يختلف مقداره عمّا لو كان قصيراً!

كما أنّ بعض الطيور قادرة على الهجرة الجماعيـة من المناطق القطبيـة إلى الاسـتوائية أو بالعكس، وقـد يتمّ ذلك فى الليل وفى سـماءٍ ملبدة بالغيوم، مع أنّ الإنسان لا يمكنه السير فى هذا الطريق وينجح باجتياز واحد بالمائة منه، إلّابالاستعانة بالوسائل الدقيقة، وكذا الأمر بالنسبـة لبعض الحيوانات حيث تطلب صـيدها فى ظلام الليل الـدامس، وأحياناً تحت أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلـة التى يصـعب على الإنسان تصديقها، إلّاأنّ العلم أثبت صحتها.

إنّ هـذه الواقعيـات التى تثبت بالعلم والتجربـة تكشف عن وجود إدراك وشـعور خاص لتلك الحيوانات لا يوجـد مثله عنـد الإنسان، بالطبع إنّ الاطلاع الكامل على عالم حواس الحيوانات الغامض أمر محال، إلّاأنّه لا يمكن إنكار هذه الحقائق «١».

فبالرغم من أنّ حواس الحيوانات لها ابعاد ماديـة وطبيعيـة وهـذا أمر طبيعى ولا يمثل جانباً غيبياً، إلّاأننا لا نعرف حقيقـة هـذه الحواس، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحى الغامض أو نشكك فيه بسبب عدم إدراكنا له؟

لم نقصـد من حديثنا هذا الاسـتدلال على ثبوت مسألة الوحى، بل أردنا أن نرد على الذين ينكرون وجوده بسـبب عدم إمكان إدراك حقيقته.

ولنا طرق واضحة لإثبات قضية الوحى منها:

(١). يراجع كتاب عالم حواس الحيوانات الغريب (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٧٦

١- نشاهـد من جهـة رجالًا يـدعون النبوة جاءوا بكتب وتعاليم تفوق قـدرة البشـر الفكريـة، فالرسول الامى- مثلًا- كيف أمكنه الاتيان

بكتاب ذى محتوى مجيد بالرغم من كونه قد نشأ وترعرع فى مجتمع الحجاز المتأخر للغاية فى عصر الجاهلية؟!

۲- ومن جهة اخرى فإنّ دعوة الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة البشر، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة.

۳- ومن جهة ثالثة، فإنّ الرواية الكونية التوحيدية تقول لنا: إنّ اللَّه خلقنا للتكامل والسير نحو ذاته المقدّسة الأبدية، وبديهى أن سلوك هـذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وأخطاره لأننا نشاهد عجز العقل وضـعفه عن إدراك كثير من الحقـائق، والـدليل على ذلـك، الاختلافات الكثيرة بين العلماء والمفكرين، وكـذلك مصـير الأمم التى وضـعت قوانينها بالاعتماد على العقل والقوانين الوضعية وذلك لإدارة شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية.

وعلى هذا، فإنا نقطع بأن اللَّه لم يترك الإنسان لوحده، فبالإضافة إلى عقله أمده بقادة يرتبطون بعالم الغيب، ويستفيضون من بحر العلم الإلهى، وهذا هو الذى يعينه لاجتياز الطريق والوصول إلى الأهداف المقصودة.

وبهـذه القرائن الثلاـث يمكننا إدراك العلاقـة بين عالم الإنسانيـة وعالم ما وراء الطبيعـة، وكـذلك الإيمان بالوحى رغم أننا لم نتعرف على حقيقته وماهيته، وبتعبير آخر: إن علمنا بالوحى علم إجمالى وليس علماً تفصيلياً.

۳- الوحى عند فلاسفة الشرق والغرب

سعى كثير من فلاسـفة الشرق والغرب فى العهد القديم والجديد إلى فتح الطريق أمامهم نحو أسرار عالم الوحى وسعوا إلى تفسيره بما يتناسب مع مبانيهم الفلسفية، إلّاأنّ دراسة بحوثهم فى هذا المجال تكشف عن ضياعهم فى متاهات الطريق، إلّاالبعض منهم، ولم

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۷

ينجلِ لذلك البعض إلّاشبح عن ذلك العالم.

يقول أحد العلماء:

كان الفلاسـفة الغربيون- إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم الأخرى- يؤمنون بالوحى، وذلك لأنّ كتبهم كانت حافلة بالاخبار عن الأنبياء، وعنـدما ازدهرت العلوم الجديدة «الطبيعية والتجريبية» واخذت تفسـر كل القضايا على اسـس مادية، تراجع فلاسـفة الغرب عن آرائهم وأخـذوا ينكرون الوحى، وتجـاوزوا إلى أبعـد من ذلـك بـأن اعتبروا الوحى مجموعـة من الأسـاطير والخرافـات التى عفا عليها الدهر، وتبعاً لذلك فقد أنكروا وجود اللَّه وعالم ماوراء الطبيعة والروح، وامتد بهم الأمر إلى أن يفسروا الوحى بمجموعة من التخيلات أو الأمراض العصبية.

واسـتمر هـذا التوجه حتى أواسط القرن التاسع عشـر إلى أن تمّ اكتشاف عالم الأرواح بالطرق العلميـة والتجريبية، وأصـبح عالم ماوراء الطبيعة فى قائمة القضايا التجريبية، وقد كتبت حول ذلك المئات بل الآلاف من المقالات.

ومن هنا أخذت مسألة الوحى طابعاً جديداً لدى هؤلاء وخطوا خطوات جديدة فى هذا المضـمار، على الرغم من أنّهم لم يفسـروا هذه الظـاهرة كمـا فسـرتها الأديان الاخرى وبالأخص المسـلمون من السائرين على خطى القرآن المجيـد، وبشـكل عام فإنّ هناك نظريتين مختلفتين لدى مجموعة من الفلاسـفة القدماء والمتأخرين لتفسـير ظاهرة الوحى، ولكن الفريقين لم يصـلا إلى حقيقة الوحى حسب ما ورد فى القرآن الكريم، والنظريتان هما:

۱- يعتقد عدد من الفلاسـفة المتقدمين أن منشأ الوحى هو «العقل الفعّال»، والعقل الفعّال وجود روحى مستقل عن وجودنا، وهو قرينة، ومصـدر لجميع علوم البشـر ومعارفه، كما يعتقدون بأنّ الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال، وكانوا يسـتلهمون منه، وما حقيقة الوحى إلّاهذه العلاقة.

وفى الحقيقة، لا دليل لهؤلاء لاثبات مدعاهم القائل بأنّ الوحى هو عبارة عن الإرتباط والعلاقة مع العقل الفعّال، إضافة إلى هذا، فإنّه لا دليل على وجود ما يزعمون وجوده أى

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۸

«العقل الفعّال» كمصدر مستقل للعلوم، كما ذكر ذلك في المباحث الفلسفية.

وعلى هذا، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبنى على احتمال، وفرضية مستندة إلى فرضية، ولم تثبت أى من الفرضيتين، كما أنّه لا حاجة لفرض «العقل الفعّال» بل يكفينا القول بأنّ الوحى عبارة عن اتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة، أمّا كيف وبأى شكل يتم ذلك؟ فهذا لم يتضح لنا.

نحن شاهدنا آثاره فآمنا بوجوده، دون أن نعرف حقيقته، وكثير من حقائق هذا العالم حالها كحال الوحى.

۲- يعتقد عدد من الفلاسفة المعاصرين أنّ «الوحى» هو تجلٍ «علم اللاشعور» أو العلاقة الغامضة مع حقائق هذا العالم التى قد تنشأ من «النبوغ الباطنى» تارة، وتارة اخرى من «الرياضة الروحية» وعن مساعٍ من هذا النوع، وقد عَدَّ علماء النفس شخصيتين للإنسان:

«الشخصية الظاهرة والإرادية» وهى جهاز الإدراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية، والشخصية الاخرى هى «الشخصية غير المرئية واللا إرادية» التى قد يعبر عنها ب «الوجدان الخفى» أو «الضمير الباطنى» أو «علم اللاشعور» ويعتبر علماء النفس أنّ حلَّ كثيرٍ من المشاكل الروحية كامن فى هذه الشخصية.

إنّهم يعتقدون أن مجالات فاعلية ونشاط الشخصية الثانية اوسع بكثير من مجالات نَشاط وفاعلية الاولى

وقد كتب أحد علماء النفس فى هذا المجال:

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة ثلج عائمة فى الماء، وعادة ما يكون تُسْعُها خارج الماء، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور، ويقابلها الشخصية اللاإرادية إلى عالم اللاشعور، حيث إنّ القسم الأعظم من النشاط الذهنى لم نُحط به علماً ويحصل بشكل غير إرادى، وهو بمثابة الأجزاء الثمانية من قطعة الثلج تحت الماء «۱».

لا شأن لنا فيمن كشف الشخصية الثانية للإنسان، «فرويد» أم غيره، كما لا شأن لنا فى أنّ

(۱). معرفة النفس ترجمة (الدكتور ساعدى)، ص ۶ و ۷ مع إيضاح بسيط (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۹

كلام المتقدمين فيه إشارة إلى ما ذهب إليه المعاصرون أم لا، المهم بالنسبة لنا هو أنّ كثيراً من علماء النفس، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المعضلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف، سعى لتبرير ظاهرة الوحى بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف، حيث ادعوا أنّ الوحى هو ترشحات عالم اللاشعور التى تظهر عند الأنبياء على شكل طفرات فكرية بالصدفة.

وقد ساعد الأنبياء فى ذلك أحياناً- أمران: الأول النبوغ الفكرى، والثانى هو الترويض والتفكير المستمر.

وطبقاً لهذه الفرضية، فإنّ علاقة «الوحى» بعالم ما وراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومغايرة للعلاقات الفكرية والعقلية لبقية أفراد البشر، وأنّ هذا لا يتم عن طريق وجودٍ روحى مستقل باسم «الوحى»، بل هو انعكاس لضمير الأنبياء الخفى، وهذه الفرضية كالسابقة القائلة بأنّ الوحى هو الاتصال بالعقل الفعال، تفتقد الدليل، وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس إثبات حقيقة الوحى، بل مرادهم إنّ ظاهرة الوحى لا تتنافى مع العلوم الحديثة، ويمكن تجلّى عالم اللاشعور لدى الأنبياء.

وبتعبير أوضح، فإنّ العلماء يصرون على تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً للقوانين الطبيعية والاصول العلمية التى اكتشفوها، ولهذا فإنّهم بمجرّد مشاهدتهم لظاهرة جديدة، يسعون إلى تحليلها فى إطار العلم الحديث، وإذا افتقدوا الدليل فى هذا المجال اكتفوا بالفرضيات.

لكن تلقى ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً، وهذا هو خطأ العلماء الطبيعيين، مفهوم كلامهم هذا هو: إننا فهمنا الاصول والقوانين الاساسية للعالم، ولا توجد ظاهرة خارجة عن اطُر هذه القوانين والاصول.

وهذا ادّعاء محض ولا دليل له، بل لنا دليل على العكس، حيث نشاهد بمرور الزمن اكتشاف اصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم،

ولدينا قرائن تثبت أنّ نسبة ما نعلمه عن هذا العالم إلى ما لا نعلمه كنسبة القطرة إلى البحر.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٠

لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة، بل وحتى عن معرفة أسرار وجودنا، لذا لا يمكننا سوى ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط.

فلماذا- إذن- هذا الاصرار كله على تبرير ظاهرة الوحى فى اطُر القوانين العلمية المكتشفة، بل ينبغى القول: إنّ الوحى حقيقةٌ شاهدنا آثارها ولم نطلع على ذاتها وحقيقتها.

۴- فرضية كون الوحى غريزة

طرح بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية اخرى فى مجال الوحى تختلف فى الظاهر عن الفرضيتين السابقتين إلّاأنّها تتفق معهما جوهرياً.

وقد بُنيت هذه الفرضية على الاصول الآتية:

١- إنّ «الوحى» لغة يعنى النجوى بهدوء، واستعملت فى القرآن بمفاهيم عدة تشمل أنواع الهدايات الغامضة، بدءً بهداية الجمادات والنباتات وانتهاءً بهداية الإنسان عن طريق الوحى.

٢- إنّ الوحى نوع من أنواع الغريزة، وهداية الوحى ليس إلّاهداية غريزية.

٣- إنّ الوحى هداية الإنسان من وجهة نظر جماعية، أى أنّ المجتمع الإنسانى بما هو كتلة واحدة، له مسير وقوانين وحركة، فيحتاج للهداية، ودور «النبى» فى هذا المجال كدور الجهاز المتسلِم الذى يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزى.

۴- إنّ الأحياء تهتدى فى مراحلها الاولى بواسطة الغريزة، وكلما تكاملت ونما حس التصور والفكر عندها، كلما نقصت قدرة الغريزة فيها، وفى الحقيقة فإنّ الحس والتفكير يستخلفان الغريزة، وعلى هذا الأساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوى والإنسان أقل غرائزاً بالقياس إلى الحيوانات الاخرى.

۵- إنّ المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً فى طريق التكامل وتتّجه نحوه، فكما أنّ الحيوانات فى مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند إلى الهداية

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨١

الغريزية بالكامل، ثم اعتمدت تدريجياً على حواسها وتخيلها وأحياناً تفكيرها، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً، استخلفت الغريزة، كذلك المجتمع البشرى، فبنموه وتكامل عقله ضعفت غريزة الوحى عنده.

۶- إنّ للعالم البشرى عهدين، عهد هداية الوحى، وعهد هداية التعقل والتفكير فى طبيعة التاريخ.

٧- إنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الذى ختمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث، فانّه من حيث مصدر الالهام الذى كان يستفيض منه (لا- مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم، ومن حيث روح تعاليمه التى تدعو إلى التفكر والتعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التى ينتهى عمل الوحى بمجيئها) فهو يتعلق بالعصر الحديث «١».

إنّ المستخلص من هذه الفرضية أنّ الوحى نوع معرفة لا إرادية تشبه الغرائز وهى دون المعرفة الإرادية التى تحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل، وتضعف هذه القدرة «الوحى» كلما تكامل جهاز العقل والفكر، فيستخلف العقل حينئذٍ الوحى، ومن هذا الباب ختمت النبوة.

بالرغم من أنّ هذه الفرضية- صدرت عن مفكر إسلامى- إلّاأنّها أضعف فى بعض جوانبها من الفرضيات التى قدمها علماء وكُتّاب غربيون فى هذا المجال، على الرغم من التشابه من حيث فقدان الدليل، ويمكن القول: إنّ هذه النظرية أسوأ نظرية طُرحت فى هذا

المجال لحد الآن، وذلك للامور الآتية:

أولًا: إنّ العلماء الغربيين عدوا الوحى شيئاً فوق الإدراك الحسى والعقلى للإنسان، بينما عُدَّ فى هذه النظرية شيئاً دون ذلك، وهذا تفكير عجاب!

ثانياً: لم يَعِدَّ المفكرون الغربيون الوحى نوعاً من أنواع الغرائز الحيوانية، فى حين عُدَّ فى هذه النظرية من هذا القبيل.

---

(۱). مقدمة فى الرؤية العالمية الإسلامية، للشهيد المطهرى رحمه الله (وقد ذكر الشهيد المرحوم النقاط السبع السابقة التى تعكس رأى اقبال اللاهورى فى كتابه «احياء الفكر الدينى فى الإسلام» بشكل ملخص ونقدها).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۲

ثالثاً: إنّ أمر الوحى واضح بالكامل للمسلم الملم بمفاهيم القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الإلهى، وتلقى معارف عظيمة وجليلة للغاية من هذا العلم لم يستطع الإنسان أن يصل إليها بالعقل.

إنّ الوحى من وجهة نظر القرآن الكريم هداية إرادية بالكامل وهو أسمى بكثير من «الهداية العقلية»،- وكما قلنا سابقاً- فإنا إذا شبهنا العقل بنور مصباح نّير فإنّ الوحى بمثابة الشمس الساطعة.

يخاطب القرآن الناس- من جهة- قائلًا: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّا قَلِيلًا». (الاسراء/ ۸۵)

ومن جهة اخرى يصف اللَّه علمه ويقول: «وَلَوْ انَّمَا فِى الْارْضِ مِنَ شَجَرَةٍ اقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان/ ۲۷)

فوحى النبوة ارتباط بهذا العلم اللامتناهى، ولهذا يصرح القرآن الكريم أنّ اللَّه هو معلم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ . (النساء/ ۱۱۳)

إنّ العقل والعلم البشرى مهما تقدما وتكاملًا أضعف من أن يقودا الإنسان إلى طريق السعادة من دون توجيه وارشاد الوحى، والدليل الحى لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة، والحقيقة أنّ الذين عُرفوا كمفكرين اسلاميين هم مفكرون غربيون فى واقع أمرهم، وأفكارهم اتخذت صبغة الأفكار الغربية، ولهذا سعوا دائماً لذكر تبريرات طبيعية لُلامور غير الطبيعية.

إنّ الغربيين إذا اصروا على ذكر تبريرات طبيعية لُلامور الغيبية، فذلك لانكارهم عالم الغيب، فلا ينبغى لأىمسلم اقتفاء أثرهم فى ذكر تبرير طبيعى لمسألة كهذه.

من المؤسف أنّ الآثار السيئة لهذا التقليد نجدها فى كثير من كتب أولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا فى الغرب، ومعلوماتهم عن الإسلام قليلة جدّاً.

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۳

۵- كيف تيقن الرسول بأنّ الوحى من اللَّه؟

إنّ هذا السؤال من جملة الأسئلة التى طرحت حول مسألة الوحى، كيف علم الرسول بأنّ الوحى من اللَّه وليس إلقاءً شيطانياً؟ وبتعبير آخر: ما هو مصدر هذا العلم واليقين؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال واضح، فاضافة إلى أنّ الفرق بين الالقاءات الرحمانية والالقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والأرض، فإنّ محتوى كلٍّ منهما يعرف نفسه، وينبغى القول: إنّ الرسول عندما يتصل بالوحى يذعن بحقيقته بالنظر الباطنى، وأمره كالشمس الساطعة نهاراً، فلا نعتنى بالذى يشكك بوجودها ويقول: يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر، وذلك لأنّ احساسنا بها قطعى ولا يقبل

الشک.

يقول العلّامة الطباطبائی قدس سره فی تفسيره للآية: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ...». (طه/ ۱۱- ۱۲)

وهـذا حـال النّبی والرسول فی أوّل مـا يوحى إليه بـالنبوّة والرسالـة، لم يختلجه شـک ولم يعتره ريب فی أنّ الـذی يوحى إليه هو اللَّه سبحانه، من غير أن يحتاج إلى إمعان نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، ولو افتقر إلى شـیء من ذلک كان اكتساباً بالقوة النظرية، لا تلقياً من الغيب، من غير واسطة «۱».

ومن هنا يتّضـح عـدم صـحة ما جاء فی بعض الروايات من أنّ الوحی عنـدما نزل لأول مرّة على الرسول فی غار «حراء» ذهب إلى بيت خديجـة وقصّ عليها ما جرى واضاف: إنی أخاف على نفسـی (أی أخاف أن تكون الايحاءات شيطانية لا إلهيـة) فطمأنته خديجة، ثم ذهبت به إلى ورقـة بن نوفـل (ابن عم خديجـة) الـذی كان يـدين بالمسـيحية فی عهـد الجاهليـة، وكان يجيـد القراءة والكتابـة العربية والعبريـة، فطلب من النبی أن يشـرح ما جرى له .. وبعد ما قصَّ الرسول صـلى الله عليه و آله ما جرى له، قال ورقة: إنّه هو الوحی الذی كان يهبط على موسى عليه السلام وأضاف: ليتنی أكون حياً كی أرى كيف يخرجک قومک من هذه المدينة «۲».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۱۳۸.

(۲). نقل هذا المضـمون كثير من المحدثين والمفسـرين من أهل السنة منهم «البخاری فی صحيحه» و «مسلم» و «سيد قطب فی تفسيره فی ظلال القرآن فی بداية سورة العلق» كما ورد فی «دائرة معارف القرن العشرين، مادة (وحی)».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۴

وكون هذا الحديث مختلق أمر لا ريب ولا شک فيه، إذ كيف يحتاج الرسول الذی ارتبط بعالم الغيب وكل وجوده يشعر بهذه الرابطة، إلى ورقة بن نوفل الكاهن النصرانی؟ وكيف يمكن الاعتماد على مثل هذا الوحی؟

لماذا لم يشک به موسـى بن عمران عندما نزل عليه أوّل مرّة فی طور سيناء؟ بالرغم من أنّ موسى سمع صوته فقط ولم يشاهده، أليس هذا دليلًا على وجود أيادٍ خفية تهدف من وراء تلفيق هذه الخرافات إلى النيل من الوحی والنبوة وتضعيف أسس الدين الإسلامی؟

۶- القرآن أغنى مصدر للمعرفة فی الأحاديث الإسلامية

نستـمر فی بحثنـا هـذا مع الأخـذ بنظر الاعتبـار أنّ القرآن الكريم يمثـل المصـداق البـارز للوحی طبق مـاورد عن الأئمّـة الأطهار عليهم السـلام، كی يكون تأكيـداً لأصل وموقعيـة القرآن كمصـدرٍ عظيم للمعرفـة، كما يكون جواباً لأولئک الـذين يذهبون شـططاً ويعدون الوحی من «الغرائز الحيوانيـة» وأدنى من الإدراكـات العقليـة، ويعتقـدون أنّ الإنسـان اسـتغنى عن الوحی والمعـارف التی تنشـأ منه بعد تكامله العقلی!

- قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مخاطباً المسلمين: «إذا التبست عليكم الامور كقِطّع الليل المُظلم فعليكم بالقرآن ... مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خَلفَهُ ساقه إلى النار، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل، مَنْ قال به صدق، ومَن عمل به اجرَ، ومَن حَكَمَ به عَدَلَ» «۱».

۲- ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام فی احدى خُطب نهج البلاغة: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لاتطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرک مقره، ومنهاجاً لا يضل نهجُه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبيانياً لا تُهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تُهزم أنصاره، وحقاً لا تُخذل أعوانه».

---

(۱). نقل المرحوم العلّامة المجلسـی هذه الخطبة فی بحار الأنوار ج ۷۴، ص ۱۷۷ عن أبی سعيد الخدری من جملة خُطَب الرسول التی

نقلها.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٥

«فهو معدنُ الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافى الإسلام وبنيانه» «١».

٣- ويقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: «ما بالُ القرآن لا يزداد على النَّشر والدرس إلّاغضاضة»؟ فقال الإمام: «لأن اللَّه تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناسٍ دون ناس، فهو فى كل زمان جديد، وعند كلَّ قوم غضٌّ إلى يوم القيامة» «٢».

والأحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة فى مصادر السنة والشيعة، وقد ذكرنا ثلاثة فقط، أحدها للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والآخر لأمير المؤمنين عليه السلام وحديثاً للإمام الصادق عليه السلام.

٧- الوحى الخاص إلى غير الأنبياء (وحى الالهام)

كما ذكرنا فى بداية البحث أنّ للوحى معانِى كثيرة، منها «وحى النبوة والرسالة»، وهناك قسم آخر من الوحى وهو «الالهام» الذى يُلقى فى قلوب غير الأنبياء، أو خطاب يُبلَّغ به غير الأنبياء.

ومثاله ما جاء عن ام موسى حيث يقول القرآن فى هذا المجال: «وَأَوْحَيْنَا الَى أُمِّ مُوسَى أنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنى ...». (القصص/ ٧)

وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين، حيث يقول اللَّه تعالى «وَاذْ أَوْحَيْتُ الَى الْحَوَارِيِّينَ انْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِانَّنَا مُسْلِمُونَ . (المائدة/ ١١١)

كما قال اللَّه فى يوسف قبل أن يبعثه نبيّاً، عندما أراد اخوته أن يلقوه فى اليم:

«... وَأَوْحَيْنَا الَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِامْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُون . (يوسف/ ١٥)

وهذا الوحى ليس هو نفس وحى النبوة، بل وحى إلهامى، بقرينة الآية ٢٢ من نفس

---

(١). نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

(٢). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٨٦

السورة، حيث جاء فيها أنّ اللَّه ألهم نبيّهُ (يوسف) كى يدرك بأنّه ليس وحيداً بل اللَّه يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر إلى أن يندم اخوته على فعلهم، وهذا الوحى هو الذى جعل الأمل ينبعث فى قلب يوسف.

يذكر «الفخر الرازى» ستة احتمالات فى ذيل الآية (٣٨) من سورة طه، وأغلبها خلاف الظاهر، لأنّ ظاهر الآية هو الالقاء فى القلب، أو سماع صوت ملك الوحى الذى يتناسب والمعنى اللغوى للوحى «١».

ومثال القسم الثانى هو الخطاب الذى أبلغه أحد الملائكة لمريم والذى كان يتعلق بولادة عيسى عليه السلام، وقد حكى القرآن حوار مريم مع الملك الذى تمثل فى صورة إنسان وسيم.

وأوضح مثال للوحى الالهامى هو الذى كان يُقذف فى قلوب الأئمّة المعصومين عليهم السلام والذى اشير إليه كثيراً فى الروايات.

وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمّة قال: «مَبْلَغُ علمنا ثلاثة وجوه:

ماض، وغابر، وحادث، فأمّا الماضى فمُفَسَّرٌ وَأمّا الغابر فمزبور، وأمّا الحادث فقذف فى القلوب، ونقر فى الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبيَّ بعد نبيّنا» «٢».

وقد جاء فى حديث آخر للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: «وأمّا النكت فى القلوب فهو الالهام وأمّا النقر فى الأسماع فحديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم» «۳».

وبصورة عامة، فإنّ علوم الأئمّة عليهم السلام تحصل من عدة طرق: العلوم التى ورثوها عن الرسول والأئمّة الذين سبقوا، على شكل وصايا وقواعد مدوّنة توضع فى متناول أيديهم والتى قد يطلق عليها فى بعض الأخبار «الجامعة»، وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له فى المصادر التى فى أيديهم، يوحى اللّه اليهم إلهاماً قلبياً أو نقراً فى أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة «كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام».

---

(۱). راجع التفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۵۱.

(۲). بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۵۰.

(۳). إرشاد المفيد، ج ۲، ص ۸۰؛ بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۸.

لكن المسلَّم به أنّ هذا الوحى لا علاقة له بوحى النبوة، وهو من قبيل وحى الحواريين وأمثال ذلك، وفى الواقع، أنّ الاصطلاح العصرى للوحى يطلق على وحى النبوة الذى يسمى «إِلهاماً»، وقد قال العلامة الطباطبائى فى هذا المجال: حبذا لو أطلقنا عليه إِلهاماً لأنّه يتفق والأدب الدينى «۱».

يراجع- للتفصيل- المجلد ۲۶ من بحار الأنوار، باب علوم الأئمّة عليهم السلام، كما يراجع المجلد الأول من اصول الكافى باب أنّ الأئمّة عليهم السلام محدَّثون.

۸- كيفية نزول الوحى على الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله

كما قلنا سابقاً، إنا لا ندرك حقيقة الوحى، وهى من المجهولات عندنا، لأنّ إدراكها شىءٌ خارج عن اطار الحس والعقل، بل ندرك آثار الوحى فقط، والأثر يدلّ على المؤثِّر، وعلى هذا فمن العبث الدخول فى عالم الوحى الغامض إلّاأنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام عندما كانوا يُسألون عن كيفية الايحاء، يجيبون جواباً وافياً بحيث يرسم فى الذهن عن الوحى تصوراً لا غير!

ذكر الشيخ الصدوق قدس سره فى كتابه «الاعتقادات» حول نزول الوحى حديثاً لابدّ أن استخلصه من الروايات حيث قال فيه:

«اعتقادنا فى ذلك أنّ بين عينى اسرافيل لوحاً، فإذا أراد اللّه عزوجل أن يتكلم بالوحى ضرب اللوح جبين اسرافيل، فنظر فيه فقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكائيل عليه السلام، ويلقيه ميكائيل عليه السلام إلى جبرائيل عليه السلام ويلقيه جبرائيل عليه السلام إلى الأنبياء عليهم السلام، وأمّا الغشية التى كانت تأخذ النبى صلى الله عليه و آله حتى يثقل ويعرق فإنّ ذلك كان يكون منه عند مخاطبة اللّه عزوجل إيّاه فأمّا جبرائيل فانّه كان لا يدخل على النبى صلى الله عليه و آله حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد» «۲».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۲، ص ۳۱۲.

(۲). اعتقادات الصدوق، ص ۱۰۰.

وقد جاء فى الروايات مضمون هذا الحديث إجمالًا «۱».

ونقرأ فى حديث آخر أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عندما كان يوحى إليه يسمع صوتاً هادئاً قرب وجهه.

وقد جاء فى حديث آخر: إنّ الوحى عندما كان ينزل على الرسول صلى الله عليه و آله يبدأ جبينه يتصبب عرقاً وإن كان الجو بارداً «۲».

وبصورة عامة فإنّ الوحى كان يهبط على رسول اللَّه باشكال مختلفة، ولكل شكل آثاره الخاصة به.

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط على الرسول أحياناً- بشكله الحقيقى الذى خلقه اللَّه عليه، ويحتمل أنّه هبط بهذا الشكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير إلى ذلك فى بعض تفاسير سورة النجم) «۳»، كما أنّه قد يهبط متمثلًا فى صورة «دحية الكلبى» «۴»، «۵».

۹- الالهامات الغريزية

قلنا سابقاً أنّ للوحى مفهوماً واسعاً سواء فى آيات القرآن أو فى كتب اللغة، كما قلنا إنّ أحد مصاديقه هو الإدراك الغريزى عند الحيوانات، ولا يمكن تحليله بأى تحليل مادى، بل وجوده فى الحيوانات دليل على وجود ذلك المصدر الغنى والعظيم للعلم والمعرفة فيما وراء الطبيعة.

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۴، ح ۹.

(۲). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۶۱.

(۳). فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۳۰۶.

(۴). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۶۷، ح ۲۹.

(۵). إنّ دحية بن خليفة الكلبى هو أخو الرسول الرضاعى، وكان من أجمل الناس آنذاك، فكان يتمثل فى صورته جبرئيل عندما يريد الهبوط على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله (مجمع البحرين مادة وحى). وكان من مشاهير صحابة الرسول صلى الله عليه و آله ويُعرف بحسن الوجه، أرسله الرسول صلى الله عليه و آله بالرسالة إلى قيصر الروم «هرقل» فى السنة السادسة أو السابعة من الهجرة، وكان حياً حتى خلافة عمر (قاموس دهخدا بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۹

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل فى الآيات ۶۸ و ۶۹ من سورة النحل.

لقد اتّضح لنا- بعد التحقيقات التى اجريت على هذه الحشرة فى العصر الحاضر- أنّ النحل يعيش حياة اجتماعية وتمدناً عجيباً يفوق تمدن الإنسان فى بعض نواحيه، فالعمران والبناء يتمّ عنده بدقّة كاملة وطبقاً للمواصفات الهندسية، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث، وكيفية تربية الصغار، والتغذية الخاصة للملكة، والتحقق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوثة، وكيفية الدفاع ضد العدو، وكيفية إخبار أعضاء الخلية عن الزهور بواسطة النحل المكلّف بالبحث، وإعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والانحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر، وغير ذلك من الامور العجيبة التى لا يمكن تفسيرها إلّابالقول بأنّ لها إلهاماً غريزياً.

ويقال: إنّه تم التعرف على ۴۵۰۰ نوع من أنواع هذه الحشرة، والعجيب فى الأمر أنّ جميعها تتبع طريقة واحدة فى كيفية البناء والمَصّ والتغذية من الزهور «۱».

إنّ البحث يستدعى عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً، وإلّا فالحديث عن الحياة الغامضة للنحل طويل، ويكفينا منه الحديث عن بنائه لبيت سداسى الاضلاع مع زوايا هندسية دقيقة.

يقول العلماء فى هذا المجال: إنّ البيوت المبنية من قبل النحل بنيت بدقّة وظرافة بحيث لا تحتاج إلى مواد أوليه كثيرة للبناء، رغم سعة

محتواها، لوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الأشكال الهندسية المتعددة- يمكن بناء البيوت على أساسها من دون حصول فراغ بينها والأشكال هى، المثلث متساوى الأضلاع والرباعى، والسداسى، وقد كشفت الدراسات الهندسية أن سداسى الأضلاع يتطلب مواد بناء أقلّ مع شدّة مقاومته، ولهذا السبب رجحه النحل على الشكلين الآخرين.

من أين حصلت له هذه الالهامات الغريزية؟ وفى أى مدرسة تعلم هذه التعاليم؟

---

(۱). اول جامعة،، ج ۵، ص ۵۵ «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۰

لاـ يقتصر هذا الالهام الغريزى على النحل فحسب، بل نجده فى كثير من الحيوانات تفوق عجائب كلٍّ منها الاخرى، نذكر لذلك الأمثلة الآتية:

يقول أحد العلماء فى كتاب له باسم «البحر بيت العجائب»:

«إنّ الحركات التى تقوم بها بعض الأسماك تعتبر من غرائب الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف أسرار هذا السلوك، فهناك نوع من الأسماك يسمى «النُقْط» يغادر البحر المالح الأنهر العذبة وهى الأماكن التى ولدت فيها نفسها، وقد يقتضى ذلك أن تسير عكس اتّجاه حركة المياه، أو تصعد الشلالات من أسفلها إلى أعلاها، وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر، وعندما تصل إلى المحل المقصود تضع بيوضها ثم تموت!

يا تُرى كيف تستطيع هذه الأسماك أن تختار المياه المناسبة لها؟ إنّه أمر عجيب، والأعجب، لأنّها تفتقد الخارطة، كما أنّ بصرها تحت الماء محدود، ولم يدلها أحد على الطريق، وبالرغم من ذلك فهى تصل إلى المكان المقصود والمناسب».

ويضيف فى نفس الكتاب: «إنّ الأعجب من ذلك هو سلوك الأسماك الانجليزية «سمك يشبه الحيّة» فحين تبلغ ثمان سنوات تغادر النهر أو المستنقع الذى كانت تعيش فيه، وتزحف ليلًا على الأعشاب المتشابكة حتى تصل إلى شاطىء البحر، ثم تجتاز المحيط الأطلسى عرضاً حتى تصل إلى المياه القريبة من «برمودا»! وتغوص فى المحيط آنذاك وتضع البيوض ثم تموت ... إنّ صغار هذه الأسماك تطفو على سطح البحر وتبدأ سفرها عائدة إلى وطنها، وتستغرق هذه السفرة سنتين أو ثلاثاً حتى تصل إلى المحل الذى كان فيه أسلافها.

كيف وجدت هذه الأسماك طريقها رغم أنّها لم تسلكه سابقاً؟ إنّه سؤال لا يمكنك الإجابة عنه، كما لا يستطيع أعلم العلماء الإجابة عنه، إنّه سرّ، ولا أحد يعرفه» «۱»!

وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة، وبعضها يجتاز طريق «اوربا» إلى «أفريقيا الجنوبية» دون خطأ فى الاتّجاه، ولم نكتشف كيفية اهتداء هذه الطيور إلى

---

(۱). البحر بيت العجائب، ص ۱۱۶ و ۱۱۷ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۱

الطريق حتى فترة ليست ببعيدة.

وقد أثبت بعض العلماء- بعد التحقيق والتجارب على هذه الطيور- أنّها تهتدى الطريق بواسطة مواقع النجوم، وأثبتت التجارب أنّها تعرف مواقع النجوم غريزياً، وتعلم تغير مواقعها حسب فصول السنة، وحتى عندما تتلبد السماء بالغيوم، فإنّ وميض بعضٍ من النجوم يكفيها للاهتداء إلى الطريق، كما أثبتت تجارب اخرى أنّها ورثت معرفتها عن الفلك ومواقع النجوم، أى أنّها تعلم كل شىء عن السماء ومواقع النجوم وإن لم تشاهد السماء سابقاً، بالطبع لم تُكتشف كيفية انتقال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالوراثة،

خاصة وأنّ السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان، ثم: من أين حصل الجيل القديم على هذه المعلومات؟! «١».

و النموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم «آكسك لوب» عندما تضع البيوض، فيقول العالم الفرنسى «وارد» حول هذا الحيوان:

«إنى درست حالات هذه الطيور، فوجدت من خصائصها أنّها تموت بعد أن تبيض، ولا ترى أفراخها أبداً، كما أنّ الأفراخ لا ترى امهاتها، وعندما تفقس البيوض تخرج كالديدان بلا أجنحة ولا ريش، ولا قدرة لها على تحصيل الطعام، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التى تهدد حياتها، ولهذا ينبغى أن تبقى فى مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدّة سنة، ومن بعدها تقوم الام- عندما تشعر أنّها على وشك أن تبيض- بالبحث عن قطعة من خشب ثم تثقبها ثقباً عميقاً، وتجمع فيها المؤونة الكافية، فتجمع أولًا أوراق الأشجار ما يكفى لفرخ واحد لمدّة سنة وتلقيها فى نهاية الثقب العميق، ثم تضع عليها بيضة وتبنى عليها سقفاً محكماً من عجينه خشبية، ثم تبدأ ثانياً فى جمع مؤونة فرخ آخر لمدّة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها على سطح الغرفة الاولى تضع بيضة ثانية عليها وسقفاً

---

(١). حواس الحيوانات الغامضة، تأليف (ويتوس دروشر)، ترجمة لاله زارى، ص ١٦٧- ٧١ (ملخص) «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٢

آخر، وهكذا تبنى الغرفة بعد الغرفة حتى تموت «١».

من الذى علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم أنّه لم ير امه ولاـ أفراخه؟ لاـ جواب لأحدٍ على هذا السؤال إلّاالقول، بأنّها الهامات غريزية من قبل الخالق العظيم.

---

(١) المتلبسون بالفلسفة، ص ٢٢٩، «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٣

٦- الكشف والشهود

تمهيد:

نفحات القرآن ج ١ ٢٢٢

القسم السادس والأخير من مصادر المعرفة هو «الشهود القلبى والمكاشفة».

وقبل كل شىء ينبغى تعريف هذا المصدر المجهول لدى أكثر الناس، كى يتضح فرقه عن «الوحى» و «الالهام» و «الفطرة» و «الإدراكات العقلية»، ولكى لا يحملُهُ غير المطلعين على «اتباع الظن».

ومن جهة اخرى، لكى نحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر إليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر.

إنّ الكائنات فى هذا الوجود تنقسم إلى قسمين:

١- الكائنات التى يمكن إدراكها بالحواس وهى «العالم المحسوس».

٢- الكائنات غير المحسوسة وهى «عالم الغيب».

لكن الإنسان- أحياناً- ينفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكّنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، وبتعبير آخر، تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق العالم المحسوس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «المكاشفة» أو «الشهود الباطنى».

وقد اشير إلى هذا العلم فى الآيتين: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ! (التكاثر/ ۵- ۶)

وقد ورد فى المصادر الإسلامية المختلفة: إنّ «المجرمين» و «المؤمنين» تحصل لديهم

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۹۴

هـذه الحالـة عنـد الاحتضـار، فيشاهـد المؤمنون عنـدها ملائكـة اللَّه أو الأـرواح القدّسـية لأوليـاء اللَّه بينمـا يعجز الجالسون حولهم عن مشاهدة ذلك.

كما حصل هذا الأمر لرسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فى غزوة الخندق عندما ضـرب الرسول صـلى الله عليه و آله الصـخرة ثلاثاً وكان يظهر بريق فى كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال:

أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى الاولى وفى الثانية أرض الشام والروم وفى الثالثة قصور صنعاء ... وسيأتى تفصيل الحديث «۱».

كما أنّه قـد حصل هـذا لآمنـة ام النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عندما كانت حاملة بالرسول صـلى الله عليه و آله حيث قالت: رأيت نوراً خرج منى شاهـدت به قصور بلاد «بصـرى فى «الشام»، وهناك كثير من النماذج جاءت فى الآيات والروايات نشـير إليها فيما بعد، إن شاء اللَّه، فهذه كلها لا وحى ولا إلهام قلبى، بل نوع من المشاهدة والإدراك تختلف عن المشاهدة والإدراك الحسى.

وعلى هـذا، فـالكشف والشـهود- اختصاراً- عبارة عن: الـدخول فى عالم ما وراء الحس ومشاهـدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنيـة، كالمشاهدة الحسية بل أقوى أو سماع تلك الحقائق باذن روحانية.

بالطبع لا يمكن تصـديق كل من يـدعى أنّه وصل إلى هذه الملكة، إلّاأنّه ينبغى الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة ونتحدث أولًا عن هـذا الأمر، ثم عن كيفيـة الوصول إليه، ثم طريق تمييز المـدعين الصادقين من الكاذبين، وبعـد هذا التمهيد، نمعن خاشـعين فى الآيات التالية:

۱- «وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .

(الأنعام/ ۷۵)

۲- «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ الَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة/ ۱۰۵)

۳- «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى

---

(۱). الكامل فى التاريخ،، ج ۲، ص ۱۷۹.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۹۵

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . (النجم/ ۱۱- ۱۴)

۴- «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ . (التكاثر/ ۵- ۶)

۵- «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَابُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً».

(الفرقان/ ۲۲)

۶- «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَانِّى جَارٌ لَّكُم فَلَمَّا تَرَائَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنْكُمْ انِّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ انِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . (الأنفال/ ۴۸)

۷- «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ .

(يوسف/ ۹۴)

۸- «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا الَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً».

(مريم/ ١٧)

شرح المفردات:

إنَ «ملكوت» اشتقت فى الأصل من مادة «المُلْك» والتى تعنى الملكيـة والحكومـة، واضـيفت لها «الواو» و «التاء» للتأكيد والمبالغة، أمّا مَلْكُوَة فتعنى الحكومة والعزة.

يقول الطريحى فى «مجمع البحرين»، إنّ ملكوت جاءت بمعنى العزة والسـلطنة والمملكـة، وادعى بعض أئمّـة اللغة أنّها تعنى «الحكومة العظيمـة» وهو يتفق مع ما قاله الراغب فى مفرداته، ويقول صاحب الميزان: «كان النظر فى ملكوت الأشـياء يهـدى الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية» «١».

إنَ «فؤاد»- كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً- تعنى القلب والروح عندما ينضجان ويتكاملان، وهو مشتق من مادة «فأْد» التى تعنى النضج.

وإنّ «أجد» من مادة «وجود» ويعنى الحصول، فقد يكون الحصول عن طريق احدى

---

(١). تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٦

الحواس الظاهرية، مثل الرؤية بالعين، والسماع بالاذن، أو بواسطة الحاسة الشامة، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو الشبع والهم والغم، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان اللّه بالاستدلال العقلى والبراهين المختلفة.

كلمة «تمثّل» من مادة «مُثُول» ويعنى الوقوف أمام شـخصٍ أو شـيءٍ، ويقال مُمَثَّل بشـخصٍ أو شيءٍ أى ظهر فى صورة شخص أو شيءٍ آخر، وقـد تكرر موضوع التمثـل فى الروايات الإسـلامية والتواريـخ، منها ظهور ابليس فى «دار النـدوة» أمام المشـركين وهم يخططون لقتل الرسول متمثلًا فى شكل رجلٍ صالح وخير.

ومنها تمثل الدنيا فى صورة امرأة جميلة وفاتنة أمام الإمام على عليه السـلام وعدم اسـتطاعتها من النفوذ فى قلبه الطاهر وقصتها معروفة، ومنها تمثل أعمال الإنسان أمامه فى القبر ويوم القيامـة، كلٌّ بشـكله المناسب له حيث عبرت الروايات الإسـلامية عن هذا الأمر بالتمثل، ومفهوم التمثل فى جميع هذه الموارد هو ظهور شخصٍ أو شيءٍ فى صورة شخص أو شكل آخر من دون تغير فى باطنه وماهيته «١».

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآيـة الاولى بعـد إشارتها إلى جهاد إبراهيم عليه السـلام بطل التوحيـد ضـد الشـرك وعبادة الأصـنام، تحـدثت عن المنزلـة الرفيعة لإيمـانه ويقينه، وكمكافئـة لهـذه المكـانه فإنّ اللّه أراه ملكوت السـموات والأرض، فأصبح من أهل اليقين أى وصل إلى درجـة عين اليقين وحق اليقين، جزاءً لما عاناه من جراء جهاده ضد الشرك وعبدة الأصنام، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «السموات» تفيد العموم هنا (لأنّهـا جـاءت جمعـاً لاـ مفرداً ومعرفـة لاـ نكرة)، نسـتنتج أنّ اللّه أطلع إبراهيم على سلطانه فى السـموات المتمثـل بالكواكب والنجوم والمجرات وغيرها، كذلك سلطانه على الأرض ما ظهر منها وما بطن، وقد عبّر القرآن عن هذا الأمر بهذا التعبير «نُرىَ ابراهيم ...».

---

(١). تفسير الميزان، ج ١۴، ص ٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٧

ومع الأخـذ بنظر الاعتبـار إلى أنّ الإنسـان لاـ يمكنه رؤيـة هـذه الحقائق بعينه الظاهريـة واسـتدلالاته العقليـة، نـدرك أنّ اللّه أراه هـذه الحقائق عن طريق الشهود الباطنى وإزالة الحجب التى تحول دون مشاهدة الإنسان الحقائق الغيبية.

وقد ذكر الفخر الرازى احتمالين فى تفسيره ل «الإرائة»، أحدهما: «أنّها حسية، والثانى:
أنّها إرائة عن طريق الاستدلال العقلى، ثم اختار الاحتمال الثانى، وذكر تسعة أدلة عليه» «١».
لكن- كما قلنا سابقاً- فالإنسان عاجز عن الاحاطة الكاملة بأسرار سلطان اللَّه على العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل، وتحتاج الاحاطة هذه إلى طريق إدراك آخر، وهو الشهود الباطنى، ولهذا السبب يذكر صاحب تفسير «فى ظلال القرآن»:
«أنّ المراد من الآية إخبار ابراهيم عن أسرار الخلق الخفية ورفع الحجاب عن آيات كتاب الخلق التى نشرت كى يصل ابراهيم إلى درجة اليقين الكامل» «٢».
و بتعبير آخر: إنّ ابراهيم اجتاز مراحل التوحيد الفطرى والاستدلالى- فى البداية- من خلال مشاهدته لطلوع الشمسُ وغروبها وطلوع النجوم وافولها، وجاهد المشركين واجتاز درجات التوحيد فى ظل هذا الجهاد العظيم، الواحدة تلو الاخرى، إلى أن بلغ مرحلة كشف اللَّه له فيها الحقائق، وهى مرحلة الشهود الباطنى.
وهناك حديث للإمام الصادق عليه السلام فى هذا المجال يشير فيه إلى هذا المعنى حيث يقول:
«كُشِط لإبراهيم السموات السبع حتى نظر ما فوق العرش، وكشط له الأرضون السبع، وفُعِل لمحمد صلى الله عليه و آله مثل ذلك ...»
«والأئمّة من بعده قد فُعل بهم مثل ذلك» «٣».
وقد ذكر صاحب البرهان الكثير من الأحاديث فى تفسيره، كلها تكشف أنّ الإدراك هذا ليس هو نفس الإدراك العقلى أو الحسى، بل- وكما صرح صاحب الميزان وأشرنا إليه سابقاً- إنّ الملكوت هى مجموعة الامور التى لها ارتباط بالذات المقدّسة الإلهيّة من حيث

---

(١). التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٤٣.

(٢). فى ظلال القرآن، ج ٣٩، ص ٢٩١.

(٣). تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣١، ح ٢ (ومضمون الحديث الثالث والرابع قريب من مضمون هذا الحديث).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١٩٨

انتمائها إلى تلك الذات، وهذا ما شاهده إبراهيم وعن هذا الطريق استطاع أن يصل إلى التوحيد الخالص «١».
وهناك روايتان ذكرت فى تفسير «الدر المنثور» إحداهما عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والاخرى عن ابن عباس تبينان أنّ اللَّه رفع الحجب عن إبراهيم وأراه ملكوت السموات والأرض أى أسرار قدرته، وحاكميته على الكون والوجود «٢».

ج ج

والآية الثانية بعد ذكرها لأحكام «الزكاة والصدقة والتوبة» خاطبت الرسول قائلة:
«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ الَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (توبه/ ١٠٥)
وممّا لا شك فيه أنّ المراد من رؤية الأعمال من قبل اللَّه سبحانه وتعالى هو رؤية اللَّه لجميع أعمال الناس سواء الصالحة منها أو غير الصالحة وما ظهر منها وما بطن «بقرينة وحدة السياق» وينبغى القول بأنّ مشاهدة الرسول مثل مشاهدة اللَّه، لأنّ الآية مطلقة ولم يقيدها شىء، وأمّا المؤمنون، فالمراد منهم خلفاء الرسول صلى الله عليه و آله المعصومون بحسب القرائن المختلفة «لا جميع المؤمنين».
ومع الالتفات إلى أنّه لا يمكن مشاهدة اعمال كافة الناس مشاهدة حسية أو استدلالية عقلية، ينبغى القول: إنّ الآية بينت حقيقة وهى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام بإمكانهم المشاهدة بشكل يختلف عن المشاهدة الحسية المتعارفة، يشاهدون بها جميع أعمال المؤمنين.
وقد ذهب الفخر الرازى إلى أنّ المراد من الآية جميع المؤمنين لا الأئمّة، وعندما وقع فى إشكال أنّ المؤمنين لا يطلع أحدهم على

أعمال الآخر، أجاب: إنّ المراد أنّهم يُخبرون بها.

---

(١). تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧٨.

(٢). در المنثور، ج ٣، ص ٢۴.

نفحات القرآن، ج١، ص: ١٩٩

وهذا تكلّف بلا نتيجة، وتبرير خلاف الظاهر.

كما أنّه نقلت روايات عديـدة فى ذيل هذه الآية بينت أنّ أعمال العباد تُعرض كل صـباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصـباح) على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعاتٍ، ويتألمون إن كانت معاصياً «١».

و يمثل هـذا الحجم الكبير من الروايات فى تفسير هـذه الآيـة درس كبير لجميع سالكى طريق الحق والهداية، حيث إنّ هناك مراقبين أجلّاء يراقبون أعمالهم، والإيمان بهـذه الحقيقة لها مردودات تربوية جمة، وقد نقل هذا المضـمون فى ضـمن روايات كثيرة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فى أحدها: «إذا صار الأمر إليه جعل اللَّه له عموداً من نورٍ يُبصِرُ به ما يعمل به أهل كل بلدة» «٢».

ج ج

والآيـة الثالثـة إشـارة إلى ما يعتقـده البعض من مشاهـدة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله لجبرئيل عليه السـلام فى شـكله الحقيقى، وقد شاهـده بهـذا النحو مرتين، المرة الـولى فى بدايـة بعثته حيث ظهر (عليه السـلام) فى الـافق وغطى الشـرق والغرب، وكـان بدرجـة من الجلالة والعظمة حيث اضـطرب الرسول حينها اضـطراباً شديداً، والمرة الثانية هى عند معراجه صـلى الله عليه و آله، وقد اشير فى سورة النجم لكلا اللقائين.

وهناك تفسير آخر وهو أنّ المراد من الرؤية فى الآية هو حصول الشهود الباطنى له، الشهود للذات الإلهيّة المقدّسة، وهو شهود بالعين الباطنيـة لا الظاهريـة، وهو مصـداق واضح ل «لقاء اللَّه» فى هذا العالم، وقد جاء شـرح ذلك مفصـلًا فى تفسـير الأمثل فى ذيل الآيه ١٨ سورة النجم.

---

(١). جاء فى تفسير البرهان فى ذيل الآيـة المـذكورة، وفى بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٢۶ فما بعد، عشـرات الروايات المنقولة فى هذا المجال، ويمكن القول: إنّها وصلت إلى مستوى التواتر، و من اصول الكافى ج ١ باب «عرض الأعمال» جاء ذلك مفصلًا.

(٢). منهاج البراعـة فى شـرح نهج البلاغة، ج ۵، ص ٢٠٠ (لقـد جمع فى هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضـمون) وقد ذكر بعضاً منها البحرانى فى تفسيره «البرهان».

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٠٠

وعلى أيّة حال فإنّ الآية تصرح: إنّ ما رآه الرسول صلى الله عليه و آله بقلبه قد حدث بالفعل، وقلبه صادق بما شاهده وغير كاذب.

والتعبير هذا شاهد على مسألة الكشف والشـهود الباطنى الذى يعتبر أحد مصادر المعرفة للإنسان، إنسان مثل الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله، وقد جاء فى تفسير الميزان:

ولاـ بـدع فى نسبـة الرؤيـة وهى مشاهـدة العيـان إلى الفؤاد فـإنّ للإنسـان نوعاً من الإدراك الشـهودى وراء الإدراك باحـدى الحواس الظاهره والتخيل والتفكر بالقوى الباطنـة كما أننا نشاهـد من أنفسـنا أننا نرى وليست هـذه المشاهـدة العيانيـة ابصاراً بالبصـر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرى من أنفسـنا أننا نسـمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشىء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهـد مـدركات كل واحـدة من هـذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد «١».

وقد صرّح المفسرون: إنّ المراد من الرؤية فى الآية هو المشاهدة بالقلب.

وقد جاء فى حديث أن سأل أحد صحابة الإمام أبى الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام:

هل رأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ربّه عزّ وجلّ؟ فاجابه عليه السلام «نعم بقلبه، أما سمعت اللَّه عزّ وجلَّ يقول:

ما كذب الفؤاد ما رأى لم يَرَه بالبصر ولكن رآه بالفؤاد» «۲».

بديهى، أنّ المراد من «الرؤية القلبية» ليس هو الفكر والاستدلال العقلى، لأنّ هذا أمر لا يختص بالرسول صلى الله عليه و آله بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين.

ج ج

وقد خاطبت الآية الرابعة المؤمنين كافة قائلةً: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحيم ثم تضيف: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ .

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۹.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۵۳، ح ۳۴.

وهناك بحث بين المفسرين فى أنّ الرؤية هذه تقع فى الدنيا أم فى الآخرة؟ أو أنّ الاولى فى الدنيا والثانية فى الآخرة؟ لكن ظاهر الآية يـدل على أنّ الثانيـة تقع فى الآـخرة، بقرينـة «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهـا عَيْنَ الْيَقِينِ وذلـك لأنّه لا سؤال فى الـدنيا، وعلى هـذا فالرؤيـة الاولى «رؤية الجحيم» تقع فى الدنيا.

وقـد جاء فى تفسير الميزان: إنّ ظاهر الآيـة يـدل على وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة، بالطبع رؤية قلبية والتى تعد من ثمار الإيمان واليقين، كما هو الأمر فى قصة إبراهيم ورؤيته لملكوت السموات والأرض.

وقـد تقدّم أنّ البعض يرى أنّ الرؤيـة فى كلاـ الموردين تتعلق بيوم القيامـة، ولهـذا تكلفوا كثيراً عنـد بيـانهم للفرق بين الرؤيتين، كما يُشاهد ذلك فى كلام المفسر الفخر الرازى «۱».

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية تأكيد فى ظاهرها على أنّ الإنسان- فى بعض الحالات- تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم الغيب.

ج ج

والآية الخامسة أشارت إلى طلب الكافرين المُلِح، حيث كانوا يسألون: لِمَ لَمْ يُنزَّل علينا ملائكة؟ أو لِمَ لَمْ نَرَ اللَّه جهرةً؟ «۲».

ويجيبهم القرآن: «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَابُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً». (۲۲/ فرقان)

وهنـاك خلاـف بين المفسـرين فى المراد من «يـوم» فى الآيـة، فـأى يوم هو؟ يعتقـد البعض أنّ المراد منه هو يوم القيامـة لكن البعض يعتقـد- مع الالتفات إلى الآيات التى تحـدثت عن (ملائكة الموت» ومن ضـمنها الآية التالية: «وَلَوْ تَرَى اذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ...». (۹۳/ الأنعام)

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۸۰.

(۲). الفرقان، ۲۱.

إنّ المراد منه هو لحظات الموت، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقد نقل هذا الرأى عن ابن عباس «۱»، فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره (قيل

اخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على اللّه غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك قوله «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ » «٢».

وطبقاً لهذا التفسير، فإنّ الإنسان عندما يكون على وشك الموت تُرفع عن قلبه الحُجُب، فتحصل له حالة الكشف والشهود، فيرى الملائكة.

ج ج

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأنّ الشيطان زيّن للمشركين أعمالهم وصوَّرها لهم وكأنّهم يحسنون صنعاً، وذلك كي يكونو أكثر تفاؤلا واملًا بما يقومون به.

ومن جهة اخرى فإنّ عدد وعدة جيش المشركين الذي يقدر بعدة أضعاف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين، والشيطان يوسوس لهم وبشكل مستمر بانهم بهذا الجيش المجهز سوف ينتصرون ولا تستطيع أية قوّة أنّ تغلبهم: «لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَانِّى جَارٌ لَّكُمْ .

وعندما اشتعلت الحرب ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين بأمر اللّه، تراجع الشيطان، وقال لهم: «انِّى بَرِىءٌ مِّنْكُمْ انِّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ انِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لأنّه رأى الامدادات الغيبية وآثار رحمة اللّه!

و حول هذه الآية انقسم المفسرون إلى قسمين:

القسم الأول يرى أنّ الشيطان متجسم وظهر أمام هؤلاء بصورة إنسان وأخذ يوسوس لهم.

---

(١). تفسير الكبير، ج ٢۴، ص ٧٠.

(٢). تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٥٨،، ح ١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٣

وأمّا القسم الثاني فانّهم يرون أنّ الشيطان نفذ في باطن المشركين كما هو المتعارف واحدث أثراً في قلوبهم.

و قد اختار كثير من المفسرين الرأي الأول، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأي، حيث قالت: إنّ الشيطان تمثَّل لهم في صورة «سراقة بن مالك» الذي يعتبر من أشراف «بني كنانة» وقد حصل هذا الأمر «التمثل» عندما هاجر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، حيث اشترك الشيطان آنذاك في شورى المشركين في «دار الندوة» متمثلًا في صورة رجل كبير السن من أهالي «نجد» وليس محالًا أن يتمثل في صورة إنسان، لأنّ هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول في قصة ابراهيم ومريم).

والبحث الآخر هو: هل أنّ الشيطان رأى الملائكة حقاً يساندون جند الإسلام؟ أم عندما رأى آثار الانتصار غير المرتقب تيقن بنزول الملائكة والامدادات الغيبية؟ هناك نظريتان في هذا المجال:

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد رؤيتهم حقيقةً، ويؤيد ذلك ظاهر الآيات اللاحقة التي تحدثت عن دخول الملائكة ساحة بدر.

وعلى هذا، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة في بدر، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان، فكان يرى الملائكة.

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه اللّه للشيطان لأهداف معينة.

ج ج

والآية السابعة أشارت إلى قصة يوسف عليه السلام، فعندما خرج أولاد يعقوب عليه السلام مع القافلة فرحين من مصر، وكانوا قد شاهدوا يوسف على عرش السلطة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقرَّ عين أبيهم وليرجع نظره إليه ثانية، وعندما تحركت القافلة من مصر، قال يعقوب لمن حوله في بلاد كنعان: إنّي أشم رائحة يوسف إذا لم ترموني بالكذب والجهل، إنّ ما قاله يعقوب كان صدقاً

لأنّه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التى يمتلكها جميع الناس ولهذا لم

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۰۴

يصدقه أحد ممن كان حوله فنسبوا الضلالة إلى الشيخ الكنعانى ذلك النبى العظيم حيث قالوا له: «تَاللَّهِ إِنَّکَ لَفِی ضَلَالِکَ الْقَدِیمِ . (يوسف/ ۹۵)

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع الاخوة إلى كنعان.

وقد عُدَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيّام فى بعض الروايات، وبثمانية أيّام فى بعضها الآخر وفى روايات اخرى بثمانين فرسخاً «۱».

ولا دليل على حمل الآية على المعنى المجازى والقول بأن شم رائحة القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا نشم رائحة انتصار المسلمين على الأعداء)، وذلك لأنّه مع امكان حمل الألفاظ على الحقيقة لا يمكن الحمل على المجاز.

وفى النهاية نستنتج أنّ مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب، وباحساس يفوق الاحساس الظاهرى استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثامنة والأخيرة عن قصة تمثّل الملك الإلهى لمريم حيث يقول القرآن فى هذا المجال بصراحة:

لقد انفصلت مريم عن أهلها فى الضفة الشرقية من «بيت المقدس»، واتخذت حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب إمّا أن يكون لأجل التفرغ للعبادة والنجوى أكثر، أو أن يكون لأجل التطهر والغسل)، وأيّما كان فإنّ اللَّه أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشراً وإنساناً سويّاً أى كاملًا من دون عيب وذا قامة ووجه جميل، ففزعت مريم فى الوهلة الاولى لكنها اطمأنت عندما قال لها: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِاهَبَ لَکِ غُلَاماً زَکِیّاً» أى عيسى عليه السلام. (مريم/ ۱۹)

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۶۲؛ تفسير الكبير، ج ۱۸، ص ۲۰۷.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۰۵

واستمر الحديث بينهما طويلًا، وقد ذكر فى سورة مريم «۱».

و قد ادعى البعض أنّ الملك تمثل لمريم فى حس الباصرة فقط، (وليس فى الخارج)، لكن هذا خلاف الظاهر ولا دليل عليه، والقرائن على أنّ هذا الشهود قد حصل لمريم فقط، ويحتمل أنّه إذا كان أحد معها ما كان قادراً على الرؤية، وعليه فالآية قرينة اخرى على مسألة إمكانية الشهود حتى لغير الأنبياء.

النتيجة:

نستنتج ممّا تقدم أنّ هناك مصدراً للمعرفة غير المصادر التى قرأنا عنها إلى الآن، وهو مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا، لن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح، وهو لا يختص بالأنبياء والأئمّة، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً، وإذا شككنا فى بعض الآيات فى مجال استفادة هذا المصدر منها، فإنّ هذا المصدر يُستشف من مجموع الآيات.

بالطبع، إنّ هذا الحديث لا يعنى فسح المجال أمام كل من يدعى الكشف والشهود، بل إنّ لهما علائم سنشير إليها فيما بعد إن شاء اللَّه.

توضيحات

١- نماذج جمیلة من الکشف والشهود فی الأحادیث الإسلامیة

إنَّ الروایات التی کشفت عن مصدر المعرفة لیست بالقلیلة وقد وصلت إلی حد «الاستفاضة» حسب تعبیر علماء الحدیث، وقد أوردنا هنا نماذجاً من هذه الروایات:

١- ذکر فی تاریخ معرکة الأحزاب أنّ المسلمین عند حفرهم للخندق حول المدینة

---

(١). راجع تفسیر الأمثل، ذیل الآیه ١٩ من سورة مریم.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٦

(کوسیلة دفاعیة أمام العدو) خرجت علیهم صخرة کسرت المعول، فأعلموا النبی صلی الله علیه و آله، فهبط إلیها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بین لابتی المدینة، فکبر رسول صلی الله علیه و آله والمسلمون، ثم الثانیة کذلک، ثم الثالثة، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عمّا رأی من البرق، فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أضاءت الحیرة وقصور کسری فی البرقة الاولی وأخبرنی جبرئیل أنّ امتی ظاهرة علیها، وأضاء لی فی الثانیة القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنی أن أمتی ظاهرة علیها، وأضاء لی فی الثالثة قصور صنعاء، وأخبرنی أن امتی ظاهرة علیها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون» «١».

لم یصدق المنافقون هذه البشارة التی ساقها الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وأخذوا یستهزئون بقولهم: یا للعجب کیف رأی قصور الحیرة وقصور ملوک ایران والروم والیمن من المدینة وکیف بشر بالانتصار علی هؤلاء ونحن الآن محاصرین من قبل مجموعة من جیش اعراب مکة؟ إنّ هذا الکلام لا أساس له ولا حقیقة.

إلّا أنّ الحوادث المستقبلیة أثبتت صحة ما قاله الرسول صلی الله علیه و آله.

وقد یحمل البعض الشهود هنا علی معنیً مجازی، لکن لا مبرر لهذا الحمل مع إمکان الحمل علی المعنی الحقیقی.

٢- لقد ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام حول معرکة مؤتة (التی وقعت بین المسلمین والروم الشرقیة فی شمال الجزیرة): «أنّ المسلمین عندما ذهبوا للقتال بقیادة جعفر بن أبی طالب، فإنّ الرسول صلی الله علیه و آله کان یوماً فی المسجد وقد تسطحت له الجبال والارتفاعات فشاهد جعفراً یقاتل الکافرین ثم قال: قتل جعفر» «٢».

وقد جاءت تفاصیل اخری عن هذا الموضوع فی روایات اخری حدث أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله ارتقی یوماً المنبر بعد صلاة الصبح، فصوَّر للمسلمین ساحة المعرکة فی مؤتة بدقة، وتحدّث بالتفصیل عن شهادة «جعفر» و «زید بن حارثة» و «عبداللَّه بن رواحة» وکأنّه یری المعرکة بأم عینیه، والجدیر بالذکر أنّ التواریخ المعروفة- عند ایرادها لهذه القصة-

---

(١). الکامل فی التاریخ، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢). بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٥٨، ح ٩.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٧

نقلت هذا الحدیث عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إنّ الشهداء الثلاثة حُملوا إلی السماء علی سررٍ من ذهب ورأیت نقصاً فی سریر «عبداللَّه بن رواحة» قیاساً لسریری الشهیدین الآخرین، فسِئل عن سبب هذا؟ قال: مضیا، وتردد بعض التردد ثم مضی، فالتعبیر بالرؤیة فی الروایة له معنیً عمیق وهو نموذج من نماذج الشهود.

٣- وهناک حدیث فی تفسیر الآیة: «وَانَّ مِنْ اهْلِ الْکِتَابِ لَمَنْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا انْزِلَ الَیْکُمْ وَمَا أُنْزِلَ الَیْهِمْ . (آل عمران/ ١٩٩)

یقول: إنّ سبب نزول الآیة هو النجاشی ملک الحبشة، فانه عندما توفی أخبر جبرئیل الرسول بالأمر، فدعا الرسول المؤمنین لأنّ یصلُّوا

على أحد اخوتهم، فسألوا: من هو؟

أجاب: النجاشى.

ثم جاء الرسول إلى مقبرة البقيع، فتجلت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشى من المدينة، فصلّى عليه «۱».

۴- وقد جاء فى تاريخ ام الرسول آمنة عليها السلام، أنّها نزل عليها ملك عندما كان الرسول فى رحمها وقال لها: إنّ فى رحمك سيد هذه الامّة فقولى عند ولادته: إنى أعوذ باللَّه الأحد من شرِّ الحاسدين، وسمّيه «محمداً»، وقد شاهدت عند حملها أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور بُصْرى من أرض الشام! «۲».

وهذا الحديث يكشف عن إمكان حصول حالة الشهود لغير الأنبياء والأئمّة.

۵- وفى الحديث المعروف: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان فى بعض حيطان فدك وفى يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من أجمل النساء فقالت: يا ابن أبى طالب إن تزوجتنى أغنك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك ما بقيت، قال لها: «فمن أنتِ حتى أخطبك من أهلكِ؟».

قالت: أنا الدنيا: فقال عليه السلام: «ارجعى فاطلبى زوجاً غيرى فلست من شأنى فأقبل على مسحاته وأنشأ».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۴۱۱.

(۲). سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۱۶۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۸ لقد خاب من غرّته دنيا دنيةٌوما هى إن غرت قروناً بطائلِ

اتتنا على زى العروس بثينةٌوزينتها فى مثل تلك الشمائلِ

... الخ «۱».

وقد حمل البعض الرواية على «التشبيه» و «التمثيل» و «المجاز» لكنا إذا أردنا حفظ الظاهر، فمفهومها هو أنّ الدنيا تمثلت للإمام على عليه السلام فى عالم المكاشفة فى صورة امرأه جميلة وأجابها عليه السلام بالسلب.

وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك فى صورة امرأة مخادعة مع اختلاف بسيط عمّا نقل عن الإمام على عليه السلام «۲».

۶- وقد جاء فى أحوال الإمام السجاد عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبداللَّه بن الزبير فى الحجاز مستعرة والكل كان يترقب نهاية الأمر) أنّ الإمام عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر فى تجاه وجهى ثم قال: يا على بن الحسين ما لى أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق اللَّه حاضر للبر والفاجر، قلت:

ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر- أو قال قادر- قلت: ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول: فقال: مم حزنك؟ قلت: ممّا نتخوف عليه من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال: فضحك ثم قال: يا على بن الحسين هل رأيت أحداً دعا اللَّه فلم يجبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على اللَّه فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل اللَّه فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم غاب عنى» «۳».

۷- وفى حديث آخر للإمام نفسه عليه السلام يقول فيه: «كأنّى بالقصور وقد شيدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأنّى بالأسواق قد حفت حول قبره فلا تذهب الأيّام والليالى حتى سار إليه

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۴۰، ص ۳۲۸، ح ۱۰.

(۲). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۲۶ باب حب الدنيا و ذمها، ح ۱۲۰.

(۳). اصول كافى، ج ۲ باب التفويض إلى اللَّه، ح ۲.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٠٩

من الآفاق وذلك عند انقطاع ملك بنى مروان» «١».

٨- جاء فى أمالى الصدوق عن أحوال الحر بن يزيد الرياحى:

لما خرجت من الكوفة نوديت أبشر يا حُر بالجنة.

فقلت: ويلٌ للحر يبشر بالجنة وهو يسير إلى حرب ابن بنت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟! «٢»

٩- وقد جاء فى حديث معروف دار بين ام سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه و آله والإمام الحسين عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام أراها كربلاء ومحل شهادته «٣».

١٠- وقد نقلت حكايات متعددة عن العلماء العظام والمتقين والمؤمنين الصادقين فى مجال المكاشفات وذكرها هنا يطيل بحثنا- إلّاأنّه ينبغى القول بانها خرجت عن فحوى الخبر الواحد ووصلت إلى درجة الاستفاضة ويمكنها أن تكون مؤيداً جيداً لموضوعنا.

٢- كيف تُرفع الحجب؟

إضافة إلى الأحاديث السابقة التى تمثل نماذج عملية لمسألة الكشف والشهود، هناك تعابير فى الروايات تدل على أنّ الإنسان كلما ازداد إيمانه ويقينه زالت عنه الحُجُب والصفات الذميمة (التى اصطنعها الإنسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتكشفت له حقائق أكثر عن الكون إلى درجة تمكنه من النظر إلى ملكوت السموات والأرض كما نظر إبراهيم الخليل.

إنّ قلب الإنسان وروحه كالمرآة التى حال غبار المعصية والصدأ الذى تراكم عليها من انعكاس الحقائق، لكنها عندما تُجلى بماء التوبة، ويزول غبار المعاصى عنها، ويطهرُ القلب جيداً، فإنّ الحقائق ستسطع فيها ويكون صاحبها أمين أسرار اللَّه، فيسمع نداءاته التى لا

---

(١). بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ١١٤، كتاب المزار، ح ٣٦.

(٢). أمالى الصدوق، ص ٩٣، مجلس ٣٠.

(٣). مدينة المعاجز، ص ٢٢٤.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٠

يسمعها إلّامن اؤتمن.

ويمكن أن نجعل الأحاديث التالية شواهداً على ما قلناه!

١- يقول الرسول صلى الله عليه و آله فى ضمن حديث له: «لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت» «١».

٢- وقد جاء فى خبر آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً: «ليس العلم بكثرة التعلّم، وإنّما العلم نور يقدفه اللَّه فى قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغَيب، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء، قيل: يا رسول اللَّه هل لذلك من علامة؟ قال: التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٢».

٣- وقد وصف نهج البلاغة حُجَجَ اللَّه على الناس فى الأرض هكذا: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستدانوا ما استعوره المُترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها مُعلَّقة بالمحلِّ الأعلى أولئك خلفاء اللَّه فى أرضه والدعاة إلى دينه» «٣».

٤- وقد جاء فى حديث «ذعلب اليمانى» الخطيب النبه الذى كان من صحابة الإمام على عليه السلام: سأل الإمام يوماً هذا السؤال: «هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين»؟

أجاب الإمام: «أفأعبد ما لا أرى ؟!

فقال: «وكيف تراه»؟

فقال الإمام: «لا تـدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» ثم أضاف: «قريبٌ من الأشـياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين» «۴».

ليس مراد الإمام من إدراك اللَّه إدراك بالاستدلال العقلى، وهذا واضح، لأنّ هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة، فانّها تستدل على

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۵۹، ح ۳۹، باب القلب وصلاحه.

(۲). تفسير الصراط المستقيم، ج ۱، ص ۲۶۷.

(۳). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۴۷.

(۴). نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

وجود اللَّه بحركة آلة الغزل التى تحتاج إلى محرك، فكيف بالفلك العظيم والسموات والأرضين.

فالمراد- إذن- إدراك للَّهيفوق الإدراك الطبيعى، أى الشهود الباطنى، فانّه يرى اللَّه به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينيه. (فدقق).

۵- وقد جاء فى حديث معروف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لى الغطاء ما ازددتُ يقيناً» «۱».

أى أنّى أرى جميع الحقائق من وراء ستار الغيب، أراها بالشهود الباطنى، وبصيرتى تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه.

۶- قال الإمام على بن الحسين عليه السـلام: «ألا إنّ للعبد أربع أعيُن: عينان يُبصـر بهما دينه ودنياه، وعينان يُبْصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد اللَّه بعبد خيراً فتح له العينين اللتين فى قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته» «۲».

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث «۳».

۷- ونقرأ فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الرسول صلى الله عليه و آله رأى يوماً الصحابى «حارثة» فسأله عن حاله».

فاجابه حارثة: «يا رسول اللَّه مؤمن حقّاً»!

فقال رسول صلى الله عليه و آله: «لكلِّ شىءٍ حقيقةٌ فما حقيقة قولك؟».

فأجابه حارثـة: «يا رسول اللَّه عزفت نفسـى عن الـدنيا فأسـهرت ليلى وأظمأت هواجرى وكأنّى انظر إلى عرش ربى وقد وضع للحساب وكأنى انظر إلى أهل الجنه يتزاورون فى الجنة وكأنّى اسمع عواء اهل النار فى النار».

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «عبدٌ نوّر اللَّه قلبه أبْصَرْتَ فاثبت».

(۱). غرر الحكم.

(۲). خصال الصدوق، ص ۲۶۵، ح ۹۰.

(۳). بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۵۸، ح ۳۵.

فقال حارثة: «يا رسول اللَّه ادعُ اللَّه لى أن يرزُقنى الشهادة معك».

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اللهُمَّ ارزق حارثة الشهادة».

ولم تمضِ أيّام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاحـدى المعارك وكان معهم حارثـة فقاتل وقَتل ثمانيـة أو تسعة من الأعـداء ثم قُتِلَ شهيداً «۱».

٨- وقد جاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله نقل فى كتب أهل السنة: «لولا تكثير فى كلامكم وتمريج فى قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع» «٢».

إنّ هذه الأحاديث وأحاديث اخرى من هذا النوع، وضحت العلاقة بين الكشف الروحانى والإيمان واليقين، وبينت امكانية حصول الإنسان- بالتكامل المعنوى- على هذا الإدراك الذى لا نعلم عنه غير أنّه موجود فحسب.

٣- سبعة منامات صادقة فى القرآن المجيد

اشارة

تعتبر «الرؤيا الصادقة» احدى فروع الشهود والكشف، والمنامات الصادقة هى التى تتحقق وتطابق الواقع، فتُعد منامات كهذه نوعاً من الكشف.

إنّ الفلاسفة الروحيين- خلافاً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأنّ الرؤيا هى وليدة النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو الخوف من الامور المختلفة- وهولاء يعتقدون أنّ الرؤيا تنقسم إلى الأقسام التالية:

١- الرؤيا التى تتعلق بالذكريات والميول والآمال.

٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها ب «أضغاث أحلام» وهى نتيجة قوة الوهم والخيال.

٣- الرؤيا التى تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرار الإنسان، وبتعبير آخر أنّها شهود يحصل للإنسان وهو نائم.

---

(١). اصول الكافى، ج ٢، ص ۵۴ باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٣.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢، ص ٢٩٢.

لا دليل للفلاسفة الماديين على نفى القسم الثالث، بل لدينا قرائن كثيرة تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدّة نماذج حية لا تقبل الخطأ والمناقشة فى التفسير الأمثل «١».

والجدير ذكره أنّ القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعى:

١- تحدث القرآن فى سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأى نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت اللّه الحرام، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا، إلّاأنهم تصوروا أن الرؤيا هذه تحققت فى السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلّاأنّ الرسول طمأنهم بأنّ الرؤيا صادقة وستتحقق يوماً ما.

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا فى صدق الرؤيا بقوله:

«لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً».

(الفتح/ ٢٧)

تحقق المنام بجزئياته فى ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة فى تلك السنة ب «عمرة القضاء» لأنّ المسلمين كانوا قاصدين أداءها فى السنة السادسة، لكن قريش منعتهم منها.

رغم أنّ المسلمين دخلوا مكة (التى تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلّاأنّ ابهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد

صدق عليهم تعبير «آمنين» و «لا- تخافون» بالكامل فأدوا مراسم زيارة بيت اللَّه وبه تحقق منام الرسول صلى الله عليه و آله بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمرٍ كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الإسلام.

٢- وقد أشير فى سورة الاسراء إلى رؤيا اخرى للرسول صلى الله عليه و آله إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

---

(١). التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۶٠ من سورة الإسراء.

«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً». (الاسراء/ ۶٠)

وقد نقل مفسرو الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله رأى فى المنام قروداً ترتقى منبره وتنزل منه، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر، لأنّه يحكى عن الحوادث المفاجئة فى قيادة المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه و آله (إنّ الكثير فسّرَ المنام بحكومة بنى امية، حيث خلفوا الرسول- ظلماً- واحداً بعد الآخر وأفسدوا فى الخلافة، وكانوا فاقدى الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم فى الجاهلية) «١».

وادعى البعض أنّ هذه الرؤيا هى نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة، والرؤيا كانت فى المدينة وقبل واقعة صلح الحديبية فى السنة السادسة الهجرية.

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازى أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة فى حالة اليقظة، والآية تشير إلى مسألة المعراج «٢».

لكن هذا التفسير ضعيف لأنّ المعنى الأصلى واللغوى للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا فى اليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول.

أمّا المراد من «الشجرة الملعونة»، فقد ادعى البعض: إنّها هى «شجرة الزقوم» التى تنبت فى قعر جهنم طبقاً للآيه ۶۴ من سورة الصافات، وهى طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون طبقاً للآيات ۴۶ و ۴٧ من سورة الدخان.

وادعى بعض آخر: إنّها كناية عن اليهود العصاة، فانّهم كالشجرة مع ما فيها من غصون وأوراق إلّاأنّهم ملعونون عند اللَّه.

إلّا أنّها فُسِّرت فى كثير من كتب الشيعة والسنة ببنى امية، وقد نقل الفخر الرازى هذا

---

(١). تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣۶.

(٢). جاءت هذه الرواية فى تفسير القرطبى ومجمع البيان والصافى والكبير، وقد قال الفيض الكاشانى: إنّها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة.

التفسير عن ابن عباس المفسّر الإسلامى الكبير «١»، وهذا التفسير يتفق مع رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله بالكامل.

قد يقال: لِمَ لم يُشِر القرآن إلى الشجرة الملعونة فى القرآن المجيد؟ إلّاأنّ هذا الإشكال يُحلُ بالالتفات إلى لعن المنافقين بشدّة فى سورة محمد صلى الله عليه و آله الآية ٢٣، وبنى امية من طلائع النفاق فى الإسلام.

إضافة إلى هذا، فإنّ تعبير القرآن «نُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيرَا» يصدق عليهم بالكامل.

وقد جاء فى رواية أن عدداً من صحابة الإمام الصادق عليه السلام سألوه نفسه أو أباه عليه السلام عن المراد من الشجرة الملعونة فى الآية، فأجابهم: «بنى امية» «٢».

وقد نقل نفس المضمون عن أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك عن الإمام الباقر عليه السلام، وقد ذكر على بن ابراهيم الروايات الثلاث فى تفسيره «٣».

وقد نقل السيوطى فى تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا الرسول صلى الله عليه و آله، حيث فُسِّرت

الشجرة الملعونة فى بعضها ببنى امية وفى بعضها ببنى الحكم وبنى العاص، وكلهم من شجرة خبيثة واحدة «۴».

وعلى أيّة حال، فإنّ رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله تحققت بعد رحيله، وخلفته الشجرة الملعونة نسلًا بعد نسل، وكانوا بلاءً عظيماً على المسلمين، وامتحاناً كبيراً لهم.

٣- والرؤيا الصادقة الاخرى هى رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام فيما يخص ذبح اسماعيل عليه السلام، فانّه كان محلًا لامتحان عظيم للوصول إلى مقام الإمامة وقيادة الامة الرفيع،

---

(١). نقلها القرطبى عن ابن عباس فى تفسيره، ج ۶، ص ٣٩٠٢؛ ونقلها الفخر الرازى عنه أيضاً فى التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٧.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠، ح ٢٧٨.

(٣). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠ و ١٨١، ح ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨۶.

(۴). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ١٧۵.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١۶

فقد أُمر بذبح ابنه العزيز «اسماعيل»، رغم أنّ الأمر أوحى إليه وهو نائم، أى أنّ الايعاز كان مناماً لا شيئاً آخر، ولنقرأ ما يقوله القرآن فى هذا المجال:

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . (الصافات/ ١٠٢)

إنّ التعبير ب «أرى الذى هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل على أنّ ابراهيم عليه السلام كان يرى الرؤيا كراراً، بحيث حصل له اطمئنان بأنّ الأمر من اللَّه، ولهذا أجابه اسماعيل بهذا الجواب: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ .

ولهذا السبب نفسه جاء فى الآيتين: «وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا».

(الصافات/ ١٠۴- ١٠۵)

والحادث هذا، دليل واضح لأولئك الذين يقولون بامكانية عد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحى للانبياء والرسل، كما أنّه قد جاء فى بعض الروايات: «إنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءً من النبوة» «١».

وقد شكك بعض الاصوليين فى مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلّاأنّ كلامهم- وكما ذُكِرَ فى محله- يختص بالأوامر غير الامتحانية، أمّا فى الامتحانية فهو غير صادق، والتعبير ب «قد صدَّقَتْ الرؤيا» دليل على أنّ إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه بما جاء به من تهيئة المقدمات لهذا الإيثار الكبير.

۴- ومن الرؤى الصادقة فى القرآن، هى رؤيا يوسف فى بيت أبيه، حيث أشارت إليها الآيات الاولى من سورة يوسف:

«إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ . (يوسف/ ۴)

تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره: «يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ . (يوسف/ ۶)

يعتقد بعض المفسرين أنّ يوسف رأى هذا فى المنام وهو فى الثانية عشرة من عمره، وقد

---

(١). بحار الأنوار، ج ۵٨، ص ١۶٧ و ١٧٧ و ١٧٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢١٧

تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس على عرش الحكومة فى مصر، وجاءه اخوته مع أبويه خاضعين له، أو ساجدين للَّهشكراً، كما أُشير إلى ذلك فى نهاية السورة:

«وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّی حَقّاً». (یوسف/ ۱۰۰)

إنّ هـذا الحديث يحكی بوضوح عن إمكانية تحقق أحلام صادقة انعكست من قلب طاهر قبل أربعين سـنة رغم أنّه لم يُذكر العدد ۴۰ سنة فی آيات القرآن، إلّاأنّ المستفاد من قرائن الآيات أنّ الفاصل بين المنام وتحققه كان طويلًا جداً.

وجدير بالذكر هنا أنّ من ضمن البشائر التی بشر يعقوب بها يوسف هذه البشری

«وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ . (یوسف/ ۶)

وهـذه الجملـة (سواء عنت علم تعبير المنـام كمـا يعتقـده كثير من المفسـرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشـمل الخبرة والإحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها) «۱»، فانّهـا علی كـل حـالٍ دليل واضـح علی امكانيـة صـدق بعض الرؤی وتحققها عيناً وواقعاً فی الخارج.

۵ و ۶- المنامـان اللـذان رآهما صاحبا يوسف فی السـجن عنـدما كان مسـجوناً بـذنب طهارته، فيحكی اللَّه قصـتهما فی نفس السورة ويقول:

«وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّی أَرَانِی أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ انِّی أَرَانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الُمحْسِنِينَ .

(یوسف/ ۳۶)

فـدعاهما يوسف للتوحيـد وعبادة اللَّه قبل أن يُأوّل ما رأيا، ثم قال للـذی رأی أنّه يعصـر خمراً أی عنباً: إنّك تخرج من السـجن، وقال للذی رأی فوق رأسه خبزاً يأكل منه الطير:

إنّك سـتحكم بالإعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف فی بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصـر آنذاك حيث يحكم علی يوسف بالسـجن بـذنب العفـة والطهـارة، أن يطلق سـراح الـذی يسالم الحكومـة ويحضـر الخمر لطغاتها، أمّا الـذين يتحلون بروح الدفاع

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۱، ص ۸۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۸

عن المستضعفين ويعطون خبزاً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).

وعلی أيّـة حـال، فإنّ هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصـراحة يكشـفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصـدر للمعرفـة، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبّر ومفسر لها.

۷- رؤيا سلطان مصر التی جاءت فی نفس السورة، وهی نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكی القرآن هذه الرؤيا قائلًا:

«وَقَالَ الْمَلِكُ انِّی أَرَی سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ واخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِی فِی رُؤْيَایَ انْ كُنْتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . (یوسف/ ۴۳)

وبما أنّ حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له: «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

يحتمل أنّهم أرادوا طمأنة سلطان مصـر بحديثهم هذا (ينبغی الالتفات إلی أنّ ملك مصـر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عزيز مصـر هو- كما يقول بعض المفسرين- وزير الخزينة، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو «ريان بن وليد» واسم عزيز مصر «قطفيرعطفير» «۱».

فتـذكَّر عنـدها سـاقی الملـك الـذی اطلق سـراحه من السـجن بعـد أن رأی الرؤيا وأولها يوسف، فحكی القصـة للملك فبعث الملك شخصاً إلی يوسف كی يأوّل المنام، فأوله هكذا:

«قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَآ حَصَدْتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ الَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ الّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

(يوسف/ ۴۷- ۴۸)

وقد تحقق المنام بعد ذلك، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة فى يوسف عليه السلام، أطلقوا سراحه، وقد أدى به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سعتها وعمرانها.

---

(۱). نقل هذا المضمون فى التفسير الكبير للفخر الرازى، ج ۱۸، ص ۱۰۸ (وللتفصيل يراجع «اعلام القرآن»، ص ۶۷۳، كما قد صرّح «ابو الفتوح الرازى» أن نهاية يوسف وصوله إلى سلطة مصر» تفسير روح الجنان، ج ۶، ص ۴۰۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۹

النتيجة:

يستفاد من الآيات السابقة إمكانية كون بعض الرؤى مصدراً لإدراك بعض الحقائق، وبتعبير آخر، فإنّ مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل فى المنام كما تحصل فى اليقظة، وهذه الرؤى على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات السابقة):

۱- بعض الرؤى تتحقق فى الخارج عيناً من دون أى تغيير، مثل رؤيا الرسول، زيارته مع الصحابة لبيت اللَّه الحرام التى جاءت فى سورة الفتح.

۲- منامات تتحقق وهى بحاجة إلى تفسير وتعبير، وتتحقق بتفسيرها لا ـ بعينها، ولا ـ يفسرها إلّاالخبير بها، مثل المنامات الأربعة التى حصلت ليوسف ولصاحبيه فى السجن ولملك مصر، وقد ذكرت كلها فى سورة يوسف.

۳- الرؤيا التى فيها جانب حكم وإيعاز، وتُعدُّ نوعاً من الوحى يحصل عند النوم مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام.

بالطبع ليس مفهوم الكلام هذا أنّ كل منام يُعدُّ كشفاً أو شهوداً، بل إنّ كثيراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلام، وتفتقد لأىمعنىً، وهى رؤى ناتجة عن نشاط قوّة الوهم، أو عن الحرمان والكبت والمآسى وعدم الراحة والأذى

جج

سؤال:

قد يسأل البعض عن المنامات التى تتعلق بحوادث المستقبل، فهل هى نوع من العلم؟

أم هى (كما يعتقد فرويد العالم النفسانى المعروف) لا شىء سوى إرضاء للشهوات والميول المكبوتة والحرمان الحاصل للإنسان، فتتجلى له فى المنام مع تغيّر وتبدّل لخداع «الأنا» ولإرضاء الشهوة المكبوتة فإنّ الحلم إشباع خيالى لها، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عيناً فى الحلم (مثل رؤية عاشق لمعشوقته الفقيدة عيناً) وقد ينعكس فى منامه مع تغيير وتبديل، فيحتاج حينها إلى تعبير وتفسير.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۰

الجواب:

إنّ ما يقوله فرويد هو فرضية لا أكثر، وفى الحقيقة لا دليل على ما يدعيه أبداً، فقد تكون بعض المنامات مصداقاً لما يدعيه، أمّا كون الأحلام كلها من هذا القبيل فهذا ما لا دليل له عليه «۱».

نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة، ونعدها وسيلة للكشف أى كشف بعض الحقائق، وهذه حقيقة استفدناها من القرآن (الذى هو وحى الهى) بالدرجة الاولى وبالدرجة الثانية من التجارب التى حصلت فى هذ المجال، ليس المراد تلك

الحكايات التى لا سند لها، بل المراد الحوادث التى وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة فى عصرنا أو فى العصور الماضية، وقد نقلوا هذه المنامات فى كتبهم (وقد أشرنا إلى بعض من نماذجها الواضحة فى الجزء التاسع من التفسير الأمثل).

ومن هنا يعرف أنّه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا، بل ينبغى ضم قرائن من الخارج موضحة ولا تقبل النفى، لتصبح الرؤيا مصدراً مقبولًا للمعرفة.

۴- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية

قد نستغنى عن التذكير بأنّه كما يوجد كشف وشهود واقعى يحصل تارة بالإيمان واليقين الكامل، وتارة اخرى بالرياضات النفسية، فانّه يوجد كشف وشهود وهمى كثير، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالقاءات الشيطانية، فتتمثل فى ذهن الإنسان صور وحوادث لا واقع لها، إنّها

---

(١). لم يكتشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد، فلا يعلمون هل أنّ منشأه نشاط فيزيائى أم كيميائى أم كلاهما، أم ناشىء عن نشاط الجهاز العصبى، فإذا كان النوم نفسه لغزاً لم يُحل بعدُ، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التى هى أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة!

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢١

مجموعة أوهام لا أكثر، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذى يدعيه كثير من «الصوفية»، فإنّ المريد البسيط يعتقد فى بداية عمله (من جراء الإعلام والدعاية التى يتلقاها من البعض) أنّه ينبغى له أن يرى مرشده الحقيقى فى المنام، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع فى كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده فى عالم الرؤيا يزوره ويرشده (غالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب، وإذا لم يعينهم بالدقة فانّه يعين صفات ومميزات خاصة لهم).

قد يفقد هذا الصوفى توازن فكره الطبيعى من جراء الرياضات الروحية الشاقة وانحراف المزاج، فتزداد قدرة الوهم عنده، فيرى فى المنام يوماً أشخاصاً قريبين- من حيث الصفات والميزات- من الأشخاص الذين رسمهم فى ذهنه، وقد يتطابقون فى الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا فى عالم اليقظة، لأنّ عينى هذا السالك البسيط انّشدت إلى الطريق، واذنيه صاغيتان إليه دائماً فهو يتنظر دائماً أن ينفتح له باب من ذلك العالم: فتنمو هذه الفكرة عنده ليلًا ونهاراً، وقد تصنع قوة الوهم عنده- لا إرادياً- صوتاً ينقر اذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتخذها أساس اعتقاده.

كما أنّ الاستماع إلى المواضيع المؤنسة والمنشطة (التى قد تبين فى اطار إشارات جميلة وتتزامن مع ألحان مخدِّرة، يزيد من تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة.

إنّ تلك الفرقة من الصوفيين الذين يؤيدون «الوجد والسماع» «١»، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم، ويُعطَّل العقل عندهم، فيتركون الساحة فارغة لقوة الوهم، وأولئك الغارقون فى وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسيرون فى عوالم خيالية تتوقف سعتها على شدّة الوهم والخيال عندهم، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور، وجبل الطور، والسموات السبع والأرضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم إلى شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل أو تلك الصورة أمام أعينهم.

---

(١). المراد من السماع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة فى بعض مجالس الصوفيين، والمراد من‌الوجد، الذوق والشوق واللهفة التى تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٢

إنّهم یفرحون لهذه اللحظات کثیراً، وکأنّهم التقوا بالمراد وعانقوه، فیصرحون وتعلو أصواتهم، مما یزید ویفاقم هذه الحالۀ عندهم، ثم یرمون بحالۀ شبیهۀ بالاغماء، وبعدما یصحون ویهدءون من هذه الحالۀ، یحکون للناس ما رأوا ظناً منهم أنّه کشف.

إنّهم فی الحقیقۀ یسعون نحو السراب ظناً منهم أنّه ماء، ورغم عدم وصولهم إلی شیء، یبتلون بأمور بعیدۀ عن الحق والحقیقۀ.

وبعبارۀ مختصرۀ: لا یمکننا تصدیق کل من ادعی الکشف والشهود، وکذا لا یمکننا اعتبار کل تمثل وکل نداء إلهیاً واقعیاً، وذلک لأنّ هناک کشفاً شیطانیاً.

وقد جاء فی حدیث للإمام علی علیه السلام مع الحسن البصری: أنّ الإمام علیه السلام مر بالحسن البصری وهو یتوضأ فقال: یا حسن اسبغ الوضوء، فقال: یا أمیر المؤمنین لقد قتلت بالأمس اناساً یشهدون أن لا إله إلّااللَّه وحده لا شریک له وأنّ محمداً عبده ورسوله، یصلون الخمس، ویسبغون الوضوء، فقال له أمیر المؤمنین علیه السلام: قد کان ما رأیت فما منعک أن تعین علینا عدونا، فقال: واللَّه لأصدقنّک یا أمیرالمؤمنین لقد خرجت فی أول یوم فاغتسلت وتحنطت وصببت علیّ سلاحی وأنا لا أشک فی أنّ التخلف عن أم المؤمنین عائشه هو الکفر، فلما انتهیت إلی موضع من الخریبۀ نادانی مناد «یا حسن إلی این ارجع فإنّ القاتل والمقتول فی النار» فرجعت ذعراً وجلست فی بیتی، فلما کان فی الیوم الثانی لم أشک أنّ التخلف عن ام المؤمنین عائشه هو الکفر، فتحنطت، وصببت علیّ سلاحی وخرجت ارید القتال، حتی انتهیت إلی موضع من الخریبۀ فنادانی مناد من خلفی: «یا حسن إلی این مرۀً بعد اخری القاتل والمقتول فی النار» قال علی علیه السلام: صدقک افتدری من ذلک المنادی؟ قال: لا، قال علیه السلام:

ذاک أخوک ابلیس، وصدقک أنّ القاتل والمقتول منهم فی النار، فقال الحسن البصری: الآن عرفت یا أمیرالمؤمنین أنّ القوم هلکی «١».

إنّ نداءات کهذه أشیر إلیها فی القرآن بصفۀ وحی الشیاطین، حیث یقول تعالی فی الآیۀ:

«وکَذَلِکَ جَعَلْنَا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوّاً شَیَاطِینَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ الَی بَعْضٍ زُخْرُفَ

---

(١). احتجاج الطبرسی، ج ١، ص ٢۵٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٢٣

نفحات القرآن ج ١ ٢۶٩

الْقَوْلِ غُرُوراً». (الانعام/ ١١٢)

إنّها نوع من الامتحان للتمییز بین صفوف المؤمنین وغیرهم، فقد جاء فی الآیۀ: «وَانَّ الشَّیَاطِینَ لَیُوحُونَ الَی أَوْلِیَائِهِم . (الانعام/ ١٢١)

وبناءً علی ما تقدم، نری کتب الصوفیۀ ملیئۀ بهذا النوع من المکاشفات، مکاشفات غریبۀ وموحشۀ، ومردوداتها السلبیۀ کثیرۀ، نشیر إلی بعضٍ منها هنا بشکل مختصر:

١- ورد فی کتاب «صفوۀ الصفاء» فی شرح أحوال الشیخ صفی الدین الأردبیلی، بقلم أحد مریدیه ما مضمونه: أنّ رجلًا من ذوی المکاشفات أخبر الشیخ بأنّه رأی فی عالم الرؤیا أنّ أکمام الشیخ امتدت من العرش إلی الثری فقال له الشیخ: إنّ رؤیاک هذه تتناسب مع طول أناتک وصبرک!

٢- کتب محی الدین بن عربی فی کتابه «مسامرۀ الأبرار» إنّ الرجبیین لأشخاص مرتاضون بریاضات خاصۀ، ومن صفاتهم أنّهم یرون الرافضین (الشیعۀ) فی حالۀ الکشف فی صورۀ خنازیر.

٣- وکتب الشیخ عطار فی کتابه «تذکرۀ الأولیاء» عن «با یزید البسطامی»: طِفْتُ البیت فترۀ، وعندما وصلت إلی الحق، رأیت أنّ الکعبۀ تطوف حولی! ... إنّ اللَّه بلغ بی إلی درجۀ حیث أستطیع أن أری الخلق جملۀ بین اصبعی!! «١».

۴- وقد جاء فی نفس الکتاب، أنّ با یزید قال: عرض علیَّ الحقُّ الفی مقامِ عنده وفی کل مقام سلطان، وما قبلتُ «٢».

إنّ هذه ادّعاءات لم تُسمع من نبيٍ مرسل ولا من إمام معصوم، بل إنّ أدعيتهم ومناجاتهم فى جنب بيت اللَّه التى تكون فى غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو- قطعاً- أوهام وتخيلات شيطانية ترتسم فى أذهان البعض، لأسباب وعوامل مختلفة،

(۱). تذكرة الأولياء، ص ۱۰۲.

(۲). المصدر السابق، ص ۱۰۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۴

أشرنا إلى بعضها سابقاً، وإنّ سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول آمال الشخص وتخيلاته.

سؤال:

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو: هل من طريق لتمييز المكاشفات «الرحمانية» من «الشيطانية» و «الحقيقية» من «الوهمية» أم لا؟

الجواب:

نعم توجد ثلاث علامات يمكن من خلالها التمييز- الإجمالى- للمكاشفات الشيطانية من الرحمانية، وهى: إنّ الرحمانية اضافة إلى كونها يقينية وقطعية تقترن بمستوى عالٍ من الإيمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح، بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار لقول من يدعى المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات.

ولقد قرأنا فى رواية مضت أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «العلم نورٌ يقذفه اللَّه فى قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمل البلاء، قيل: يا رسول اللَّه وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» «۱».

ثم إنّ المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وفى نفس الاتّجاه الذى يتجه إليه كلام اللَّه والمعصومين عليهم السلام، ولا تميل قيد أنمله عن جادة الاطاعة الربانية، وغير ملوّثة بأدنى إثم أو ذنب.

(۱). تفسير الصراط المستقيم، ج ۱، ص ۲۶۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۵

وثالثاً، إنّ محتوى المكاشفات الحقيقية يتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملًا، وتكون بعيدة عن الامنيات والأوهام غير المعقولة، فالذى يقول: «إنى رأيت الرافضية- مكاشفة- كالخنازير»، فى الحقيقة رأى نفسه فى مرآة ذاته، والذى يقول: «عندما وصلت إلى الحق، فرأيت بيت اللَّه يطوف حولى» فانّه مُصاب بوكع فى رأسه، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستغنياً عن الطواف، ويرى الطواف أدنى من شأنه، بينما الرسول صلى الله عليه و آله بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك، وقد حج حتى فى آخر سنة من عمره الشريف وأدى المناسك.

وآخر الحديث فى الكشف والشهود هو هذا:

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ للمعرفة مثل «العقل» و «الحس» و «التاريخ» بل إنّه مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صعبة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۷

حُجُب المعرفة وآفاتها

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۹

حُجُب المعرفة وآفاتها

تمهيد:

فى بحثنا حول طرق العلم والمعرفة تمكّنا من اجتياز قسم من محطات هذه الطرق وقد سلمنا بوجود واقعيات خارج إطار الذهن، وقلنابان امكانية إدراك تلك الواقعيات لدى الإنسان هو شيء معقول إلى حدٍ ما، وقد عرفنا بدقة مصادر المعرفة الستة.

كما علمنا أن خمسةً من مصادر المعرفة أى «الحس» و «العقل» و «الفطرة» و «التاريخ» و «الوحى» عامة ويستطيع الجميع الاستعانة بها للوصول إلى المعرفة المرادة، إلّاأنّ المصدر السادس وهو الشهود الباطنى مصدر خاص بفريق من المؤمنين وأولياء اللَّه، ولا يتمتع بها الجميع.

بقى محطتان ينبغى العبور منهما للوصول إلى المراد، الاولى «موانع طرق المعرفة»، والاخرى «ممهدات المعرفة»، والبحث هنا ينصب على الموانع.

فمما لا شك فيه: أنّ العين لوحدها لا تكفى لرؤية الموجودات والأشخاص، بل ينبغى أن لا يكون هناك حجاب أو مانع يحول دون الرؤية، فلو كان هناك دخان أسود أو غبار أو ضباب غليظ يحول بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فانّا لا نرى الشيء الذى أمامنا وحوالينا مهما كان قربه منّا، فضلًا عن البعيد، فالشمس التى تنير كل ارجاء العالم بنورها الساطع تُحجب رؤيتها عنا إذا حالت الغيوم بينها وبيننا.

فإذا استفاد شخص من نظارة سوداء قاتمة السواد، فطبيعى أنّه لا يرى شيئاً، وإذا استفاد من نظارة ملونة فانّه سيرى الأشياء ملونة (حسب لون نظارته)، وإذا كانت عدستا نظارته

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۰

غير مصقولتين جيداً فانّه سيرى الأشياء معوجة، وإذا كان مبتلياً بمرض اليرقان فانّه سيرى الأشياء صفراء، وإذا كان أحولًا فانه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع.

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة، وقد تحصل موانع فى فهم التاريخ وحتى الوحى وكلمات المعصومين عليهم السلام، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التى تحصل للإنسان فى مصادر المعرفة الاخرى، ومن هنا نفهم أهميّة بحث موانع المعرفة وندرك أهميّة العلم بها للوصول إلى المعرفة.

وبما أنّ القرآن منطلق بحثنا فى التفسير الموضوعى، فنسعى لمعرفة الموانع والحجب التى ذكرت فيه بالدرجة الاولى

لقد ورد البحث فى القرآن حول موانع المعرفة بنحوين: الأول بحوث كلية و «منذرة» والثانى: بحوث جزئية و «تعليمية»، ولنتناول الآن البحوث الكلية.

حُجُب المعرفة:

نُمعن خاشعين أولًا إلى الآيات التالية:

۱- «افَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً». (فاطر/ ۸)

۲- «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام/ ۴۳)

۳- «فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ». (آل‌عمران/ ۷)

۴- «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين/ ۱۴)

۵- «لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِيْنَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ . (الحج/ ۵۳)

۶- «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرَاً». (الاسراء/ ۴۶)

۷- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُون . (البقرة/ ۸۸)

۸- «وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ . (الأعراف/ ۱۰۰)

۹- «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التوبة/ ۸۷)

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۱

۱۰- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». (البقرة/ ۷)

۱۱- «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً». (الجاثية/ ۲۳)

۱۲- «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد/ ۲۴)

۱۳- «فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

۱۴- «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ اضَلُّ اولئِكَ هُمُ الْغَافِلونَ . (الأعراف/ ۱۷۹)

شرح المفردات:

قبل كل شيء ينبغي الخوض في البحث عن المفردات المختلفة والظريفة التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت إلى حجب المعرفة وحرمان الإنسان منها، كلٌّ منها تشير إلى مرحلة من مراحل انحراف ذهن الإنسان وحرمانه من المعرفة، فتبدأ بالمراحل الأضعف، وتنتهي بمراحل أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته على التمييز، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان- من جرائها- مَلَكاً بريئاً، والقُبح حُسناً، والباطل حقّاً!

ج ج

إنّ «زيغ» تعني- كما يقول كثير من أئمة اللغة- الانحراف، أو الانحراف عن الحق والصواب، ولهذا جاء في القرآن: «رَبَّنَا لاـ تُزِغْ قُلُوبَنَا». (آل عمران/ ۸)

و «رَانَ» من مادة «رَيْن» (على وزن عَين) وهو الصدأ الذي يصيب بعض الفلزات. هذا ما قاله الراغب في مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: «إنّه قشر أحمر يترسب من الهواء ويظهر على سطح بعض الفلزات مثل الجديد»، وهذا الصدأ علامة للإستهلاك والتلف وزوال

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۲

شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسّر البعض هذه المفردة ب «غلبة أمر على أمرٍ آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

وقد قيل للشراب المسكر «رَيْنه» لأنّه يتغلب على العقل «۱».

«الوَقْر»: على وزن (عَقل) هو الثقل في السمع بدرجة يصعب السمع بها.

أمّا «الوِقْر» على وزن (فِكر) فهو الثقل الذي يوضع على ظهر الإنسان أو رأسه، كما يقال «وِقْر» للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «ذي وقار».

«الغشاوة»: تطلق على كل شيءٍ غطّى شيئاً آخر، ومن هذا الباب قيل للستارة غشاوة، وقد اطلق، لفظ «غاشية» على يوم القيامة من حيث إنّ الخوف الناشيء منها يغطي جميع الناس ويخيّم عليهم، وقد اطلقت هذه المفردة على الليل الأظلم كذلك لأنّه كالستار يغطي الأرض، كما اطلقت على «الخيمة» كذلك.

«أكِنة»: جمع كِنان، وفي الأصل تعني غطاء يُستر به شيء، و «الكِنّ» على وزن (جِن) يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء، وقد أطلقت هذه المفردة على البيت أو على أي شيءٍ يحفظ الإنسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكِنة على القلوب يعني: سلب قدرتها في

التمييز.

«الغُلْف»: على وزن (قفل) جمع «أغلَف» ومن مادة «غِلاف» وتعنى غلاف السيف أو غلاف أى شىء آخر، و «قلوب غلف» تعنى قلوباً لا تفهم ولا تعى الحقيقة، وكأنها مُغلَّفة.

«قَسَتْ» من مادة «قَسْوَة» على وزن (مرْوة)، وَالقساوة تعنى الصلابة والغلظة وفقدان المرونة، ويقال للفضة غير الخالصة «قسّى»، والقلوب القاسية هى غير اللينة والغليظة تجاه الحق والعدالة.

و «نَطْبع»: من مادة «طَبْع» ويعنى الختم أو النقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه فى مجال المسكوكات الذهبية والفضية، ويقال للخاتم الذى تُختم به الكتب والرسائل

(۱). تفسير الفخر الكبير ذيل الآية ۱۴ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۳

طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة فى مجال العقل فتعنى أنّه مُغطّى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعى شيئاً، وكأنّ أبوابه مغلقة ومختوم عليها، أمّا مفردة «طَبَع» فتعنى الصدأ الذى يعلو السيف كما تطلق على المعاصى والذنوب التى تعلو القلب وتغطيه.

و «الخَتْم»: يعنى الانتهاء والفراغ من الشيء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها، قيل لوسيلة الختم خاتم، وفى الماضى كان كثير من الناس ينقشون أسماءَهم على فصوص ما يتختمون به، فيختمون بها الرسائل، ولهذا اطلق على خاتم اليد خاتماً.

وكان وما زال العرف (إذا أرادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب أولًا بحبل أو قفل، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزج على القفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة، بحيث إذا أراد شخصٌ فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأنّ يكسر الختم. إنّ استعمال القرآن لهذه المفردة فى مجال العقول، إشارة إلى أنّها عقول مقفلة ومختوم عليها ولا تعى شيئاً بدرجة لا يمكن أن تحصل على بصيص للوصول إلى طريق العلم والمعرفة.

جمع الآيات وتفسيرها

النفوذ التدريجى لآفات المعرفة:

(الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأقفال):

كما قلنا سابقاً: إنّ أهميّة بحث «موانع المعرفة» تستدعى عرض الموضوع فى مرحلتين:

المرحلة الاولى ونبحث فيها- إجمالًا- عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها على العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، إلى درجة تنتهى إلى تعطيلها.

المرحلة الثانية: ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كلٍ من هذه الموانع والآفات، وللقرآن بحث واسع تربوى وجذّاب فى هذا المجال.

ولنبدأ أولًا من المرحلة الاولى فممّا تجدر الإشارة إليه، هو أنّ القرآن تحدث عن موانع

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۴

المعرفة والآفات ونفوذها التدريجى والغامض، بشكلٍ عرّف سالكى طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملًا، وأنذرهم كراراً بأن لا يفنوا عمرهم فى السعى نحو السراب ظناً منهم أنّه ماء، وبعد سنوات من السعى الحثيث من أجل الوصول إلى الحقيقة ينتهون إلى الباطل.

ج ج

والآن نبحث معاً الآيات المذكورة:

الحديث في الآية الاولى والثانية يدور حول تزيين الأعمال، فتارة يزينها الشيطان للإنسان (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون ذهنيات الإنسان ونفسه أو عوامل اخرى هي التي تزين للإنسان سوء أعماله (كما جاء ذلك في الآيـة الاولى، حيث إنّ الفعل فيها مبنى للمجهول) فقالت: «افَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ» فإنّ الأول يتجه نحو الهاوية والثانى نحو الصراط المستقيم، وإذا ما صدر منه عملٌ سيءٌ أسرع إلى التوبة وجبران ما عمل.

وتضيف الآية الثانية: إنّ قلب الإنسان يقسو في المرحلة الاولى ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنةً أمامه، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة، بل قد يفرحون ويتباهون بها، ويصرون على منطقيتها وصحتها.

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب ادعوا أكل الذئب له، وأنّهم صادقون في كلامهم.

فأجابهم أبوهم: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً». (يوسف/ ١٨)

أي ظننتم أنّكم أحسنتم عملًا بهذه الجريمة، وانكم ستحلون محل يوسف في قلبي، وأنّ يوسف انتهى أمره إلى الأبد، غافلين عن أنكم توطئون بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه، وأنّ مكانه سيبقى فارغاً في قلبي حتى أرى الفقيد مرة اخرى

وممّا يستحق الإشارة إليه هو أنّ القرآن ينسب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣۵

لنفس الإنسان، وتارة يأتي التزيين في صيغة فعل مبني للمجهول وتارة ينسبه إلى اللَّه تعالى كما جاء ذلك في الآية: «انَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ اعمَالَهُمْ . (النمل/ ۴)

هذه ترجع إلى أنّ مقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الإنسان، فيتمسك بها الشيطان ويفعل فعلته، وبما أنّ اللَّه مسبب الأسباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقتضي حكمته بأن يبتلي البعض بمصير كهذا وما أسوء حال الذي تتمثل السيئات أمامه حسنات!

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الاولى لانحراف القلب، وبعد تقسيمها للآيات إلى محكمات (وهي ذات المفاهيم الواضحة) ومتشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) قالت: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا»، فالراسخون في العلم يفسرون المتشابهات بالمحكمات، واما الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنّهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير نواياهم غير الخالصة، ولهذا نرى كثيراً من المنافقين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المنحرفة يستغلون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات اللَّه بالكامل، ويبررون بدعهم بالاستعانة ب «التفسير بالرأي» والاستعانة بالآيات المتشابهة، وبتعبير آخر: بما أنّ قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات اللَّه منحرفة أيضاً، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.

ج ج

والآية الرابعة تشير إلى الصدأ والرين الذي يعلوا القلوب، إنّه الغبار الذي يعلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر، ويغطي الصدأ القلب كله،

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٣۶

حيث قالت الآية: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون فلا عجب في عدم تمكّنهم من رؤية الحقيقة.

ج ج

وتحدثت الآيةُ الخامسةُ عن تفاقم الحالةُ السابقةُ بحيث تتبدل إلى مرض روحى، فبعد إشارتها إلى الالقاءات والوساوس الشيطانيةُ حتى للأنبياء والمرسلين قالت: «لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .

نعم، إنّ هـذه القلوب التى لاـ تستلذ بطعم الحقيقـةُ، بسبب مرضـها، وحلاـوةُ الحقيقـةُ عنـدها كالمرارةُ، على اسـتعداد لقبول وسوسـةُ الشياطين.

وممّا يلفت النظر هنا أن جملةُ «فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ، تكررت اثنا عشـر مرّةُ فى القرآن، ممّا يكشف الأهميّةُ التى أولاها اللّه لهذه المسألةُ، مع الالتفات إلى أنّ أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصُرّح بذلك فى عدد منها «۱».

إلّا أنّ المرض جاء فى بعض من هـذه الآيات بمعنى «الشـهوات والميول والهوى ، كما هو الحال فى الآيـةُ: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَولِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . (الاحزاب ۳۲)

وعلى أيّـةُ حـال، فـإنّ المسـتفاد من الآيات هو أنّ الإنسان كما يصاب جسـمه بامراض، كـذلك روحه فانّها قـد تصاب بامراض سـببها «النفاق» تارةُ و «الأهواء والميول» تارةُ اخرى، وتغيّر عند عروضـها- ذائقةُ روح الإنسان بالكامل، كما نرى ذلك فى أمراض الجسم فقد تُغير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذيةُ الشاذةُ والكريهةُ ولا يستلذ بالأكلات اللذيذةُ والمفيدةُ، فإنّ إنساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعى الامور وفهمها.

ومن المؤسف أنّهم كلما اسـتمروا فى طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض، فإذا كانوا فى مرحلةُ الشك، فسيتفاقم عندهم ويشتد ويصل تدريجياً إلى مرحلةُ الانكار ومن الانكار

---

(۱). الأنفال، ۴۹، والأحزاب، ۱۲ و ۳۲.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۷

إلى مرحلـةُ أخطر وهى الاسـتهزاء ومخالفـةُ الحق، يقول القرآن فى هـذا المجال: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . (البقرةُ/ ۱۰)

ج ج

تحـدثت الآيـةُ السادسـةُ عن جعـل الأكنـةُ والحجب على القلوب، وليس حجاباً واحـداً بل حُجب وأكنـةُ وذلك للحيلولـةُ دون فهمهم القرآن، حيث جاء فيها: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقْرَاً».

ذكر بعض المفسـرين أنّ التعبير بالأكنةُ يدلّ على تعدد الكِنان «۱»، وممّا لا شك فيه أنّه لم يجعل وقر فى آذانهم الظاهريـةُ بل الروحيةُ كى لاـ يسـمعون من الحق شـيئاً، كمـا لم تجعـل الأكنـةُ على القلوب التى هى وسـيلةُ لضـخّ الـدم فى الأوعيـةُ، بـل جعلت الأكنـةُ على أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسـرين- عند الإجابةُ عن هذه المسألةُ- فى إشكال، فتارةُ قالوا: إنّها معجزةُ حيث كان الرسول صلى الله عليه و آله يختفى عن انظار اعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كى لا يؤذوه صلى الله عليه و آله، وتارةُ قالوا، إنّ اللّه يمنع لطفه عن أشخاصٍ كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنى جعل الأكنةُ على القلوب والوقر فى الآذان.

إلّا أنّ ظاهر هـذه الآيـةُ (التى تماثل آيات اخرى من القرآن) شـىء آخر، وفى الحقيقـةُ أنّ هذه اسـتعمالات مجازيةُ فى حق المعاندين والمتعصبين والمغرورين والغارقين فى الإثم، وبتعبير آخر: أنّ حرمانهم من إدراك الحقيقـةُ بسـبب صـفاتهم الرذيلـةُ وأفعالهم القبيحةُ، فقد جعل اللّه هذه الميزةُ فى هذه الأعمال، فهى كخاصيّةُ القتل بالنسبةُ للسم، فلا يُلام صانع السم وشاعل النار إذا تناول شخص ما سماً أو ألقى نفسه فى النار فمات، فانّه فى مورد كهذا ينبغى لوم الذى القى نفسه فى النار والذى تجرع السم فقط.

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول صلى الله عليه و آله أو الأنبياء الآخرين، حيث كانوا

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۱۵، ص ۸۲.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۸

يقولـون: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُون ، نعم لعنهم اللّه بكفرهم، وأبعـدهم عن رحمته، وأنّ أشخاصـاً كاليهود كيف يمكنهم أن يذوقوا حلاوة الحقيقة.

قـد يكون التعبير ب «الغلاف» يختلف عن التعبير ب «الأكنة»، وذلك لأنّ الغلاف يستر المغلّف ويغطيه من جميع الجهات، بينما يغطى السـتار جهة واحدة من المستور، وبتعبير آخر: تارة تصيب الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده، وتارة اخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها فى غلاف يحول دون المعرفة.

نعم، كلما تلوّث الإنسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد قلبه وروحه من المعرفة وحُرِم منها اكثر.

ج‌ج

وتحدثت الآية الثامنة والتاسـعة عن الطبع على القلوب الذى يحول دون المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سـبباً لعدم السـمع «فَهُمْ لَايَسْـمَعُونَ ، واعتبرت الآية التاسـعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم «فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ ، والمراد فى الموردين واحد، فكما قلنا: إنّ المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعى والفهم.

وهـذه المرحلـة أشـدّ من المراحـل السابقـة، فالمرحلـة الاولى هى جعل الأكنـة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفى النهايـة يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أى شىء فيها، كما ذكرنا ذلك فى بحث شرح المفردات.

طبعـاً: إنّ ابتلاءهم بهـذا المصير ليس اعتباطيـاً، بـل لأسـباب أشارت إليها الآيـة السابقـة حيث قالت: «وَ اذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التّوبه/ ۸۶- ۸۷)

إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب فى الطبع على القلوب.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۹

وآيـة اخرى أشارت إلى سـبب آخر من أسـباب الطبع، حيث قالت: «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم . (الاعراف/ ۱۰۰)

أى أنّهم يذنبون رغم رؤيتهم وعلمهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهى من جراء ذنوبهم، فطبع على قلوبهم.

وممّا يذكر هنا أنّ الطبع جاء فى الآية الثامنة بصـيغة المضارع «نطبع» وفى التاسعة بصيغة الماضى «طبع» وهذا تلميح إلى أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.

يقول بعض المفسرين: إنّ المراد من «الطبع» فى مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذى يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت وباقٍ، لا يتغير بسهولة «۱»، فانَّ نَقْشَ الكفر والنفاق والإثم نُقِشَ على قلوبهم فلا يمحى بسهولة.

ج‌ج

وتحدثت الآية العاشـرة والحادية عشـرة عن «الختم» وكما قلنا سابقاً فى شرح المفردات: إنّ الختم يعنى الانتهاء والفراغ من شىء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها اسـتعملت هذه المفردة هناك أيضاً، وختم الشىء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم على القلوب والأسـماع والابصار فى الآيات، هو سـلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشـر وذلك بسـبب أعمال أصـحابها وتصـرفاتهم، ولهـذا يذكر القرآن فى الآية السابقة: «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة/

۶)

المسلم به هو أنّ هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم، أى أولئك الذين غرقوا بذنوبهم إلى درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء، وإلّا فالنبى أُرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين.

والجدير ذكره هنا هو أنّ الآيات تحدثت عن الختم على الأبصار والسمع كما تحدثت

---

(۱). تفسير المنار، ج ۹، ص ۳۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴۰

عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها إلى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أى قد يتعطل الإدراك الحسى كما يتعطل العقلى، وكما تعلم أنّ أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الإدراكين، وحتى حقانية الوحى ودعوة الأنبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فإنّ طرق الهداية والنجاة ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم وهذا ما أرادوه لأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين.

وقد جاء هذا التعبير فى مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى فى الآية: «اولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . (النحل/ ۱۰۸)

والآية التى سبقت الأخيرة أشارت إلى أن هذا الأمر ليس عاماً وشاملًا لجميع الكفار، بل يختص بمن شرح صدره للكفر، حيث يقول تعالى «وَلَكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً».

(النحل/ ۱۰۶)

ج ج

وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التى قد تكون أشد من الختم «۱»، حيث قالت: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» أى أن آيات القرآن تنفذ فى القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأنّ منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة فى التعبير، والعمق والدقة فى التحليل، وهو نور وضياء خاص ينفذ فى قلب كل مؤهل ولو بأقلّ تأهيل، ويستحوذ على القلوب ويهز الضمائر، رغم هذا فانه لا ينفذ فى قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم.

إنّ «أقفال» جمع «قفل» ومن مادة «قُفول» ويعنى الرجوع، وبما أن كلَّ من أتى باباً مقفولة رجع، استعملت هذه المفردة فى هذا المجال.

إنَّ التعبير ب «الأقفال» قد يكون إشارة إلى تعدد أقفال القلب بحيث إذا ما فتح قفل بقيت اقفال اخرى، وهذه فى الحقيقة أسوأ مرحلة وأشدها من مراحل حرمان إدراك الحقائق.

---

(۱). وقد أشار الفخر الرازى فى تفسيره الكبير إلى هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴۱

ويلاحظ هنا عدم اضافة «قلوب» إلى الأقفال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة إلى أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو إضافة «الأقفال» إلى «القلوب» وكأنّ قلوبهم أهل للأقفال فقط لا لشىء آخر.

ج ج

وفى الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالى «انَّهَا لَاتَعَمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعَمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِى الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

أى أنّ الحاسة الباصرة إذا فقدت فهذا ليس بعمى لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها، وإنّما الشقاء والبؤس والتعاسة فى القلوب إذا عميت، فعمى القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والإنسان بنفسه يُعمى قلبه، ولقد أثبتت التجربة أنّ الإنسان إذا ما جعل عصابة على عينيه أو مكث فى ظلام لمدّة طويلة، فإنّه سيفقد باصرته تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق،

أو يمكثون مدّة طويلة في ظلمات الجهل والغرور والإثم فإنّ قلوبهم ستعمى، وتكون غير قادرة على إدراك أي حقيقة.
يُشكِكُ البعض أنّه لا يمكن أن يراد من القلب (الذى في الصدر ويضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن) بل المراد العقل والروح.
إلّا أنّه بملاحظة استعمال «الصدر» بمعنى الذات والفطرة يتضح لنا أنّ المراد من «القُلُوبُ الَّتِى فِي الصُّدُورِ» هو الإدراك العقلى المودع في طبيعة الإنسان.
إضافة إلى هذا، فإنّ القلب أول عضو في بدن الإنسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وإدراكات الإنسان، نلاحظ أنّ اتخاذ قرار مهم، أو حصول حالة غضب شديدة، أو الاحساس بالحب القوى تجاه شخص ما يُزيد من دقات القلب، فإذا استعمل القلب الظاهرى كناية عن العقل، فلأجل العلاقة الوثيقة التى بينه وبين الروح «۱».

جج
وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الإنسان من المعرفة،

---

(۱). للمزيد من العلم راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۷ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۲

والتى يتعطّل فيها العقل والفطرة والعين والاذن عن العمل بالكامل، فيهوى الإنسان إلى مستوى الأنعام بل أضلّ.
والآية تلميح إلى فريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ اضَلُّ اولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .
وعليه، فانهم فقدوا «هويتهم الإنسانية»، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم إلى شقاء جهنم التى أُعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم، وهو مصير صنعتهُ نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم.

النتيجة الأخيرة:

إنّ في القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الأربع عشرة التى ذكرناها في أول هذا الفصل، وانتخبنا هذه الأربع عشرة للمواصفات التى تتحلى بها، وقد انتهينا إلى حقيقة واضحة وهى أنّه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفطرة والحس، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تترك الإنسان في ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية.
وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجي لجميع مراحله مع الاستشهاد بآيات القرآن، ولا ندعى أنّ الترتيب الطبيعى لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذى جاء في الآيات عيناً، بل نقول: إنّ الآيات المذكورة قد بيّنت نفوذ الآفات في جميع المراحل.
وما أجمل تعبير القرآن في هذا المجال، وما أدقه؟ فتارة يتحدث عن العوامل الخارجية مثل «تزيين الشيطان» و تارة يتحدث عن انحراف القلب والفكر، وأُخرى عن صدأ القلوب، وحيناً عن تحول هذا الانحراف إلى مرضٍ مزمن.
وحيناً عن الأكنة المجعولة على القلوب.
نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۳
وتارة عن تغلُّف القلوب بالكامل.
وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها.
و اخرى عن وضع القلوب في أوعية وختم تلك الأوعية.
و احياناً عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر.

و احياناً اخرى عن تقفل القلوب.

وتارة عن العمى الكامل.

وأخيراً عن سلب الإنسان هويته الإنسانية وإسقاطه نفسه إلى درجة الأنعام بل إلى درجة أدنى من ذلك.

أما دواعى هذه المآسى والمصائب؟ فهو ما نتناوله فى بحثنا اللاحق، لأنّ الهدف من بحثنا الماضى كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة إجمالية.

ثم نصل إلى مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرين والوقاية من الوصول إلى مرحلة لا مخرج ولا نجاة منها.

وننهى بحثنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ لك قلباً ومسامع وإنّ اللّه إذا أراد أن يهدى عبداً فتح مسامع قلبه، وإذ أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول اللّه عزَّوجلَ «عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»» «۱».

ج ج

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۱.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۵

حُجُب المعرفة وآفاتها

«بالتفصيل»

۱- الصفات التى تحول دون المعرفة

۲- الأعمال التى تحجب عن المعرفة

۳- الحُجُب الخارجية

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۷

حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل)

تمهيد:

كان الحديث فى البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال.

وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» المسببة لهذه الظاهرة المؤلمة التى يمكنها أن تؤدّى بالإنسان إلى السقوط إلى درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الامور التى تسبب ظهور الصدأ على قلب الإنسان، وجعل الوقر فى الاذان، والعمى فى القلب، واختلال توازن العقل، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق أو رؤيته معكوساً!

تابع القرآن هذه المسألة المهمّة فى آيات عديدة وبيّن العلل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل فى ثلاثة أقسام:

۱- الصفات التى تحول دون المعرفة أى الصفات والأخلاقيات التى يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية.

۲- الاعمال التى تحجب عن المعرفة أى السلوك والأعمال التى تسوّد مرآة العقل.

۳- الحجب الخارجية أى العوامل الخارجية التى تؤثر على فكر الإنسان وعقله وعواطفه وفطرته.

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلًا على حده (وأؤكد هنا على أننا نطرح العلل التى وردت فى القرآن الكريم بوضوح فقط).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٤٩

١- الصفات التی تحول دون المعرفة

اشارة

إنّ هذه الصفات التی ذكرت فی القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة اخرى عبارة عن:

١- حجاب عبادة هوى النفس

اشارة

قبل كل شیء نُمعن خاشعين للآيات التالية:

١- «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُون . (الجاثيه/ ٢٣)

٢- «... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُون* وَحَسِبُوا أَلَّا تكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِم ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصيْرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة/ ٧٠- ٧١)

٣- «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ الَيْكَ حَتَّى اذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ مَاذا قَالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . (محمد/ ١٦)

شرح المفردات:

«الهوى بمعنى رغبة النفس وميلها إلى الشهوات ويقال إنّها مشتقة من «الهوى» الذی يعنی السقوط من الارتفاع، وذلك لأنّ الهوى يسبب سقوط الإنسان فی المصائب فی الدنيا، وابتلاءه بالعذاب فی الآخرة، ومن هنا قيل لجهنم «هاوية» لأنّ قعرها منحفض للغاية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٥٠

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة: (الصعود والارتفاع) و (السقوط)، وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط إلى الأسفل) وهذا فی الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين.

وقال البعض: إنّ الهُوِىّ يعنی «السقوط» والهَوِىّ يعنی «الصعود» «١».

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

إتباع الهوى يُعمى القلب:

تحدثت الآية الاولى عن اتخاذ الهوى إلهاً واتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويجعل على بصره غشاوة، فلا يهتدی بعد ذلك، فلنقرأ الآية: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ على عِلْمٍ ...».

ج ج

والآيـة الثانيـة تحـدثت عن فريق من اليهود المعانـدين حيث كلما جاءتهم رُسُل اللّه وأتوا بما يخالف أهواءهم، قاموا بتكذيب بعضـهم وقتـل البعض الآخر، إنّ عنادهم هـذا جعـل حجاباً بينهم وبين الحقـائق، فيرون أنفسـهم آمنين من عـذاب اللّه، حيث تاب اللّه عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة فى المرة الاولى لكن فى المرة الثانية شملتهم نقمته، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم، فعموا وصمّوا.

وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوى حيث يهرقون دماء الأنبياء ولا يدركون قبح عملهم.

إنّ التعبير ب «يقتلون» بصيغة المضـارع يـدل على أن ديـدن هـذا الفريق من اليهود هو قتـل الأنبيـاء لما يأتون به من الشـرائع المخالفة لأهوائهم.

---

(١). راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتاب العين، واقرب الموارد، والمنجد.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٥١

والآية الثالثة تشير إلى فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبى صلى الله عليه و آله، وبمجرّد ابتعادهم عنه استهزئوا به أمام المؤمنين.

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: «أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُم .

إنّ هذه الآيات الثلاث تبيّن بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز.

لِمَ لا يكون اتباع الهوى مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ حبه على جميع جوانب الإنسان، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلّابه؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه:

«حُبُّكَ لُلشَّىء يُعْمِى وَيُصِمُّ» «١».

كما سمعت فى هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وعن أميرالمؤمنين:

«أمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق» «٢».

إنّ هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّها أصبحت مثلًا فى كلام العرب: «صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلّاحاجته» «٣».

إنّ الإنسان الـذى خسـر قلبه وروحه فى حب الجاه والمال والشـهوة، وعبّأ كل رأس مال وجوده فى هذا المجال، لا يرى شـيئاً فى الدنيا غير هذا الحب، وقد جعل هذا الحب ستاراً سميكاً حجب عقله وفكره.

وما أجمل ما قاله على عليه السلام فى إحدى خطبه: «مَنْ عشقَ شيئاً أعشى بصره» «۴».

وقد نقلت الرواية التالية فى شأن نزول الآية ٢٣ من سورة الجاثية التى أشرنا إليها سابقاً:

إنّ أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة فى

---

(١). روضة المتقين، ج ١٣، ص ٢١.

(٢). بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧۵؛ ونهج البلاغة الخطبة ۴٢.

(٣). تفسير المراغى، ج ۵، ص ١۵٧.

(۴). نهج‌البلاغة، الخطبة ١٠٩.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٥٢

الجاهليـة أيضـاً ومحلّـا للطواف) فتحـدثا فى شـأن النبى صـلى الله عليه و آله، فقـال أبوجهـل: واللّه إنّى لأعلم أنّه صادق. فقال له: مَهْ، ومالك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنّا نسميه فى صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ واللّه إنّى لأعلم أنّه صادق. قال:

فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحَدث عنى بنات قريش أنّى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة، واللات والعزّى إن اتبعته

أبدا، فنزلت «وختم على سمعه وقلبه» «١».

وما أجمل ما قاله على عليه السلام عن الهوى «آفة العقل الهوى ، كما قال فى محلٍ آخر:

«الهوى آفة الألباب» «٢».

٢- حبّ الدنيا أحد الحجُب

اشارة

يقول القرآن فى هذا المجال:

«ذٰلِکَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيٰاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللّٰهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ* أُولٰئِکَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولئِکَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(النحل / ١٠٧- ١٠٨)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآيـة تشير إلى قوم أسـلموا رغبة فى الإسـلام، ثم ارتدوا عنه، فلمحت الآية إلى أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم ما يخالف الحق فى الإسـلام، بل لأنّهم فضلوا الحياة الـدنيا على الآخرة، ورجحوها عليها، فانسـلخوا عن الإسـلام واتجهوا نحو وادى الكفر تارة اخرى، فلم يهدهم اللّه بعد كفرهم لانهم لم يكونوا أهلًا لذلک، وذلک لحبهم الحياة الدنيا، فطبع اللّه على

---

(١). تفسير المراغى، ج ٢٥، ص ١٥٧.

(٢). غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٥٣

قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.

إنّ حبّ الـدنيا سواء كان فى مجال حب المال والثروة أو فى حقل حب الجاه والمقام، أو فى مجال حبّ الشـهوات المختلفـة، فإنّ هذا الحبّ كالريح العاصف يهب فى باطن الإنسان فيفقده توازن عقله بالكامل.

نعلم أنّ الميزان الـدقيق يُجعـل فى محفظـة تحول دون تـأثير النسـيم عليه، وحتى الوزّان ينبغى له حبس أنفاسه حتى الانتهاء من الوزن، وذلک للحيلولة دون تأثير امواج الهواء الخارجة من رئتيه على تعادل الميزان، فما فائدة ميزان كهذا عند هبوب ريح عاصف؟

إنّ حبّ الـدنيا سواء كـان بشـكلها القـارونى أو الفرعونى أو السامرى أو غير ذلک، لا يعطى الإنسان الحريـة فى أن يحكم على الامور بشكل صحيح أو يفكر تفكيراً سليماً، وإذا صرح اللّه تعالى فى الآية السابقة بأنّه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فالطبع هذا يمثل حب الدنيا، وبما أنّهم يتجهون نحو السبب فيبتلون بالمسبَّب.

ويشاهد فى الأحاديث الإسلامية تعابير جميلة فى هذا المجال، يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«مثلُ الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً» «١».

كما نُقل حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ» «٢».

ويقول الإمام نفسه فى رسالـة كتبها لأحد أصـحابه ينصـحه فيها ويقول: «فارفض الدنيا فإنّ حب الدنيا يُمر، ويُصم ويبكم ويُذلُّ الرِّقاب فتدارک ما بقى من عمرک ولا تقل غداً أوْ بعد غدٍ فانّما هلک من كان قبلک باقامتهم على الأماني والتسويف» «٣».

ج ج

(١). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣، ح ١٣.

(٢). نهج البلاغة.

(٣). بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧۵؛ اصول الكافى، ج ٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح ٢٣.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢۵۴

٣- حجاب الكبر والغرور وحبّ السلطة!

اشارة

١- «الَّذِيْنَ يُجادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ». (غافر / ٣۵)

٢- «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِيْنَ لَايُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ». (فصلت/ ۴۴)

جمع الآيات وتفسيرها

اشارة

الجبارون والمغرورون لا يدركون الحق!

تحدثت الآية الاولى عن كلام «مؤمن آل فرعون» صاحب الضمير الحى الذى كان فى بلاط فرعون يؤيد موسى بن عمران ويؤمن به سراً، فقالت: «الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِى آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ».

نعم، إنّ عناد الحق والاصرار فى ذلك العناد يجعل حجاباً قاتماً على فكر الإنسان ويسلبه قابلية التمييز و حسن المعرفة، فيبلغ به الأمر إلى أن يصبح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوى السليم والمفيد.

يقول البعض فى الفرق بين «الجبّار» و «المتكبر» أنّ «التكبر» يقابل «الخضوع للحق» و «الجبروت» يقابل «الشفقه والمحبة للخلق»، فالظَّلَمَة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون ولا يشفقون على الخلق.

ج ج

والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢۵۵

يقولون: لِمَ لَمْ ينزّل القرآن أعجمياً كى نهتم به أكثر وكى يفهمه غير العرب؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له).

فأجابهم القرآن: لو نزّل القرآن أعجمياً لأشكلتم إشكالا آخر وهو «لولا فصلت آياته» أى أنّ محتواه معقد ومبهم ولا نعى شيئاً منه، ثم قلتم، عجيب أن يكون القرآن أعجمياً ونازلًا على عربى؟!

ثم أمر اللَّه رسوله بأن يقول لأولئك المغرورين:

«هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ».

وواضح أنّ الذى ينادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يرى

إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها، وإذا أنكرت آذانهم نداء الحق المدوّى فذلك للوقر الذى فيها.

حجاب الغرور فى الأحاديث الإسلامية:

۱- جاء فى حديث للإمام الباقر عليه السلام: «ما دخل قلب امرىءٍ شىء من الكبر إلّانقص من عقله ما دخله من ذلك قلَّ ذلك أو كثر» «۱».

۲- وقد خاطب أمير المؤمنين عليه السلام فريقاً من المنحرفين فى كلماته القصار قائلًا: «بينكم وبين الموعظة حجاب من العزّة» «۲».

عندما يتمحور حبّ الذات فى نفس الإنسان، يسعى الإنسان لأنّ يجمع كل شىءٍ فى نفسه، وعندما يصل إلى مستوى «العجب» يرى نفسه أعلى وأرفع من أى إنسان آخر، وعندما يصل إلى مستوى «الأنانية» يرى نفسه المقياس الوحيد للقيم والجمال.

وهذه الحالات تجعل ستاراً عجيباً على عقله تحجب الحقيقة عنه، فيرى جميع القيم

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۸۶ باب وصايا الإمام الباقر عليه السلام، ح ۲۶.

(۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۸۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۶

منحسرة فى نفسه، وينسى غيره.

ولهذا، فإنّ أول خطوة فى مجال تهذيب النفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الإنسان للقرب من اللَّه من دون ذلك.

۳- وقد جاء فى كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «شرّ آفات العقل الكبر» «۱»، كما جاء فى كلام آخر له: «العجب آفة» «۲».

ج‌ج

۴- حجاب الجهل والغفلة

اشارة

۱- «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لَايَعْلَمُونَ . (الروم/ ۵۹)

۲- «لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ آبَاءُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ* وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (يس/ ۶ و ۹ و ۱۰)

جمع الآيات وتفسيرها

اشارة

أكدت الآية الأولى على أنّ اللَّه ضرب للناس فى هذا القرآن من كلِّ مثل، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهى، وتارة بالبشرى والانذار، وتارة بالسبل العاطفية والفطرية، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان فإنّ فريقاً من الجاهلين

والغافلين يجحدون بآيات اللّه ويقولون: أنتم مبطلون أى على باطل، ويضيف اللّه فى الآية: هذا كله لأجل أنّ اللّه طبع على قلوبهم وذلك بجهلهم.

إنّ الآية- فى الحقيقة- تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الجهل الذى

---

(۱). غرر الحكم.

(۲). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۷

يحسبه صاحبه علماً، ولا يصغى لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه، ولهذا فإنّ شخصاً كهذا يظلُّ جاهلًا جهلًا مركباً إلى أبد الدهر.

إذا كان الخطاب موجهاً لجاهلٍ «جهلًا بسيطاً» أى لا يعلم ويعلم أنّه لا يعلم، ومستعد فى نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية، فإنّ الأمر اتجاهه بسيط، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق.

وقد نقل فى بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربى يقول فيه:

قال حمار الحكيم يوماًلو تنصفونى لكنتُ أركب

لأنّنى جاهل بسيطوصاحبى جاهل مركب «۱»

ج ج

وتشير الآية الثانية إلى فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنّهم ليسوا أهلًا للهداية.

ثم صوّر القرآن الحُجُب التى قد تحيط العقل تصويراً عجيباً حيث قال: «إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِم أَغْلَالًا فَهِىَ الى الْاذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ* وَجَعَلْنَا مِنْ بَين أَيدِيهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ . (يس/ ۸- ۹)

إنَ عبارة «وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً» إشارة إلى الحجب التى تحول دون رؤية آيات الأفاق والكون.

إنّ الأغلال التى جاءت فى الآية قد تكون إشارة إلى الحجب التى تحول دون رؤية آيات الأنفس، والأسوأ من هذا كله هو جعل الغشاوة على الأبصار بحيث لا إمكان للرؤية، وهى ستار الغفلة والجهل والغرور.

وبديهى أنّ أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب، سواء أنذرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد صلى الله عليه و آله الطاهرة أم لم يسمعوا، فهُم لا يؤمنون ولا

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۲۱، ص ۵۵ ذيل الآية ۵۹ من سورة الروم. نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۸

يهتدون، إنّهم رهائن لا لغلٍ واحدٍ، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاءت بصيغة الجمع لا المفرد)، وقد فسر البعض السد (الذى يجعل امام الشخص) بالحجب التى تحرم الإنسان من الهداية النظرية والاستدلال، والسد (الذى يجعل من الخلف) بالحجب التى تمنع من الهداية الفطرية والرجوع إليها «۱».

حجاب الجهل فى الأحاديث الإسلامية:

۱- قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الجهل: «الجاهل ميت بين الأحياء» «۲».

۲- كما قال فى محل آخر: «الحمق من ثمار الجهل» «۳».

واضح، كما أنّ الميت فاقد الإدراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا نتوقع منه الفهم الحقيقى للُامور.

۳- من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنّهم يعدون العلماء الحقيقيين ضالين، ولهذا جاء فی حديث الإمام موسی بن جعفر عليه السلام: «تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل» «۴».

۴- ننهی البحث بحديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «إنّ قلوب الجُهّال تستفزها الأطماع وترتهنها الُمنی وتستعلقها الخدايع» «۵».

و لا عجب أن تحجب الحقائق عن قلب كهذا،

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۶، ص ۴۵ ذيل الآيات المذكورة فی بحثنا.

(۲). غرر الحكم، ص ۹۹.

(۳). المصدر السابق، ص ۴۱.

(۴). سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۹۹.

(۵). أصول الكافی، ج ۱، ص ۲۳، كتاب العقل والجهل، ح ۱۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۹

۵- حجاب النفاق

اشارة

۱- «يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ الَّا أَنْفُسَـهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(البقرة/ ۹- ۱۰)

۲- «مَثَلُهُـمْ كَمَثَلِ الَّذِی اسْـتَوْقَدَ نَـاراً فَلَمَّا أَضَـاءَتْ مَـا حَـوْلَهُ ذَهَـبَ اللَّهُ بِنُـورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِی ظُلُمـاتٍ لَّايُبْصِـرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ .

(البقرة/ ۱۷- ۱۸)

۳- «اذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِی قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَآءِ دِيْنُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَی اللَّهِ فَانَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال/ ۴۹)

۴- «وَاذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّا غُرُورًا». (الأحزاب/ ۱۲)

جمع الآيات وتفسيرها

المنافقون عمی القلوب:

إنّ فی أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين، وقد صورتهما بدقة متناهية وبتعابير وافية، والآية الاولی هی من ضمن الآيات التی جاءت هناك.

يقول القرآن فی هذه الآية: إنّ أحد أخطاء المنافقين أنّهم يخادعون اللّه وكذا المؤمنين، وفی الحقيقة لا يخادعون إلّاأنفسهم وهم لا يشعرون ولا يعلمون، وذلك لأنّ النفاق قد غطّی قلوبهم بستاره السميك، ثم يضيف القرآن: «فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً».

من الواضح، أنّ المراد من المرض فی الآية هو «مرض النفاق» الذی يتغلب علی قلوبهم، فالإنسان المريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً

سليماً (لأنّ العقل السليم فى الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، ولهذا نرى بعض المرضى تبدو ألذ الأغذية عندهم كريهة الطعم، وبعض الأغذية كريهة الطعم لذيذة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٠

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذى ضلَّ متورطاً فى ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقى فى الظلمات تارة اخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً، ولا طريق له للرجوع.

قد يكون المراد من النور الذى جاء فى الآية هو نور الإيمان الظاهرى الذى يراه المنافق ويستضىء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ضيائه.

أو أنّ المراد منه هو نور الفطرة الذى جُبل عليه الإنسان، والمنافقون يستثمرون هذا النور فى البداية، ولا يمضى زمن طويل حتى تأتى زوبعة النفاق فتطفئه.

و تحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المنافقين مرضى القلوب، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أنّ المراد من «الذين فى قلوبهم مرض» هو نفس المنافقين وأنّ العطف عطف تفسيرى «١»، إلّاأنّ الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم فى معركة بدر، والرابعة عن موقفهم فى معركة الأحزاب، والفرق هو أنّهم كانوا فى «بدر» فى صفوف المشركين لأنّ المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفى معركة الأحزاب كانوا مع المسلمين.

كانوا يقولون: «اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدّة والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التى مصيرها الموت»!

بالطبع، إنّهم غير قادرين- بسبب المرض الذى فى قلوبهم- على الإدراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أى الإيمان والثبات والفتوة التى هى وليدة الإيمان فما كانوا يدركون أن من يتوكّل على اللّه القادر فهو حسبه وهو ناصره، والشاهد على هذا الحديث هو ما حصل

---

(١). لقد جاء فى تفسير الميزان، ص ١۶۴ و ٣٠٢؛ وكذلك تفسير الكبير، ج ١۵، ص ١٧۶، أنّ المراد من الذين فىقلوبهم مرض هم ضعيفو الإيمان وهم غير المنافقين. لكن لا- يتناسب ضعف الإيمان مع المرض فى القلب، إضافة إلى أن الآيات الثلاثة عشرة التى جاءت فى أوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير فى حقهم. كما يبدو بُعد الرأى الذى يفسر المرض بالترديد والشك، لأنّ المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من الفقدان.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢۶١

فى صدر الإسلام، حيث إنّ بعض المسلمين رفض الهجرة إلى المدينة، والعجيب فى الأمر أنّ قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) فى صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنّهم سيلتحقون بجيش محمد إذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش إذا ما كان عدد المسلمين قليلًا «١».

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذى تجسد فى هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات فى معركة الأحزاب فإنّ شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الأحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلّاكذباً وباطلًا.

وهذا هو حجاب النفاق الذى لا يسمح لهم من إدراك الحقائق، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد، بل بالإيمان والثبات الناشىء عنه.

سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو: كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق؟

الجواب:

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى ملاحظة فى هذا المجال وهى: إنّ روح النفاق تستلزم أن يتحرك الإنسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذى يعيش فيه، فيفقد فى النهاية أصالته واستقلاله الفكرى، إنّ طريقة تفكير إنسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذى يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۷۶ ذيل الآية ۴۹ من سورة الأنفال.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۲

وقد جاء فى بعض التفاسير: إنّ التعبير ب «فى قلوبهم مرض» يصدق فى موارد كهذه الموارد، من حيث إنّ غاية القلب (العقل) الخالص هو معرفة اللَّه وعبوديته، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لأنّها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور) «۱».

ولهذا جاء فى الآية ۷ سورة المنافقين: «وَلكِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لَايَفْقَهُونَ .

كما قد جاء فى حديث الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهيئة السراج، فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأمّا الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صَبَر، وأمّا المنكوس فقلب المشرك» «۲».

وننهى حديثنا هذا بكلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوينا والحفيظة والطمع» «۳».

ونعلم أنّ كلًا من هذه الامور الأربعة تشكل حجاباً سميكاً أمام نظر العقل.

۶- حجاب التعصب والعناد

اشارة

۱- «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ الَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَانْيَرَوا كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا حَتّى اذَا جاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا انْ هَذَا الَّا أَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ . (الأنعام/ ۲۵)

۲- «وَاذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً* وَجَعَلنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَاذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا». (الاسراء/ ۴۵- ۴۶)

۳- «فَانَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْا مُدْبِرِيْنَ* وَمَا

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲، ص ۶۴ ذيل الآية ۱۰ من سورة البقرة.

(۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۴۲ باب فى ظلمة قلب المنافق، ح ۱.

(۳). اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۹۳ باب صفة المنافق والنفاق،.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۳

أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ان تُسْمِعُ الَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ».

(الروم/ ۵۲- ۵۳)

۴- «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـذَا الْقُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَروا انْ أَنْتُمْ الَّا مُبْطِلُونَ* كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ .

(الروم/ ۵۸- ۵۹)

۵- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا الَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ انَّنَا عَامِلونَ . (فصلت/ ۵)

جمع الآيات وتفسيرها

الموتى المتحركون:

حضر عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ابو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبو جهل وأفراد آخرون واستمعوا إلى حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟

(وكان النضر تاجراً يسافر إلى ايران وله اطّلاع واسع بالأساطير والقصص التاريخية الايرانية) فقال: لا أدرى ما يقول لكنّى أراه يحرك شفتيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذى كنت احدثكم به عن أخبار القرون الاولى وقال أبوسفيان: إنّى لا ارى بعض ما يقول حقاً.

فقال أبوجهل: كلا، فانزل اللَّه تعالى «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ اكِنَّةً انْ يَفْقَهُوهُ» «۱».

وقال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية أنّهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الإيمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الإيمان «۲».

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ الَيْكَ ...».

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۱۸۶.

(۲). المصدر السابق، ص ۱۸۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۴

وقد قال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية:

«وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً»: إنّ عناد هؤلاء الكفرة واصرارهم فى معاداة الحق، يجعل ستاراً على قلوبهم يحول دون إيمانها «۱».

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذى كان يُجعل بين الرسول صلى الله عليه و آله وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم.

وقد فسر البعض هذا الحجاب بستار حقيقى كان يجعله اللَّه بين الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وبينهم بحيث لا يرونه، إلّاأنّه مع الالتفات إلى الآيات التى لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أنّ الحجاب لم يكن سوى «حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل» الذى كتم حقائق القرآن عن عقولهم وإدراكهم.

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى «وَاذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا» فالمستفاد من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يصغون فى البداية إلى حديث الرسول صلى الله عليه و آله ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لإدراك القرآن، وإدراك حديث التوحيد.

ونشاهد فى نفس السورة تعابير اخرى تحكى روح العناد المتجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟

وخاطبت الآية الثالثة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قائلة له: إنّك لا تُسمع الموتى ولا الصم عندما يولون مدبرين، كما أنّك لا

تستطيع هداية العمى وانقاذهم من الهلاك، فما يسمع كلامك إلّاالذين آمنوا بآيات اللَّه وسلموا للحق (أي الذين تتلهف قلوبهم للحق، فإنّ قلوباً

---

(١). تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٧.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٦٥

كهذه كالأرض المعدَّة للزرع، تسطع عليها الشمس، وتقطر السماء عليها قطرات الحياة، فتنمو فيها البذور بسرعة، وأمّا القلوب التى عطّلتها حُجب التعصب والجهل فانّها محرومة من هذه الحقائق) «١».

والآية الرابعة تحدثت عن أولئك الكفار الذين وقفوا أمام الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عناداً، وخالفوا كل ما جاء به، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة، وتارة اخرى يقولون:

إنّ ما جاء به الرسول سحر وأساطير الأولين ولا مجال للحق فيه: فتحدث فى هذه عن هؤلاء وقال: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لَايَعْلَمُونَ . لأنّهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكتاب السماوى الذى هو مصدر للحقائق.

كما أنّ الآية توضح العلاقة بين «الجهل» و «العناد».

وعكست الآية الخامسة النموذج الكامل من العناد، فما قيل إلى الآن كان خطاباً بين اللَّه ورسوله، أمّا هنا فهم يعترفون بأنّ على قلوبهم أكنة، وفى آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له، فاعمل على شاكلتك ونحن عاملون على شاكلتنا.

إنّ هذه التعابير تبين بوضوح ما هو العامل الأساسى لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسى للوقر الذى يجعل فى الاذن؟ إنّها عبارات يقطر منها التعصب والعناد وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.

كما أنّ «التعصب» مشتق من مادة «عصب» وهو فى البدن خلايا تسبب اتصال العضلات إحداها بالاخرى أو بالعظام، والعصب بمثابة الوسيلة لنقل الايعاز إلى المخ، وبما

---

(١). وقد جاء فى سورة النمل الآية ١١ مضمون يشبه مضمون هذه الآية.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٦٦

أنّ له بنياناً قوياً ومحكماً استعملت هذه المفردة بمعنى الشدة والاستحكام، ويوم عصيب يعنى يوم شديد وصعب، ولهذا يطلق «التعصب» على حالة الإرتباط الشديد بشىء، كما أن «العُصْبة» على وزن أسوة تعنى جماعة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة، وأمّا «عَصَبة» فتعنى أقارب الرجل من جهة الأب «١».

إنّ «اللجاجة» وهى من مادة «لجّ» هى التمادى فى العناد، وملازمة أمر ما وعدم الانصراف عنه، و «اللجّة» تعنى حركة أمواج البحر، أو التباس ظلمات الليل، و «البحر اللّجى» هو البحر الواسع والمتلاطم، والتلجلج فى الكلام هو التردد فيه، أو اختلاط الأصوات «٢».

النتيجة:

إنّ التعصب واللجاجة والعناد يتلازم أحدها الآخر، لأنّ الارتباط الشديد بشىء يدعو الإنسان إلى الالحاح والعناد والدفاع عنه بدون قيد أو شرط.

بالطبع قد يستعمل التعصب بمعنى الانحياز والإرتباط بالحق، إلّاأنّ الاستعمال الغالب له هو الإرتباط بالباطل.

إنّ منشأ التعصب واللجاجة والعناد- بجميع أشكالها- هو الجهل والقصور الفكرى، لأنّ صاحب التعصب واللجاجة يظن أنّه إذا تخلى عن عقيدته ورأيه فهذا يعنى تخليه عن كلِّ شيءٍ، أو أنّ هذا إهانة لشخصيته.

وقد يكون منشأه هو التكبر والغرور اللذين يمنعانه من الخضوع أمام الحق والتسليم له، وقد يكون منشأه عوامل أخرى

إنّ التعصب واللجاجة يجعلان ستاراً قاتماً على العقل لا يسمح للإنسان أن يرى

---

(١). كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.

(٢). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٧

الحقائق، حيث نرى البعض غير مستعدين للتخلى عن عقائدهم بأى شكل كان رغم وجود الأدلة القطعية على بطلانها، وإنّ أشخاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف دليل ودليل على أنّ للدجاج رجلين، قالوا: كلا، بل رجل واحدة! ولو أخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم: إنّه نهار، قالوا: لا بل ليل!

لقد عكست الآيات التى ذكرناها فى بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح، واعتبرت هؤلاء صُماً وعمياً وأمواتاً، وطبع على قلوبهم، أو أنّ قلوبهم مغلقة فلا يفقهون شيئاً.

وقد جاء فى الروايات الإسلامية مضامين تستند إلى نفس المضمون الذى جاء فى الآيات المذكورة، وفيها توبيخ لأهل اللجاجة والعناد.

منها قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللجوج لا رأيَ له» «١».

ومنها قوله عليه السلام كذلك: «اللَّاجُ يُفسد الرأى» «٢».

وكذا قوله عليه السلام: «ليس للجوجِ تدبير» «٣».

وقال الإمام عليه السلام نفسه فى الخطبة القاصعة: «فاللَّه اللَّه فى كِبْرِ الحَمية وفخر الجاهلية فإنّه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التى خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا فى حنادس جهالته ومهاوى ضلالته» «٤».

ننهى حديثنا بكلام آخر لنفس الإمام العظيم، فى جواب له على رسائل أهالى مدن مختلفة حول حوادث صغيرة: «مَنْ لَجّ وتمادى فهو الراكسُ الذى رانَ اللَّهُ عَلى قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه» «٥».

بالطبع- وكما قلنا سابقاً- إنّ الاصرار والالحاح فى الحق ليس تعصباً، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو «تعصب ممدوح»، ولهذا جاء فى حديث للإمام على بن الحسين عليه السلام عندما سُئِل

---

(١). غرر الحكم.

(٢). المصدر السابق.

(٣). المصدر السابق.

(٤). نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

(٥). المصدر السابق الرسالة ٨٥.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٦٨

عن مفهوم التعصب: «العصبية التى يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجلُ شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يُحب الرجلُ قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم» «١».

٧- حجاب التقليد الأعمى

اشارة

نُمعن خاشعين أولًا فى الآيات التالية:

١- «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِيْنَ* انْ هَذَا الَّا خُلُقُ الْأَوَّلِيْنَ* وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ . (الشعراء/ ١٣۶- ١٣٨)

٢- «وَاذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا الى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ . (المائدة/ ١٠۴)

٣- «وَاذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ انَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ . (الأعراف/ ٢٨)

۴- «وَاذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ الى عَذَابِ السَّعِيْرِ». (لقمان/ ٢١)

۵- «وَكَذَلِكَ مَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ الَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا انَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ . (الزخرف/ ٢٣)

ج ج

شرح المفردات:

رغم أنّه لم ترد مفردة «التقليد» عيناً فى الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو

---

(١). بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢۶٩

الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات، إلّاأنّه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً.

إنّ هـذه المفردة مشـتقة من مـادة «قَلْد»، وتعنى فى الأصـل- كما ورد عن الراغب فى المفردات- فتل الحبل، وقيل للقلادة «قلادة» من حيث إنّ حبالًا كانت تُفتل وتعلق فى العنق، «والقلائـد» جمع قلادة، استعملها القرآن وأراد بها الأنعام التى تُعـدّ للأضـحية فى مناسـك الحـج، فانّها تُقلَّد لتتميز عن غيرها من الأنعام (الآيـة الثانيـة من سورة المائـدة)، كما أنّ اطلاق التقليد على اتباع الآخرين، من حيث إنّ المقلِّد يجعل كلام المقلَّد كالقلادة فى عنقه، أو من حيث إنّه يلقى المسؤولية على عاتق المقلَّد.

أمّا «مقاليـد»- وكمـا يقول كثير من اللغويين- فجمع «مقليـد» أو «مِقْلـد»، إلّاأنّ الزمخشـرى ادّعى فى كشـافه: عـدم وجود مفرد لهـذه الكلمة.

وأمّا «مقليـد» و «اقليـد»، فبمعنى المفتاح، وقـد نقل ابن منظور فى لسان العرب: إنّ أصل هـذه المفردة هو كلمـة «كليد» الفارسـية والتى تعنى مفتاح كذلك، واستعملت فى العربية بنفس المعنى وتستعمل «مقاليد» بمعنى الخزائن أيضاً، وذلك من حيث إنّها تقفل ولا طريق لها إلّابالمفتاح.

إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «التقليد» و «القلادة» «١».

إلّا أنّه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلى مادة واحدة من حيث إنّ كثيراً من الناس يجعلون المفاتيح فى فتائل ويقلدون بها أعناقهم «٢».

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

قومٌ أهلكهم تقليدهم:

إنّ الآيةَ الاولى أشارت إلى حديث قوم «عاد» مع رسولهم ذى القلب العطوف

---

(۱). مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب؛ البرهان القاطع وكتب اخرى.

(۲). وقد اعتبر البعض «اقليد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب- مادة قلد-).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۰

نفحات القرآن ج ۱ ۲۹۹

الرحوم «هود»، فعندما دعاهم إلى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الوَاعِظِينَ وبهذا كشفوا عن تحجرهم وصلابتهم تجاه كلام النبى المنطقى، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم بقبول الحقيقة.

ج ج

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشركى العرب عندما كانوا يُدعون إلى ما أنزل اللّه، وإلى ترك عبادة الأصنام، وترك البِدَع فى تحريم كثير من الامور الحلال، وكان جوابهم آنذاك: «حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» فيظنون أنّ هذا يغنيهم عن القرآن هادياً!!

إلّا أنّ القرآن أراد ايقاظهم من غفلتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم:

«أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ وهل يجوز تقليد الجاهل الضالّ:؟!

ج ج

والآية الثالثة أشارت إلى مشركى العرب أيضاً (أو فريق من ذوى الصفات الشيطانية) فانهم إذا ما سُئِلوا عن سبب إتيانهم الفاحشة والعمل القبيح؟ أجابوا: «وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا» ولا يكتفون بهذا بل قد يضيفون: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

فينفى القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: «انَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد من «الفحشاء» فى الآية الكريمة هو طوافهم رجالًا ونساءً عراة فى عصر الجاهلية، حيث كانوا يعتقدون: أنّ الملابس التى ارتكب بها ذنب ليست أهلًا لأنّ يُطاف بها حول بيت اللّه الحرام.

وعلى هذا المنوال، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل إلى نسل بالتقليد الأعمى وما كان التقليد يسمح لهم لأنّ يدركوا قبح هذا الفعل.

ج ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۱

إنّ رابع وخامس آية أشارتا إلى موقف وكلام فريق من المشركين فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله أو العهود التى سبقت عهده تجاه دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو الأنبياء السالفين، حيث كانوا يقولون: «انَّا وَجِدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ .

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً على عقولهم لا يسمح لهم لقبول أى حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ .

(المائدة/ ۱۰۴)

ويقول تارة اخرى: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ الَى عَذَابِ السَّعِيْرِ».

(لقمان/ ۲۱)

واخرى: «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَمْ بِأَهْدَى مِمَا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ .

(الزخرف/ ۲۴).

ج ج

توضيحات

۱– أنواع التقليد المختلفة

إنّ تقليد الآخرين، سواء كان تقليداً لحيٍ أو ميت، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صورٍ أربع:

۱– تقليد الجاهل للعالم: أى تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفنٍ أو علم، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب.

۲– تقليد العالم للعالم: أى مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كلٌّ منهم للآخر.

۳– تقليد العالم للجاهل: أى يترك الإنسان علمه وخبرته، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً.

۴– تقليد الجاهل للجاهل: بأن يتخذ قوم جُهّال عادات وتقاليد ومعتقدات ليست

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۷۲

قائمة على دليل أو مستندة إلى شيء، ويقوم قوم آخرون باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم إلى آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التى ذمّت التقليد.

واضح أن القسم الأول من التقليد هو القسم المنطقى الوحيد، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوى الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقى، لأنّ الإنسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص فى جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً، وأنّ العلم– فى هذا العصر– أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى، ومن المحال أن يتخصص إنسان فى فروع علمٍ أو فنٍ واحدٍ، فضلًا عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل إنسان يمكنه أن يكون مجتهداً فى فرع من فروع العلوم، أمّا فى الفروع الاخرى التى لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلّاالرجوع إلى المتخصصين فيها.

إنّ المعمار يراجع الطبيب إذا مرض، والطبيب يراجع المعمار إذا أراد بناء عمارة، أى أنّ كلًا منهما «مجتهد» فى تخصصه و «مقلِّد» فى التخصص الآخر، وهذا (رجوع الجاهل إلى العالم وغير المجتهد إلى المجتهد وغير المتخصص إلى المتخصص) أصل عقلائى كان ولا- يزال متعارفاً ودارجاً بين الناس، بل إنّ عجلة الحياة تسير على هذا النوع من التقليد، بالطبع أنّ هناك شروطاً ينبغى توفرها فى المجتهد الذى يُرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذى أشار إليه البارى تعالى فى القرآن الكريم وعنونه ب «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب/ ۲۱)

كما جاء فى الآية: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ». (الانعام/ ۹۰)

ورغم أنّ الخطاب موجه للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، لكن لا يبعد أن يكون المخاطب به الامة بأجمعها.

أمّا الأقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلّها باطلة ولا أساس منطقى لها، فتقليد (العالم للجاهل) و (الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأمّا تقليد (العالم للعالم) فان كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات، فلا يُعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۷۳

إنّ التقليد هو غض الطرف عن التخصص الذى يمتلكه الإنسان واتباع شخص آخر اتباعاً بدون قيد أو شرط، فالمسلّم أنّ التقليد من

قبل شخصٍ قادرٍ على التحقيق والاجتهاد أمر مذموم وغير صحيح، ولهذا لم يُجِزْ الفقه الإسلامى للمجتهدأن يكون مُقلِّداً.
ويتضح مما قلنا فلسفة تقليد المجتهدين فى المسائل الفقهية من قبل غير المجتهدين، ومثل هذا دارج فى جميع الفروع العلمية، وبما أنّ الفقه الإسـلامى واسع إلى درجة حيث لا ـ يمكن للناس جميعاً أن يجتهـدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعيّن على فريق منهم الاجتهاد بـالفقه، وعلى الناس اتباعهم، إلّاأنّ الأمر يختلف عنه فى اصول الـدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل مسـلم، وذلك لإمكانية ذلك، فلا يجوز التقليد فيها.

ج ج

٢- شروط التقليد الممدوح

عـادة مـا يقال فى تعريف «التقليـد» أنّه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل، وتارة يوسـعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملى تقليـداً من دون الالـتزام بحـديث أو كلامـ للآخرين، وتارة يعـدون التأثيرات اللا إراديـة (التى تتركها أعمال وسـلوك وصـفات الآخرين عند الإنسان) قسماً من التقليد.
بالطبع أنّ القسم الأخير من التقليد (الذى يتحقق بشـكل غير ارادى) خارج عن موضع بحثنا، أمّا القسم الثانى والثالث، فيمكن أن يكونا ممدوحين إذا ما توفر شرطان فى «المقلَّد»- أو مرجع التقليد- وهما: الخبرة والصدق، أى كونه من أهل العلم أولًا، وينقل ما يوحى إليه علمه بصدقٍ ثانياً، وإذا ما انتفى هذان الشرطان دخل التقليد القسم المذموم.
ومن جهـة اخرى، ينبغى أن يكون موضوع التقليـد من مواضيع الاختصاصات كى يباح التقليد فيه، أمّا إذا كان من المسائل العامة التى يمكن للناس كافة الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الأخلاقية والاجتماعية غير ذات الجانب
نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۷۴
الاختصاصى) فانه يتعين على كل إنسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.
ومن جهة ثالثة، فإنّ المقلِّد ينبغى أن لا يكون قادراً على الاستنباط، فإذا ما قدر على ذلك فى مسألةٍ ما، مُنع من التقليد فيها.
ومن هنا تتّضـح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أى شـروط المرجع وشـروط المقلّد) وشـروط الموضوع المقلِّد فيه).
ننهى كلامنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:
قال رجل للصادق عليه السـلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّابما يسـمعونه من علمائهم فكيف ذمّهم بتقليـدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلّدون علماءهم، فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهه وتسوية من جهـة أمّا من حيث الاسـتواء فإنّ اللَّه ذم عوامنا بتقليـدهم علماءهم كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علمـاءهم بالكـذب الصـراح وأكل الحرام والرشا وتغيير الأحكام واضـطرّوا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز أن يصـدّق على اللَّه ولا ـ على الوسائط بين الخلق وبين اللَّه فلـذلك ذمهم، وكـذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديـدة والتكالب على الـدنيا وحرامها فمن قلّـد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الـذى ذمّهم اللَّه بالتقليـد لفسـقة علمائهم فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه» «۱».

ج ج

٣- عوامل التقليد الأعمى

التقليـد الأـعمى أو بتعبير آخر: (تقليـد الجاهـل للجاهـل) والأـسوء منه (تقليـد العالم للجاهل)، دليل على الإرتبـاط الفكرى، وله عوامل عديدهٔ، نتعرض لبعضها بالإجمال هنا:

---

(١). الوسائل الشيعهٔ، ج ١٨، ص ٩۴.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧۵

١- عدم النضج الفكرى: إنّ أشـخاصاً قد ينضـجون ويبلغون جسـمياً، إلّاأنّ فكرهم لا يسـتقل ولا يبلغ إلى آخر العمر، ولهذا يظلون من أتباع هذا وذاك، ولا يفكرون يوماً فى مسألهٔ ما ولا يحللونها باستقلال.

إنّ أنظار هؤلاء تترصـد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الآخرون، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادهٔ، ولهـذا قـد يغيرون اتّجاههم بالكامل إذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إنّ طريق مكافحهٔ هذا النوع من التقليد الأعمى هو رفع المستوى الثقافى للمجتمع والسعى لإزدهار الأفكار والقابليات.

٢- التأثر بشخصـيهٔ: وهى أنْ يتأثَّرَ الإنسان بشخصـيهٔ ما ويجعلها أسوهٔ له بحيث لا يرى نفسه أهلًا لإبداء الرأى أمام صاحبها، فيتبعه بكل معنى الكلمهٔ ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصيهٔ أهلًا للاتباع والتقليد.

٣- التعلق الشديد بالأسـلاف: والتعلق هذا قد يصـنع منهم أناساً مقدسـين وإن لم يكونوا أهلًا لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقهٔ عشوائياً، ومع أنّ الأجيـال اللاحقـهٔ التى ترث علوم السـالفين وتضـيف اليهـا علومـاً اخرى تكون أكثر وعيـاً بطبيعـهٔ الحال، لكنها مع ذلك تبتلى بالتقليد العشوائى.

۴- التحزّب أو التعصّب الطائفى: إنّ تعصباً كهذا يدفع بفريق من الناس لاتباع حزب أو طائفهٔ والسير خلفهما والتمسّك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب أو تلك الطائفهٔ، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه بالتفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفهٔ.

إنّ هـذه العوامل الأربعـهٔ وعوامل اخرى سـببٌ لانتقال كثير من الخرافات والأوهام والعقائـد الباطلـهٔ والتقليد والعادات الخاطئهٔ والسـنن الجاهليهٔ والأعمال القبيحهٔ من قوم إلى قوم آخرين ومن نسل إلى نسل آخر.

وبتعبير آخر، فإنّ الميول الخاطئهٔ تجعل حجاباً على فكر الإنسان تحول دون معرفته للحق.

ج ج

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧۶

٨- حجاب حب الرفاه

اشارهٔ

فى البدء نتأمل خاشعين فى الآيات التاليهٔ:

١- «وَاذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِـدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التوبهٔ/ ٨۶- ٨٧)

٢- «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ . (التوبهٔ/ ٩٣)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

اعفنا من الجهاد:

أشارت الآيـة الاولى إلى أولئك الـذين لم يستعدوا لتنفيـذ الأوامر الإلهيّـة فى مجال الجهاد، فبالرغم من اقتـدارهم الجسـمى والمالى للحضور فى سوح القتال لكنهم انضـموا إلى صفوف القاعدين وغير القادرين على الجهاد، وقد ألحوا على الرسول صلى الله عليه و آله بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالف.

و «القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.

و «الخوالف» جمع «خالفـة» ومن مـادة (خَلْف) ومعناهـا يقابل الأمام، ولهـذا يقال «خالفـة» للنساء اللاتى يبقين ماكثاتٍ فى بيوتهنَّ عند خروج رجـالهن، ولاـ يبعـد أن يكون مفهوم هـذه المفردة أعم من النسـاء، بحيث يشـمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعـذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ «خالفـة» عمود يجعل فى نهايـة الخيمـة وتطلق- كنايـة- على النساء الماكثات فى البيوت، ويقول البعض: إنّ «خالف» من تخلّف كثيراً «١».

---

(١). تفسير المنار، ج ١٠، ص ٥٧٢.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٧٧

وتستعمل هذه المفردة- أحياناً- بمعنى «كريه الرائحة» من باب أنّ الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة إذا ما ذهبت.

وقال البعض: إنّها بمعنى الانحطاط والميل إلى الامور الدنيئـة لانَّ هذا المَيْل يدلّ على التخلف «١»، إلّاأنّ المعنى الأول أنسب من بقيّة المعانى.

وعلى أيّـة حال، فإنّ محبى الرفاه وطلاب العافيـة غير مسـتعدين للايثار والتضـحية عند الأزمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأنّ يُجعلوا فى صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول القرآن فيهم، فى نهاية الآية نفسها:

«وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ .

نعم، إنّ حبّ الراحة والرفاه كالحجاب الذى يمنع من الرؤية الفكرية الصـحيحة، فهؤلاء لا يدركون أنّ السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون فى الحضور فى ميادين الجهاد، وفى التخضب بالدماء، وبلقاء اللَّه، إلّاأنّ الذى لا يفهم هذه الامور يستهزئ بها.

ج ج

وتشير الآيـة الثانيـة إلى المعذورين عن الجهاد مثل الضـعفاء والمرضـى والذين لا يملكون الوسـيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشـتاق إليه قلـوبهم، وتصب دمـوعهم لعـدم اقتـدارهم على الانفـاق، يقول اللَّه فيهم: «إِنَّمَـا السَّبِيـلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ .

ثم يضـيف: «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ وذلـك لأنّ الميل إلى الراحـة جَعَلَ حجاباً سـميكاً على قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً، إنّ كلتا الآيتين توضح حقيقة واحدة وهى العلاقة بين «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و «عدم إدراك الحقائق».

---

(١). تفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٦٣.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٧٨

٩- حجاب الأمانىّ

اشارة

١- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ».

(الحديد/ ١۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الآمال البعيدة:

إنّ «الأمـانى» جمع «أمنيـة» وتطلق على الحالـة النفسـية التى تعرض للإنسـان من جراء تمنيه لشـيءٍ ما «١»، والجـدير بالذكر أنّ الأمانى المعقولـة والمنطقيـة ليست نقصـاً، بل هى عامل لتقـدم البشـر وبناء مسـتقبل أفضل لهُ من الحاضـر، إنّما النقص فى الآمال البعيـدة وغير المنطقية، ولهذا يفسرون الأمانى فى موارد كهذه بالمعنى الثانى، حيث تجعلُ الإنسان فى غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه.

ويقول ابن الأـثير: إنّ التمنى يعنى تشـهّى حصول الأـمر وكـذلك يطلق على ما يخطر على النفس بالنسـبة للمسـتقبل، كما أنّ «مُنْيـة» و «الامْنِيَة» وردتا بمعنى واحد «٢»، إلّاأنّ بعضاً فسّر «الأمنية» بالكذب، ذلك لأنّ الكاذب يُقدّر أمراً فى قلبه ثم يحدّث به «٣».

يقول الراغب: لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمنى كالمبدأ للكذب فصحّ أن يُعبّر عن الكذب بالتمنّى.

وادّعى البعض: أنّ معنى هذه المفردة فى الأصل هو التقدير والفرض والتصوير «۴»،

---

(١). مفردات الراغب، وينبغى الالتفات إلى أن الأمانى جمع أمنية، أمّا مُنى فجمع منية.

(٢). لسان العرب.

(٣). المنجد مادة (منى).

(۴). مجمع البحرين للطريحى.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٧٩

وقد قيل للأمانى أمانى لأنّ الإنسان يقدرها ويصورها فى ذهنه.

وعلى أيّة حال، فإنّ المؤمنين عندما يجتازون المحشـر نحو الجنّة بسـرعة فى ظل الإيمان يصـرخ المنافقون والمنافقات: «أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُم»، فيجيبهم المؤمنون:

«ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» الدنيا «فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . (الحديد/ ١٣)

وعندها يصـرخ المنافقون: «أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ فى الدنيا فى مجتمع واحد وقد كنا فى بعض الطريق معكم؟ فما الذى حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة اللَّه وتركتمونا فى العذاب؟

فيجيبهم المؤمنون «بلى كنـا معكم فى مجتمع واحـد، فى الزقـاق وفى السوق، وفى السـفر والحضـر، وكنا جاراً لكم، بل عشـنا فى بيت واحد، ولكنكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة، الأوّل: أنّكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم: «وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ .

وثانياً: أنّكم «تَرَبَّصْتُمْ وترصدتم فشل المسلمين، وموت الرسول صلى الله عليه و آله، وتحججتم فى كل عمل خير.

وثالثاً: «وَارْتَبْتُم وترددتم خاصة فى مسألة المعاد، وحقانية الإسلام.

ورابعاً: «وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ التى نسجت حجاباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم «حَتّى جاءَ أَمرُ اللَّهِ .

وخامساً: «وَغَرّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» أى غركم الشيطان بعفو اللَّه ووعدكم بألّا يَنالَكُمْ عذابه.

نعم، إنّ هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذى صوره القرآن لنا، وهى التى سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين.

إنّ شاهد حديثنا هو الجملة الرابعة، حيث جاء فيها «وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ ، الأمانى قد تصل إلى درجة بحيث تشغل فكر الإنسان بالكامل، فيغفل عن كلّ شىء، ويظل فى

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۰

عالم الوهم والظن، فتعمى عيناه، ويثقل سمعه، ويفقد وعيه (إذا كان واعياً)، ويظلّ فى الظلمات التى وضعها بنفسه تائهاً.

إنّ سعة الأمانى قد تصل إلى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان كنوحٍ عليه السلام فى العمر، وقد يقوم بمقدّمات امنية، الكلُّ يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد بدأ بها منذ قرون، وهذا هو حجاب الأمانى الذى يحول دون المعرفة.

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال فى تفسير الأمانى إضافة إلى الآمال البعيدة، والأقوال هى:

(تمنى فشل المؤمنين وضعتهم، وإغواء الشيطان، والدنيا، وتوقع استغفار الرسول للمنافقين، وتذكّر الحسنات ونسيان السيئات) «۱»، وقد فسرها البعض ب «الأباطيل».

توضيح:

حجاب الأمانى فى الروايات الإسلامية:

إنّ مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وأنّها تجعل حجاباً على عقل الإنسان وشعوره) لم يشر اليها فى القرآن الكريم فحسب، بل لها شواهد كثيرة فى الروايات الإسلامية والتواريخ أيضاً، ففى حديث مشهور للإمام على عليه السلام يقول فيه: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، إتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة» «۲».

ويقول فى كلماته القصار: «الأمانى تُعمى أعين البصائر» «۳».

ونقرأ فى حديث آخر لنفس الإمام عليه السلام: «جماع الشرّ فى الاغترار بالمُهل والاتكال على الأمل» «۴».

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۶۴۱۷.

(۲). نهج البلاغة، الخطبة ۴۲.

(۳). نهج البلاغه الكلمات القصار، الكلمة ۲۷۵.

(۴). غرر الحكم (حرف ج رقم ۵۵).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۱

كما نقل عن نفس الإمام فى هذا المجال أنّه قال: «غرورُ الأملِ يفسدُ العلم» «۱».

والخلاصة أنّ من يريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هى ويصل إلى ينبوع المعرفة الصافى، ينبغى له أن لا يغطى عقله بحجاب الأمانى السميك، وأن لا يضل فى متاهات طريقها.

ونختم هذا البحث بحديث آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «واعلموا أن الأمل يُسهى العقل ويُنسى الذكرَ فاكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ وصاحبه مغرور» «۲».

ج ج

(۱). غرر الحكم (حرف ج، رقم ۵۵).

(۲). نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۳

۲- الأعمال التى تحجب عن المعرفة

۱- حجب الذنوب

اشارة

نتأمل خاشعين معاً فى الآيات التالية:

۱- «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيوم الدِّينِ* وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ الَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* اذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين/ ۱۱- ۱۴)

۲- «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ* أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . (محمد/ ۲۲- ۲۳)

۳- «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِيْنَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُم لَا يَسْمَعُونَ . (الأعراف/ ۱۰۰)

۴- «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِيْنَ أَسَاؤُا السُّوأَى أنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . (الروم/ ۱۰)

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب يُعمى الإنسان ويصمه:

أشارت الآية الاولى إلى أولئك الذين أنكروا القيامة بالكامل، وأضافت: أنّ القيامة لا ينكرها إلّاالمعتدون والآثمون، فانّهم لا يخضعون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تُليت عليهم آيات اللَّه قالوا: أساطير الأولين.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۴

وَيصرح القرآن: أنّ الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدأ الذى أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً.

لقد استخدمت مفردة «رَيْن» فى هذه الآية الكريمة، وقد قلنا سابقاً: أنّ لها معانى ثلاثة (على ما يدعيه أئمّة اللغة) الأول: الصدأ الذى يعلو الأشياء القيّمة، الثانى: الصدأ الذى يعلو الفلزات وهو علامة تآكل وفساد ذلك الفلز، الثالث: كل شىءٍ غلب على شىءٍ آخر، ولهذا تستعمل هذه المفردة فى مجال غلبة الشراب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء، وغلبة النوم على العيون «۱».

وبالطبع يمكن جمع هذه المعانى الثلاثة فى مفهوم واحد وهو الصدأ الذى يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم اطلقت هذه المفردة على غلبة كل شىءٍ على شىءٍ آخر.

ونستشف من هذه الآية أنّ الإثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق فى هذه المرآة الإلهيّة، وإلّا فإنّ آيات اللَّه خصوصاً فى مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل الانكار.

ولهذا فقد قال بعض المفسرين: يظهر من هذه الآية أولًا: أنّ الأعمال القبيحة تُوجِد نقوشاً وصوراً فى نفس الإنسان، وثانياً: أنّ هذه

الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق.

وثالثاً: إنّ روح الإنسان- وحسب طبيعتها الأولية- صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هى، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى والفجور، كما جاء ذلك فى الآيات «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» «٢». (الشمس/ ٧- ٨)

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الإنسان عملًا ما فإنّ ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففى البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما إلى فكر ودراسة.

---

(١). تفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩۴؛ تفسير روح المعانى، ج ٣، ص ٧٢.

(٢). تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣۴٩.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٨۵

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب، فبالاصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكةُ عند الإنسان، ونعلم أنّه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير اللَّه، والتوجه لغير اللَّه ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صفاءه وشفافيته، وإنّ لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الاولى هى مرحلة «الرَّيْن» أو الصدأ، والمرحلة الثانية هى مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هى مرحلة «الأقفال» وهى أشد المراحل.

ج ج

والآية الثانية ناظرة إلى المنافقين الذين يَدّعون الإيمان، فإذا ما نزلت آية فى الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو على وشك الموت، فيخاطبهم القرآن قائلًا، إنّ استمراركم فى مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب اللَّه، سيؤدى بكم إلى أن تفسدوا فى الأرض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم، ثم يضيف:

«أولِئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (بذنوبهم فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن أنّ النفاق حجاب للقلب والروح من جهة، ومن جهة اخرى عن التأثير السلبى للذنوب خصوصاً (الفساد فى الأرض) و (قطع صلة الرحم) و (الظلم والجور) على إدراك الإنسان وتمييزه بين الحق والباطل.

ولقد فسّر البعض عبارة «إن توليتم» بالاعراض، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أى أنَّ مقاليد الامور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الأرحام «١»، ولهذا جاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام: أنّ الآية نزلت فى بنى امية «٢»، وهذا تلميح إلى أنّهم عند استلام زمام الامور والحكومة الإسلامية سوف لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقاربهم وذووهم.

---

(١). ورد كلا التفسيرين فى تفاسير روح المعانى ومجمع البيان والميزان فى ذيل الآيات المذكورة فى البحث.

(٢). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴٠، ح ۵٩.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٨۶

وسواء كان معنى «التولى» هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الامور فى الحكومة والفساد فى الأرض، فإنّ ذلك لا يضر ببحثنا، لأنّ الآية على أيّة حال تبين أنّ الذنوب حجاب للقلوب.

ج ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى أولئك الذين ورثوا الاسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذى ابتلوا به، فخاطبتهم: «لو نَشآءُ أَصَبْناهُم

بِذُنوبِهِمْ ونَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُم لَا يَسْمَعُونْ .

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على القلوب والآذان، تلميح إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

ويقول البعض: إنّ اللَّه إذا شاء عذّبهم بأحد العذابين: إمّا بإهلاكهم بسبب ذنوبهم، وإمّا بإبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تمييز الحق عن الباطل منهم، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الإلهي.

إلّا أنّه بالالتفات إلى مجيء «أصبناهم» بصيغة الماضي و «نطبع على قلوبهم» بصيغة المضارع، نفهم أنّ الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً على ما قبلها، فيكون معنى الآية هكذا: (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فَنحن نطبع على قلوب هؤلاء ونلقي حُجباً عليها) «۱».

ج‌ج

أشارت رابع وآخر آية إلى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: «ثُمَّ كَانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ أَساؤا السُّوأَى أنَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ لِمَ لا يكون مصيرهم هذا والذنب كالمرض الذي ينقض على روح الإنسان فيتآكل الإيمان من جرائه؟ ولِمَ لا يكون هكذا

---

(۱). جاء هذا كاحتمال في تفسير الكبير، في ذيل نفس الآية، إلّاأنّ صاحب تفسير الميزان عَدَّ الجملة الثانية معطوفة على «أصبناهم» التي تفيد الاستقبال، لكن الظاهر أنّ التفسير الأول أنسب.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۷

وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميه؟ والأسوأ أنّه لا يكفر فحسب، بل يفتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء.

وخلاصة الحديث، إنّ القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة ومجربة عند كثير من الناس، فبمجرّد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم، وإذا ما مالوا إلى الطهارة والتقوى يشعرون بأنوار ترتاح لها قلوبهم.

ج‌ج

توضيح:

إنّ الذنب حجاب في الروايات الإسلامية

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الإسلامية بشكل واسع نذكر هنا نماذج منها:

۱- جاء في حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله يقول فيه:

«إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر اللَّه وتاب صَقُل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الرّان (الرين) الذي ذكر اللَّه في كتابه: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » «۱».

۲- ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: أنّه قال فيه:

«كان أبي يقول: ما من شيء أفسدُ للقلب من خطيئة، إنّ القلب لَيُواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله» «۲».

بديهي أنّ المراد من (أعلاه أسفله) تغير قدرة الإنسان على التمييز- بسبب الانس بالذنوب- حيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهي أخطر مرحلة.

۳- وقد جاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه:

---

(۱). تفسير القرطبي، ج ۱۰، ص ۷۰۵۰، روح المعاني، تفسير ج ۳، ص ۷۳، وتفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۹۴.

(۲). اصول الكافى، ج ۲ باب الذنوب، ح ۱.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۸

«إذا أذنب الرجل خرج فى قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يُفلحُ بعدها أبداً» «۱».

واضح، أنّ الشرط الأول للفلاح هو إدراك الحقائق، فالذى تعطّل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول إلى السعادة والفلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون فى رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير الآية «كَلّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مّا كانُوا يَكْسِبُونَ ، وتم التعبير فيه بالنكتة السوداء والنكتة البيضاء حيث تتغلب السوداء- نتيجة تراكم الذنوب- على البيضاء النورانية وتغطيها «۲».

۴- وفى حديث آخر للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله يقول فيه:

«كَثْرَةُ الذُنُوبِ مُفْسِدةٌ لِلْقَلْبِ» «۳».

۵- وقد نقل فى كتاب الخصال حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله جاء فيه:

«أربع خصال يُمتن القلب: الذنب على الذنب ...» «۴».

ولهذا، فإنّا أُمرنا- لمحو آثار الذنوب- قراءة ودراسة أحاديث الأئمّة إضافة إلى التوبة، كما نقل ذلك فى نور الثقلين عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

«تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب وَإِنّ القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث» «۵».

۶- وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة فى خطبة له مخاطباً بها بعض عمى القلوب:

«قد خرقتِ الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها» «۶».

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲ باب الذنوب، ح ۱۳.

(۲). المصدر السابق، ح ۲۰، وقد نقل نفس المضمون فى مجمع البحرين فى مادة (ارين) أيضاً.

(۳). تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۳۲۶.

(۴). الخصال، ج ۱، ص ۲۵۲، ح ۶۵، وقد جاء مضمون يشبه هذا فى تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۳۲۶.

(۵). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۱، ح ۲۳.

(۶). نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۳.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۸۹

۷- وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم اللَّه فأصمهم وأعمى أبصارهم» «۱».

۸- وقد صُرّح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك فى حديث لأميرالمؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا الجهاد:

«ألبسه اللَّه ثوبَ الذل ... وضُرب على قلبه بالأسهاب وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد» «۲».

۲- حجاب الكفر والأعراض

اشارة

فى البداية نمعن خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

١- «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ .

(الأعراف/ ١٠١)

٢- «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيْثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ الَّا قَلِيلًا».

(النساء/ ١٥٥)

٣- «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ انَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ اكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَانْ تَدْعُهُمْ الى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً». (الكهف/ ٥٧)

۴- «وَالَّذِيْنَ لَايُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ». (فصلت/ ۴۴)

---

(١). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴١، ح ۶٣.

(٢). نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٩٠

جمع الآيات وتفسيرها

لِمَ يحجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟

إنَّ الآيةَ الاولى بعد إشارتها إلى تاريخ وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) حيث نزل عليهم العذاب الإلهي لتكذيبهم آيات اللَّه، قالت: «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ ...».

إنّ جملة «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ لا- تشير إلى أي كافر كان، وذلك كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء، فالمراد- إذن- ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصروا على كفرهم، فان كفرهم هذا يحول دون معرفتهم ورؤيتهم للحق.

والشاهد على هذا الكلام هو قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ أي أنّ تعصبهم بلغ درجةً لا- تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الباطل إلى الحق، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير الميزان والفخر الرازي «١»، إلّاأنّ أظهرها هو ما تقدم اعلاه.

والآية الثانية بعد ما أشارت إلى سلوك فريق من اليهود وعدائهم للأنبياء قالت: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِّيْثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ...».

يقول القرآن: إنّهم لا يفقهون شيئاً وذلك لكفرهم فطبع اللَّه على قلوبهم من جراء ذلك.

بديهي أنّ المراد من الكفر هنا هو الكفر المتزامن مع العناد، والكفر المتزامن مع العداء للأنبياء، والكفر المتزامن مع نقض المواثيق باستمرار والاستهزاء بآيات اللَّه، ومسلم أن كفراً كهذا يجعل حجاباً على عقل الإنسان لا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق، وهذا شيء صنعته أيديهم ولا جبر في البين.

ويظهر أنّ مرادهم من «قلوبنا غلف» هو الاستهزاء بآيات اللَّه وبشخصية موسى بن عمران، لا أنّهم يعتقدون أنّ قلوبهم خُلِقت مغلّفةً لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض

---

(١). تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢١۵؛ تفسير الكبير، ج ١۴، ص ١٨۶.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩١

التفاسير) «١»، إلّاأنّ اللّه أخذ كلامهم بالجد وأجابهم: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ...».

وهناك احتمال آخر وهو أنّ مرادهم من الجملة هو أن قلوب كلٍّ منهم كالوعاء المليء بالعلم والغمد الذى فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين «٢»، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

وعلى هذا، فهناك ثلاثة احتمالات فى تفسير الآية والأول أنسب من الآخرين، وقد نقل فى بعض التفاسير حديث ذا مغزىً عميق عن الرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «الطابَعُ مُعَلّق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمة وعُمِل بالمعاصى واجتُرىء على اللّه تعالى بَعَثَ اللّه تعالى الطابع فطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً» «٣».

والجدير بالذكر هو أنّ «طابع» اسم فاعل للطبع و «طابَع» اسم آلة الطبع، ويظهر فى الحديث أنّ الكلمة الاولى بالفتح والثانية بالكسر.

وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية: أنْ لا جبر هنا، وأنّ حجب القلوب نتيجة لأعمال الإنسان نفسه.

ج ج

وَطرحت الآية الثالثة سؤالًا تقريرياً حيث قالت: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ...».

إنّ دليل اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنّهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين كذلك فإنّ ظلمهم هذا وقع فى محضر الساحة القدسية الإلهيّة مع وجود تعاليمه الحقة، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب، بل تدل على اصالة الاختيار.

وما يلفت النظر هنا هو أنّ الفخر الرازى بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنهُ

---

(١). تفسير الميزان، ج ۵، ص ٣٨؛ تفسير القرطبى، ج ٣، ص ٢٠٠۴.

(٢). لقد جاء هذا الاحتمال فى التفاسير التالية: فى تفاسير الكبير، ج ١١، ص ٨٧؛ والقرطبى، ج ٣، ص ٢٠٠۴؛ و روح المعانى، ج ۶، ص ٨.

(٣). تفسير روح المعانى، ج ۶، ص ٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٢

عندما يصل إلى هذه الآية يقول: إنّ آخر الآية دليل لمؤيدى الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدى الاختيار! ثم يضيف: قلّما نجد آية فى القرآن تؤيد أحد الفريقين، وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالها آية تؤيد الفريق المقابل، والتجربة شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من اللّه للعباد، وذلك لكى يتميز الراسخون فى العلم عن المقلّدين «١»! ياله من اعتراف عجيب؟!

ونضيف إلى ما قاله الفخر الرازى: أنّ كلًا من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الاخرى فضلًا عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إنّ الآية بصدرها وذيلها دليل على مسألة الاختيار لا شىء آخر، وذلك لأنّ صدرها يقول: إنّ الإعراض عن آيات اللّه واقتراف الذنوب من أفعال الإنسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إنّ اللّه يعاقب المُصرّين على السير فى هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة على قلوبهم.

وبتعبير آخر: إنّ اللّه جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات، وهذه الآثار تعكّر صفاء القلب، وتسلب قدرة التمييز عند الإنسان، فأىّ جبر فى هذا الحديث؟!

مثله كمثل الخبير الذى يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتناوله، فهل هذا التأثير القهرى للسم جبر؟!

ج ج

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المعاندين الذين يختلقون الحُجج ويسألون- أحياناً- هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجمياً كى نعيره

أهميّة أكبر ولكى لا ينحصر فى العرب؟

(قد يكون غرضهم الأساسى من هذا هو عدم فهم عامة الناس له والاقبال عليه إذا ما كان أعجمياً).

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۱، ص ۱۴۲، والعجيب أنّ الآلوسى فى روح المعانى عندما نقل عبارة الفخر الرازى ادعى أنّالفخر الرازى قال: إنّ هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التى قبلها من أدلة القائلين بالاختيار. وقد نقل صاحب الميزان العبارة من روح المعانى، بينما مراد الفخر الرازى صدر وذيل الآية نفسها (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۳

فأجابهم القرآن فى صدر الآية: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْ لَافُصِّلَتْ آيَاتُهُ . (فُصّلت/ ۴۴)

أى لأشكلتم اشكالًا آخر وهو: أنّ القرآن مبهم وغامض، ثم يضيف القرآن: «ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ أى هل يصحّ لنبى عربى أن يأتى بقرآن أعجمى؟

ثم أمر اللَّه الرسول صلى الله عليه و آله بأن يجيبهم هكذا: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِم وَقرٌ وَهوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنَادَونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ».

وقد بيّنت الآية بوضوح أنّ اختلاق الحجج والعناد والإصرار على الكفر يجعل حجاباً على القلوب يمنعها عن الإدراك والفهم «۱».

۳- حجاب الاعتداء والعدوان

اشارة

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا الَى قَومِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِيْنَ . (يونس/ ۷۴)

جمع الآيات وتفسيرها

بيّنت الآيات السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح، حيث كان يدعو قومه للَّه ويسعى لهدايتهم وانذارهم من عذاب اللَّه، إلّاأنّهم كذبوه، فاغرقهم اللَّه بطوفانه وأهلكهم، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينة فورثوا الأرض.

ثم يضيف اللَّه فى الآية: إنا أرسلنا- بعد نوح- رسلًا كلًا إلى قومه مع معاجز وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محتواها على أحقيتهم، إلّاأنّهم لم يخضعوا للحق واستمروا فى تكذيبهم.

---

(۱). فسّر البعض عبارة: «وهو عليهم عمىً» بأنّ القرآن سبب لعمى هذا الفريق، بينما قال ابن منظور فى لسان العرب والراغب فى المفردات: إنّ جملة (عمى عليه) تعنى اشتبه عليه حتى صار كالأعمى (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۴

ويقول اللَّه فى ذيل الآية: «كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ، وهذه إشارة إلى أنّ الاعتداء والعدوان يترك حجاباً فى القلب يحول دون معرفة القلب لآيات اللَّه وتمييزه بين الحق والباطل.

إنّ الطبع الإلهى على القلوب بالاضافة إلى كونه عقاباً إلهيّاً للمعتدين، كذلك يكون أثراً من آثار الاستمرار فى الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء فى الساحة الإلهيّة واستمرار المعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل.

إنّ جملة: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ إشارة إلى أن بعض الرسل جاءوا أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل اللَّه إليهم رسلًا آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا بهم أيضاً، وذلك لأنّ عنادهم نسج حاجباً سميكاً على عقولهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يعقلون.

ويقول البعض: إنّ المراد من المكذبين في الآية قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح في الاعتداء على الرسل وتكذيبهم «۱».

ويبدو هذا التفسير بعيداً عن الواقع لأنّه لازمه اختلاف مرجع الضميرين في (كذّبوا) و (ليؤمنوا)، ولهذا فالافضل هو التفسير الأول.

ويحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وحُكِي لهم، والتكذيب الثاني يتعلق بالامور التي شاهدوها من الأنبياء بأُم أعينهم «۲» ويبدو أنّ هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين.

ج ج

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۱۲۵.

(۲). تفسير روح المعاني، ج ۱۱، ص ۱۴۳.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۹۵

۴- حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر

اشارة

۱- «وَيَدْعُ الْانْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». (الإسراء/ ۱۱)

۲- «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد/ ۲۴)

جمع الآيات وتفسيرها

أقفال القلوب الثقيلة:

في الآية الاولى يذكر اللَّه سبحانه وتعالى أحد أسباب الكفر وعدم الإيمان باللَّه وهو عدم دراسة الامور بدقّة وتبحر، ويقول: إنّهم وبسبب إضطرابهم وتسرعهم يتجهون أحياناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنّهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل والعار كما لو كانوا يتجهون نحو طريق الفخر والعز.

أي أنّ تفكيرهم السطحي وتركهم التدبر يجعل حجاباً على عقولهم يحول دون إدراكهم الصحيح، فيرون- لأجل ذلك- الشرّ خيراً والشقاء سعادة، والضلال صراطاً مستقيماً.

وقد جاء في تفسير الميزان: أنّ المراد بكون الإنسان عجولًا هو: أنّه لا يأخذ بالاناة إذا أراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى إليه، بل يستعمل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فربّما كان شراً فتضرر به، لكن جنس الإنسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر «۱».

أمّا المراد من «يَدْعُ» هنا؟ فيقول البعض: أنّه الطلب سواء كان في صورة دعاء أو طلب

(١). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤٩ (ملخص).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٦

من اللّه أو كان بصورة طلب عملى أى، السعى لتحصيل الشىء وبذل الجهود لِنَيْلِهِ «١».

إلّا أنّ المستفاد من بعض التفاسير أنّ المراد هو الدعاء اللفظى والطلب من اللّه، ولهذا قيل فى شأن نزول الآية: إنّها نزلت فى حق النضر بن الحارث وهو من مشركى العرب المعروفين حين قال: «اللَّهُمَّ انْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»، فاستجاب اللّه هذا الدعاء وأهلكه «٢».

وقد ذكر المرحوم الطبرسى كلا التفسيرين فى مجمع البيان ويظهر أنّ معنى الآية يسع كلا التفسيرين.

وقد جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره لهذه الآية قال فيه: «وَاعْرِفْ طَرِيْقَ نَجاتِكَ وَهَلَاكِكَ، كَيْلا تَدْعُو اللَّهَ بِشَيء عَسى فِيْهِ هَلاكُكَ وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ فِيْهِ نَجاتَكَ، قالَ اللَّهُ تَعالى «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا»» «٣».

وقد جاء فى حديث آخر أنّ آدم نصح أولاده وقال لهم: «كُلُّ عَمَلٍ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا فَقِفُوا لَهُ ساعةً فَانِّى لَوْ وَقَفْتُ ساعةً لَمْ يَكُنْ أصابَنِى ما أَصابَنِى» «٤».

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة «ام الندامات» اسماً للعجلة، كما قيل: أنّ العجلة من الشيطان إلّافى ستة موارد: أداء الصلاة فى وقتها، دفن الميت، تزويج البنت الباكر عند بلوغها، أداء الدين عند حلول وقته، إطعام الضيف عندما يحلّ، والتوبة عند اقتراف الذنب.

أمّا ما المراد من الآية «و كان الإنسان عجولًا» وأمثالها الذى ورد فى القرآن الكريم والتى تعبر عن نقاط الضعف المهمّة فى طبيعة الإنسان؟ وكما ذكرنا فى التفسير الأمثل أنّ المراد بالآية الإنسان الذى لم يتخلق باخلاق اللّه ولم يتربَّ على أساس التربية الرسالية والدينية، لا الإنسان المهذب.

(١). تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٠، وبما أنّ الباء فى «بالخير وبالشر» باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو الشر كدعائه الخير».

(٢). تفسير القرطبى، ج ۶، ص ٣٨٤١؛ و تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١۶٢.

(٣). تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١۴١.

(۴). تفسير روح البيان، ج ۵، ص ١٣٧.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٢٩٧

ج ج

وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم فى الآيات السابقة بصفة عمى القلوب، وإذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم اللّه الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم هنا: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» لا قفل واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟ (محمّد/ ٢۴)

هناك بحث بين المفسرين فى أنّ «أم» متصلة أو منفصلة «١»، فاذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك اقفالًا على قلوبهم؟ وأما إذا كانت منفصلة فالمعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إنّ اقفالًا على قلوبهم.

وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين «التدبر» و «الحجاب على القلوب»، ويمكن القول: إنّ الآية تشير إلى حجاب ترك التدبر.

وقد جاء فى تفسير (فى ظلال القرآن): «تدبر القرآن طبقاً لهذه الآية يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب نور المعرفة على القلوب، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويجعلها اكثر صفاءً واشراقاً» «٢».

وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب نكرة فى الآية، الأول: أنّها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبِهم المروّع، وأنّها قلوب مجهولة مليئة بالقساوة والظلمات.

الثانى: إنّ المراد هو بعض القلوب لا ـ كلها، لأنّ بعضهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة من الظلمات بحيث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق.

وذكر الأقفال بصيغة الجمع إشارة إلى الحجب المختلفة التى تجعل على قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغيرها.

كما ينبغى الإشارة إلى هذه النقطة وهى: إنّ بين «ترك التدبر» و «حجاب القلب» تأثيراً متبادلًا، فكلٌّ منهما يمكنه أن يكون علة للآخر فى مرحلة ومعلولًا له فى مرحلة اخرى،

(١). ينقل الآلوسى فى روح المعانى عن سيبويه أنّها متصلة، بينما ينقل عن ابى حيان وفريق آخر أنّها منفصلة (ج ٢٦، ص ٦٧).

(٢). تفسير فى ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٦٢.

فتارة ترك التدبر ينشأ عن ظلمات القلب، وتارة اخرى ظلمات القلب تنشأ عن ترك التدبر.

وننهى حديثنا هذا برواية عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيها: «قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده واقامه إقامة القدح فلا كثّر اللَّه هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واظمأ به نهاره وقام به فى مساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع اللَّه العزيز الجبار البلاء وبأولئك يديل اللَّه عزّ وجلّ من الأعداء وبأولئك ينزل اللَّه عزوجل الغيث من السماء فواللَّه لهؤلاء فى قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر» «١».

٥- حجاب الارتداد

اشارة

فى البداية نتأمل خاشعين فى الآية الكريمة التالية:

«اتَّخَذُوا ايْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ انَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* ذلِكَ بِانَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (المنافقون/ ٢- ٣)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآية ناظرة إلى المنافقين، وبالرغم من أنّ النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلّا أنّ القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر فى هذا المجال حيث يقول: «بِانَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ .

يعتقد بعض المفسرين: أنّ الأشخاص المعنيين فى هذه الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وظلّوا كفّاراً باطناً.

(١). اصول الكافى، ج ٢، باب ١٣ النوادر، ص ٦٢٧، ح ١.

إلّا أنّ ظاهر الآیـة یکشف عن أنّهم فی البدایـة آمنوا حقاً، ثم کفروا بعـد ایمانهم، وکان کفرهم هـذا متزامناً مع النفاق، لأنّ التعبیر ب «ثم» یـدل علی أن کفرهم حصـل بعـد الإیمـان لا- أنّه کـان متزامنـاً مع الإیمـان لیکون أحـدهما ظاهراً والاخر خفیاً، وعلی هـذا فالآیة تتحدث عن حجاب الارتداد.

ولا عجب فی أن یطبع اللَّه علی قلب من آمن وذاق طعم الإیمان وحلاوته، وشاهد أنوار الرسالة، ثم کفر کفراً تزامن مع النفاق.

إذا التبس الحق علی شخص منذ البدایة فعذره یمکن أن یکون وجیهاً، أمّا إذا ارتد عن الإیمان بعد ما عرف الحق وآمن به، فهذا غالباً ما یکشف عن حالة العناد عند هذا الشخص، واللَّه یسلب نعمة المعرفة عن أشخاص کهؤلاء ویطبع علی قلوبهم.

بالطبع لا دلیل لنا علی أنّ کل المنافقین کانوا غیر مؤمنین منذ البدایة، بل إنَّ فریقاً منهم آمنوا فی البدایة حقاً ثم ارتدوا کما جاء ذلک فی الآیة: «وَکَفَرُوا بَعْدَ إِسلامِهِمْ .

(التوبة/ ۷)

و هذا النفاق المتزامن مع العناد هو الذی یجعل حجاباً علی القلوب.

ونؤکد تارة اخری أنّ هذا الحدیث لا یدل علی الجبر اطلاقاً، لأنّ مقدّمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم.

۶- حجاب الکذب والافتراء

اشارة

فی البدایة نلاحظ خاشعین الآیات الکریمة التالیة:

۱- «الَمْ تَرَ الَی الَّذِینَ اوتُوا نَصِیباً مِّنَ الْکِتَابِ یُدْعَوْنَ الَی کِتَابِ اللَّهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ یَتَوَلَّی فَرِیقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ* ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الَّا أَیَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِی دِینِهِمْ مَّا کَانُوا یَفْتَرُونَ .

(آل عمران/ ۲۳- ۲۴)

۲- «وَلَقَدْ مَکَّنَّاهُمْ فِیمَا انْ مَّکَّنَّاکُمْ فِیهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَافْئِدَةً

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج ۱ ۳۴۹

فَمَا أَغْنَی عَنْهُمْ سَـمْعُهُمْ وَلَآ ابْصَارُهُمْ وَلَا افْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَیْءٍ اذْ کَانُوا یَجْحَدُونَ بِآیَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا کَانُوا بِهِ یَسْتَهْزِءُونَ . (الأحقاف/ ۲۶)

ج‌ج

جمع الآیات وتفسیرها

خُداع الکذب:

یقول بعض المفسرین فی شأن نزول الآیة الاولی

إنّ رجلًا وامرأة من الیهود زنَیا، وکانـا ذوی شرف، وکان فی کتابهم الرجم، فکرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا فی أمرهما إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله رجاء أن یکون عنده رخصة فی ترک الرجم فحکم الرسول صلی الله علیه و آله بالرجم فأنکروا ذلک فقال علیه الصلاة والسلام: بینی وبینکم التوراة فإنّ فیها الرجم فمن أعلمکم؟

قالوا: عبداللّه بن صوريا الفدكى، فأتوا به واحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذى كان على ملة اليهود وأسلم.

قد جاوز موضعها يا رسول اللّه، فرفع كفّه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبى صلى الله عليه و آله برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم اللّه لذلك غضباً شديداً فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «١».

يقول القرآن فى هذا المجال: «الَمْ تَرَ الَى الَّذِينَ اوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ الى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

ثم يضيف: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الَّا ايَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

«يفترون» من مادة «الافتراء» ومن أصل «فرى» الذى يعنى القطع وشق الجلد بهدف الإصلاح، إلّاأنّه قد تستعمل فى صيغة «الافراء» فتعنى القطع بهدف الافساد، و «الافتراء» معناه واسع، أى القطع سواء كان بهدف الإصلاح أو الافساد، بالرغم من استعماله فى أغلب

(١). تفسير الكبير، ج ٧، ص ٢٣٢.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٠١

الأحيان فى مجال الافساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة فى مجال الكذب والشرك والظلم «١».

أمّا «غرّهم» فمن مادة «غرور» ومشتقة من «غُر» بمعنى ظاهر الشىء، ولهذا قيل للأثر الظاهر فى جبين الحصان «غُرة»، كما تستخدم فى القماش إذا طُوى بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوى، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع، وكأنّ الطرف المخدوع يُطوى كالقماش «٢».

أما «غَرُور» فيعنى الشخص والشى الذى يخدع الإنسان، كما تطلق على الشيطان الخادع «٣».

وقد قيل فى كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الإنسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

«إنّ الإنسان يجرى فى أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية والصور التى زينتها ونمقتها له نفسه دون الذى حصل له العلم به، كما أنّ المدمن على استعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم أنّها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لأنّ حالته وملكته النفسانية زيّنت له هذه الامور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالًا للتفكر والاجتناب.

وبعبارة اخرى أنّهم كرروا الكذب ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى اذعنوا به أى اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذى يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم فى دينهم وتمنعهم عن التسليم للّٰهوالخضوع للحق الذى أنزله فى كتابه «٤».

(١). مفردات الراغب مادة (فرى).

(٢). مفردات الراغب مادة (غرور).

(٣). لسان العرب مادة (غرور).

(۴). تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٢٥.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٠٢

إنّ هذا مجربٌ، فتارة يتفوه الإنسان بحديث كذب ويعلم أنّه كذب وافتراء، وعلى ضوءِ اعادة الحديث يقع فى شك منه، ثم يعيده مرات اخرى فيصدق به، حتى يبلغ درجة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة.

وعلى هذه فلا مجال للقول بأنّ الكذابين هم فريق من اليهود وأنّ المخدوعين يمثلون فريقاً آخر.

ج ج

وقد أشارت الآية الثانية إلى قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانوا يعيشون في الاحقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بالريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هود» وإثر ظلمهم وفسادهم في الأرض.

فالآية تقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْمَا انْ مَّكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً ... وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

إنّ الآية تؤكد أن تكذيبهم المتوالي لآيات اللَّه سبَّب سلب إدراكهم ومعرفتهم، فابصارهم ترى وآذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلّاأنّ الستار الحاجب حال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب اللَّه.

«يجحدون» من مادة «جحود» ويعني في الأصل نفي شيء تيقن الإنسان من وجوده أو إثبات شيءٍ يؤمن الإنسان بعدمه، وبتعبير آخر: الجحود يعني انكار الواقعيات عمداً وعن معرفة «١».

إنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا ما استمر في انكار الحقيقة، فستصبح القضايا التي يؤمن بها بشكل قطعي مورد شك وبشكل دائم، وإذا استمر الانكار أكثر فإنّ قدرته على التمييز تتبدل بحيث يرى الحق باطلًا والباطل حقاً.

---

(١). مفردات الراغب مادة (جحد)، كما يقول الجوهري: إنّ الجحود هو الانكار مع العلم. كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين في مادة (جحد).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٣

وهناك أسباب وعلل لهذا العمل (أي انكار الواقعيات مع العلم والمعرفة)، فتارة ينشأ عن العناد، وتارة اخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والغرور، وتارة يقدم الإنسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التي تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأجل شهوات اخرى، وعلى أيّة حال فإنّ لهذا العمل مردودات سلبية، وهو حدوث حجاب على العقل والفطرة فتنقلبُ قدرة التميز عند الإنسان رأساً على عقب.

ج ج

٧- حجاب الظن القاتم

اشارة

إنّ اتباع الظنون والخيالات الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف الأصيلة، ويجعل حجاباً أمام عينيّ الإنسان واذنيه.

في البداية نقرأ معاً خاشعين الآية الكريمة التالية:

«وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيْرٌ مِّنْهُم وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة/ ٧١)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآية ناظرة إلى فريق من اليهود الذين عاهدوا اللَّه على أن يتبعوا دعوات الأنبياء ويخضعوا لها، إلّاأنّهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه.

ثم تضيف الآية: إنّهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذاب، وهذا ظن باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والغرور، ظن باطل تدعو إليه الشياطين والأهواء النفسية، وهذا الظن هو الذي ألقى بحجابه على أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحال دون أن يعقلوا شيئاً، فلم تعد أبصارهم تدرك الآثار المتبقية من المصير المؤلم للاقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٤

قدرة سماع ما يُنقل عنهم، وبهذا فقدوا هاتين الوسيلتين المهمتين للمعرفة- السمع والبصر- من الناحية العملية وظنوا أنّهم فى أمان من عذاب اللَّه، وقد حصل لهم هذا الظن من خِلال السير فى الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة، فما سمعوا عن تلك الأقوام بآذانهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل إنّ ابصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم.

إلّا أنّه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة، وقد وسعتهم رحمة اللَّه فقبل توبتهم.

ومرة اخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا أنّهم شعب اللَّه المختار فى أرضه (بل أبناء اللَّه)، فأسدلت ستائر العمى والصم والجهل على ابصارهم وسمعهم وطُردوا من رحمة اللَّه تارة اخرى.

إنّ هذه الآية تبين بوضوح أنّ الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب اللَّه يجعل غشاوة على الباصر والمسع ويعطلهما عن العمل.

وعلى هذا، فالمراد من «فعموا وصموا» هو أن أعينهم ما بصرت آيات اللَّه والآثار الباقية من الأقوام السالفة، وأنّ آذانهم ما صغت لمواعظ الرسل.

وبديهى أنّ اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردود السلبى لدى الإنسان، بل الاستمرار عليه هو السبب فى ذلك.

وهناك أقوال فى سبب عطف الجملة الثانية على الاولى ب «ثم» التى تدل على الفاصل الزمنى.

فقال البعض: إنّ استعمالها للاشارة إلى مصيرين مختلفين لليهود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابل، والثانى عندما هاجمهم الإيرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم «١»، وقد جاء شرح ذلك فى التفسير الأمثل فى بداية سورة بنى اسرائيل.

وقال البعض: إنّ الجملة الاولى إشارة إلى عهد زكريا ويحيى وعيسى حيث خالفهم

---

(١). تفسير المنار، ج ۶، ص ۴۸۱.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠۵

اليهود آنذاك، والعبارة الثانية إشارة إلى عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله حيث أنكروا نبوته ورسالته «١».

وقال البعض: إنّ العبارة الاولى تبين أنّ اللَّه لعنهم وطردهم من رحمته وأعماهم وأصمهم لأجل ظنهم الباطل من أنهم شعب اللَّه المختار، وقد شملتهم رحمة اللَّه بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة اخرى كى يلتفتوا إلى حقيقةٍ هى: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلّابالتقوى

إلّا أنّ حالة الوعى واليقظة هذه لم تستمر عندهم، وتورط بعضهم بنفس الحسبان الخاطىء القائم على أساس التفرقة العرقية تارة اخرى، فأعماهم وأصمهم اللَّه ثانية «٢».

والجمع بين هذه التفاسير ليس متعذراً، ونتيجتها جميعاً واحدة وهى: إنّ الظن الباطل (كظن اليهود أنّهم شعب اللَّه المختار) يمنع الإنسان تدريجياً عن الإدراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب، وإذا كان هذا الظن فى بدايته فيقظة العقل محتملة، ورجوعه عن هذا الحسبان ممكن، أمّا إذا تفاقمت الظنون وتأصلت فى ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

ج ج

---

(١). وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال فى تفسير الكبير، ج ١٢، ص ۵١۶ وكذا فى تفسير روح المعانى، ج ۶، ص ١٨۴.

(٢). تفسير الميزان، ج ۶، ص ٧١.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٠٧

٣- الحُجُب الخارجية

١- حجاب القادة الضالين والمفسدين

اشارة

إنّ الحجب الخارجية هى الحجب التى تكمن وراء أعمال الإنسان وصفاته وتؤثر على العقل والإدراك والشعور وملكة التمييز وتحول دون معرفة الحقائق، وهى عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار اليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة.

١- «وَقَالُوا رَبَّنَا انَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلَا* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً». (الأحزاب/ ٦٧- ٦٨)

٢- «... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا انْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ اذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُم مُّجْرِمِينَ . (سبأ/ ٣١- ٣٢)

٣- «قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى اذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ اخْراهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هؤُلَّآءِ اضَلُّونَا فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ . (الأعراف/ ٣٨)

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٠٨

جمع الآيات وتفسيرها

شجار أصحاب النار:

إنّ الآيـة الاولى تبيّن حال فريق من الكفار عنـدما يرون نتيجة أعمالهم عند اللّه، فيقولون: «رَبَّنَا انَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلَا»، فما كنـا نُبتَلى بهـذا المصـير لولاهم، ثم يقولون: «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ (عـذاباً لكفرهم وعـذاباً لأنّهم أضـلونا) «وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً».

فهم لا يريـدون سوى تبرير أعمالهم بكلامهم هـذا، صـحيح أنّ لرؤسائهم دوراً فى انحرافهم، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم.

وصحيح أنّ وسوسة القادة المفسدين والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً على عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح، إلّاأنّ مقدّمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنّهم سلموا أنفسهم عشوائياً إلى هؤلاء من دون احراز أهليتهم للقيادة.

وهناك خلاف بين المفسرين فى الفرق بين سادتنا وكبراءنا، أو بالأحرى هل هناك فرق بينهما أم لا؟

يعتقـد البعض أنّ «سادتنـا» إشـارة إلى ملوك وسـلاطين المـدن والـدول، و «كبراءنـا» إشارة إلى الرؤساء المحليين، حيث عُـدت طاعة السادة مكان طاعة اللّه، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول، فقدرة وصلاحية الفريق الأول أكثر من الفريق الثانى ولهذا قُدِّم.

ويعتقد البعض أنّ السادة إشارة إلى الملوك وأصحاب القدرة، والكبراء إشارة إلى كبار السن، ولهذا يتبعهم بعض الناس.

ويعتقد آخرون أنّ كليهما بمعنى واحد وأنّهما قد وردا للتأكيد «١».

ويبدو أنّ المعنى الأخير أنسب من جميع المعانى السابقة.

وتجـدر الإشارة إلى أنّ «سادة» جمع «سيـد» والسيـد يعنى رئيس السواد (أى الجمع الغفير من الناس، وقـد اطلق عليه سواداً من باب أنّه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت

---

(١). راجع تفسير روح المعانى، ج ٢٢، ص ٨٧؛ تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٦٩؛ الكبير، ج ٢٥، ص ٢٣٢.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۰۹

هذه المفردة على كل رجلٍ كبير.

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظالمين الذين إذا ما رأوا نتيجة أعمالهم فى الآخرة سعى كلٌّ منهم لإلقاء ذنبه على الآخر، فيقول حينها المستضعفون (أى المغفّلون) للمستكبرين (أى الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية):

لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَكُنّا فى صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، واتّبعناكم جهلًا، وجعلتمونا آلة بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أنا كنّا على خطأ.

بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها، بل يجيبون: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ اذْ جَاءَكُم الرسل بالبينات والحجج الكافية؟ إنّكم مخطئون ونحن غير مسؤولين عن ضلالتكم، «بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ ومذنبين لأنّكم تركتم ما دعتكم إليه الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم.

ج ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى شجار «القادة» و «الأتباع» الضالين فى جهنم، فكلما دخلت امّة لعنت الاخرى واعتبرتها هى المسؤولة عن شقائها وعذابها فى الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: «رَبَّنَا هؤُلَاءِ اضَلُّونَا فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ» عذاباً لأنّهم ضالّون وعذاباً لأنّهم أضلونا وأغوونا.

فيجيبهم اللَّه: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِن لَّاتَعْلَمُونَ .

إنّ مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجيباً، إلّاأنّ مضاعفة العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى لكنا إذا دققنا فى الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنّهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمّة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد أصحابه مُعلناً توبَتُه عمّا قدمة لبنى أمية من خدمات، يقول فيه:

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۱۰

«لَوْلا أَنَّ بَنِى اميَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُم ويُجْبِى لَهُمْ الفَىءَ وَيُقاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَماعَتَهُمْ لَما سَلَبُونا حَقَّنا» «۱».

توضيحان:

۱- «المستضعفون» و «المستكبرون» فى القرآن المجيد

تحدث القرآن المجيد مراراً عن المستكبرين «والمستضعفين» وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن أن يشكل أحد المباحث المستقلة فى التفسير الموضوعى، إلّاأنّه ينبغى هنا الإشارة إليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التى وردت فى هذا البحث.

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ الكبر والتكبر والاستكبار لها معانٍ متقاربة، ثم يضيف: إنّ للاستكبار معنيين أحدهما: أن يتحرّى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفى المكان الذى يجب وفى الوقت الذى يجب والثانى أن يتشبّه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد فى القُرآن، وهو قوله تعالى «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ». (البقرة/ ۳۴)

ثم يضيف الراغب: قابلَ المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً إلى أنّ استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال «۲».

إنّ الاستضعاف يقابل الاسكتبار وهو يعنى طلب الضعف وقلة الحيلة، لكن بما أنّ هذه المادة غالباً ما تستعمل فى القرآن بصفة (فعل مبنى للمجهول) أو (اسم مفعول)، فتعنى الضعف الذى فرض عليهم من قبل المستكبرين.

وقد استعملت فى القرآن بصيغة الفعل المبنى للمعلوم كما جاء ذلك فى فرعون الذى استضعف بنى اسرائيل:
«انَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُم .
(القصص/ ۴)

---

(١). بحار الأنوار، ج ٧٢ (٧٥)، ص ٣٧٥؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ١٠٧ مادة (ظلمة).
(٢). مفردات الراغب، مادة (كبر).

كما ينبغى ذكر هذه النقطة وهى: أنّ القرآن استعمل مفردة (مُستضعَف) بمعنيين: الأول المظلومون فى الأرض، وهم المشمولون بألطاف اللَّه، كما جاء ذلك بالنسبة إلى مستضعفى بنى اسرائيل حيث قال اللَّه فيهم:
«وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . (القصص/ ۵)
والمعنى الثانى وهو المستعمل غالباً فى القرآن المجيد: الضعفاء فكرياً بسبب جهلهم وتقليدهم الأعمى وتعصبهم، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين عشوائياً، وهؤلاء هم الذين أشارت الآيات المذكورة فى أول البحث إلى شجارهم مع المستكبرين فى يوم القيامة وصرحت أنّهم يستحقون العذاب المضاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل أنّهم ضالون وعذاباً لاجل أنّهم ساهموا فى تثبيت اسس حكومة الجبارين.

٢- دور القادة و الامراء فى التأثير على الناس

لقد جاء فى حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس بامرائهم أشبه منهم بآبائهم» «١».
إنّ هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث إنّ فريقاً من الناس يتبعون الامراء ويقتدون بهم جهلًا وغفلة ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لإشارات هؤلاء الامراء وايعازاتهم، ولهذا اشتهر الحديث «الناس على دين ملوكهم».
إنّ هؤلاء الامراء فى رأى بعض الناس أبطال وقدوات نموذجية واسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا، وقد يقلّد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغرروا ببعض الجهلة والعوام، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم.
ومن المتعارف أنّ هناك فريقاً يعتبر «القدرة» دليلًا على «الحقانية»، ويعتبر المنتصر هو المحق فرداً كان أو جماعة، وهذا الاسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الأخطاء

---

(١). بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ۴۶ كتاب الروضة كلمات على عليه السلام، ح ٥٧.

والانحرافات فى حساباتهم الاجتماعية.
إنّ الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكرى لدى بعض الناس، كما جاء ذلك فى القرآن على لسان ملكة سبأ: «قَالَتْ انَّ الْمُلُوْكَ اذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ اهْلِهَا اذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . (النمل/ ٣۴)
وبالرغم من أنّ هذا الحديث تفوهت به ملكة ظالمة، إلّاأنّ ذكره فى القرآن من دون أى نقدٍ من جهة، وصدوره من شخصية ظالمة وخبيرة بما عليه الظّلَمَة من أمثالها من جهة اخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف.
ولهذا أرادت ملكةُ سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبى حقاً؟ فأرسلت إليه هدايا كى تعرف ردّ فعله تجاهها، وذلك لأنّها تعرف

أنّ أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيءٌ سوى صلاح الامم.

٢- حجاب الأصدقاء الضالين

اشارة

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولا». (الفرقان/ ٢٧- ٢٩)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآيات تشرح مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهى لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم إلى درجة حيث يعضون على أيديه.

إنّ تعبير «يعضّ» من مادة «عضّ» ومعناها واضح، والتعبير ب (يعضّ) فى العربية

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٣

وكذا فى الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزجار، وقد شوهد أنّ كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم وجهلهم عضّوا على أيديهم أو أصابعهم أو ظاهر أكفّهم، وكأنّهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلّا أنّ المصيبة إذا لم تكن شديدة جدّاً اكتفوا بعضّ أناملهم كما قال القرآن حاكياً حال الكفار فى الآية ١١٩ سورة آل عمران: «وَاذَا خَلَوا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ»، أو اكتفوا بعضّ ظهر احدى اليدين، أمّا اذا كانت المصيبة شديدة جدّاً فتارة يعضّون أيديهم اليسرى واخرى أيديهم اليمنى والذى جاء فى الآية الكريمة هو «يَدَيْه» وهذا يكشف عن أنّ المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقترن العضّ بالتفوه بجمل وأقاويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السلوك فى ابراز الغضب.

ويقولون عندها: «لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اذْ جاءَنِى إلّاأنّ هذا الخليل ما سمح لهم باليقظة.

وعلى هذا، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الأساسى لشقائهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق.

وهنا أقوال فى المراد من «فلان»:

احتمل البعض أنّه الشيطان، حيث ينتخبه الإنسان- أحياناً خليلًا، وذلك بقرينة قوله فى ذيل الآية: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

ويقول البعض: إنّ المراد منه هو نفس الشخص الذى نزلت فى شأنه الآية، أى «عقبة» وهو أحد الكفار المعروفين، أَسْلَمَ وارتد عن الإسلام وتخلى عن الرسول لأجل خليله «أبى»، وقتل فى معركة بدر، بينما قُتِل أبى فى معركة أُحد «١».

لكن الظاهر أنّ مفهوم الآية- كما يقول البعض- كلّى شامل لجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين، وأنّ شأن النزول لا يُخصّصُ الآية أبداً، خصوصاً وأنّ لمفردة

---

(١). تفسير مجمع البيان، ذيل نفس الآية مورد البحث ويقول البعض: إنّ «أُبى» الإنسان الوحيد الذى قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان، ج ۶، ص ٢٠۵).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١۴

«الشيطان» معنى واسعاً يشمل شياطين الجن والانس، كما أنّ ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم «١».

وقد قيل في تفسير «شركاء المشركين» الذين ذُكروا في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام:

«وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ ، أنّهم المتولون لمعابد الأصنام، حيث كانوا يغوون الناس ويغرونهم لتضحية أولادهم للاصنام، وبهذا التبس عليهم الحق، والقى حجاب على عقولهم وأفكارهم.

وعلى هذا التفسير، فإنّ الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحثنا أى أنّ الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعه عن المعرفة.

ج ج

توضيح:

دور الأصدقاء في التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:

يشاهد في الروايات الإسلامية تعابير كثيرة في هذا المجال، تكشف عن أنّ الأصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم السيطرة على فكر الإنسان وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا نماذج من الروايات التي تشير إلى ذلك:

١- نصح الإمام على عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلًا له:

«يا بُنى إياك ومصادقة الأحمق فانّه يريد أن ينفعك فيضرك ... وإياك ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يُقرّبُ عليك البعيد ويُبعِد عليك القريب» «٢».

٢- وقد جاء في عهد الإمام على عليه السلام لمالك الأشتر حول المستشارين:

«ولا تُدْخلن في مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل وَيعِدك الفقر ولا جباناً

---

(١). تفسير في ظلال القرآن، ج ۶، ص ١۵۶.

(٢). نهج البلاغة الكلمات القصار الكلمة ٣٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١۵

يُضعفك عن الامور ولا حريصاً يزين لك الشرَه بالجور» «١».

ويستفاد من التعبير الأخير أنّ المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير في فكر الإنسان ويحولون دون الإدراك والمعرفة.

٣- وقد جاء في حديث آخر للإمام على عليه السلام:

«مجالسة الأشرار تُورَثُ سوء الظن بالأخيار» «٢».

۴- وقد جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

«المرءُ على دين خليله وقرينه» «٣».

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح أو غير الصالح على كيفية المعرفة واسلوب التفكير.

ج ج

٣- حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعي

اشارة

فى البداية نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

١- «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قومَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا الٰهُكُمْ وَالٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ . (طه/ ٨٥- ٨٨)

٢- «فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِى زِيْنَتِهِ قَالَ الَّذِيْنَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ انَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . (القصص/ ٧٩)

٣- «قَالَ أَلْقُوْا فَلَمَّا الْقَوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيم . (الأعراف/ ١١۶)

۴- «وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى انْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ

---

(١). نهج البلاغة، الرسالة ۵٣.

(٢). سفينة البحار، ج ١، ص ١۶٨.

(٣). اصول الكافى، ج ٢، ص ٣٧۵، باب مجالسة أهل المعاصى، ح ٣.

النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (آل عمران/ ٧٢)

۵- «أَمْ انَا خَيْرٌ مِّنْ هذَا الَّذِىْ هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ* فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ* فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ . (الزخرف/ ۵٢- ۵۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الإعلام المسموم:

إنّ الآيةَ الاولى أشارت إلى قصةُ السامرى طالب الشأن والمقام، الذى استغل غيبةُ موسى عليه السلام اثناء ذهابه إلى طور سيناء (للقاء ربه) لمدّة أربعين يوماً، فجمع ذهب وحُلى بنى اسرائيل وصنع منها صنماً فى صورة عجل! ويظهر أنّه وضعه باتجاه الريح بحيث يُخرج صوتاً كرُغاءَ البقرة عند هبوب الرياح، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت ب «خوار» أى صوت البقرة البطيء.

إنّه انتهز الفرصة بأُسلوب خاص، حيث قام بعمله هذا بعد مضى خمسة وثلاثين يوماً من غيبة موسى أى عندما أخذت أنوار التبليغ التوحيدى تتضاءل فى قلوب بنى اسرائيل، حيث كان المفروض أن يَرجِعَ موسى من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً، إلّاأنّ اللَّه اخّر ميعاده لامتحان بنى اسرائيل فاتمهن أربعين يوماً.

يقول القرآن فى هذا المجال: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَا قَومَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُ .

وعلى أىّ حال فإنّ انحراف بنى اسرائيل (الذين ينقل أنّ عددهم بلغ الستمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص إلى الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين، إنّ الآيات التى جاءت فى هذا المجال فى سورة «طه» وغيرها من السور وكذا التواريخ والتفاسير تكشف عن أنّ السامرى كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ للإستحواذ على أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جعل حجاباً على عقولهم، فظنوا (بسبب ذلك

الحجاب) أنّ هذا العجل هو إله موسى !

والعجيب هنا أنّ الأمر بلغ ببنى اسرائيل إلى حَدٍّ حيث رددوا ما قاله السامرى: «هذا إله موسى ، والتعبير ب «قالوا» شاهدٌ على هذا.

والتعبير الأخير دليل واضح على تأثير إعلام السامرى الشديد، إنّه كان يستثمر إعلامه فى الجهات التالية:

١- انتهاز فرصة غيبة موسى

٢- تمديد غيبته إلى أربعين يوماً.

٣- الاستعانة بالذهب والحلى التى كانت ثمينة بالنسبة لبنى اسرائيل.

٤- استثمار الأرضية المساعدة والنمحرفة مثل طلبهم من موسى جعل صنم إلهاً عندما نجوا من الغرق فى النيل، ومرّو بقوم يعبدون الأصنام: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». (الأعراف/ ١٣٨)

٥- مكانته الاجتماعية عند بنى اسرائيل واعتمادهم عليه إلى حدٍ حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعدونه ربيب جبرئيل «١»!

٦- حب ضعفاء الفكر لألهٍ محسوس، وعدم التفاتهم إلى أنّ اللَّه بعيد عن التجسيم والصفات الجسمانيه، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسى رؤية اللَّه جهرة كما عكس القرآن ذلك فى الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إنّ هذه الامور واموراً اخرى سببت انحراف بنى اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل، واغواءهم بتبليغ السامرى واعلامه وفى النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهذا، عندما رجع موسى وعلم بهم، وبيّن القبح الشديد لعملهم هذا، استيقظوا من غفوتهم وصرخوا قائلين: ندمنا! ندمنا! واستعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة/ ٥٤).

---

(١). تفسير روح الجنان، ج ٧، ص ٤٨٢؛ تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۴۱۴؛ دائرة المعارف- دهخدا- مادة (سارى)، (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٨

وعلى أىّ حال، فإنّ الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المضلل.

ج ج

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» الغنى والمعروف فى بنى اسرائيل الذى قام يوماً باستعراضٍ لثروته أمام بنى اسرائيل.

لقد نُقِل فى التواريخ قصص كثيرة فى هذا المجال، فكتب بعضهم: ظهر قارون مع فريق يُعدّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من الخدم والحشم والجاريات، فالرجال على خيولٍ أَصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات على بغال بيض سروجها من ذهب، والجميع مزينون بالحلى والحلى والذهب والمجوهرات «١».

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألفاً، وإذا لم نعتبر هذه الأرقام واقعية، فتعبير القرآن: «فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِي زِيْنَتِهِ يكشف عن عظمة تلك اللقطة، وقد يكون عمله هذا من أجل تحدى واغضاب موسى عليه السلام، أو تثبيتاً لقدرته فى بنى اسرائيل، أو أنّه جنون عرض القوة والثروة اللتين يُبَتَلى بهما كثير من المتمولين والأغنياء، وعلى أىّ حال، فإنّ تلك اللقطات والاعلام المتزامن معها كان بدرجة من العظمة سلبت عقول الكثير من بنى اسرائيل وَأَلْقَتْ بستار على أرواحهم حتى جعلتهم يتمنون أن تكون لهم ثروتهُ وقدرته، ويعدونه سعيداً و «ذو حظٍ عظيم».

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذى خسف اللَّه الأرض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما حَلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنّهم لم يكونوا مثل قارون.

إنّ تأثير الاعلام لا ينحصر على ذلك الزمان فحسب، بل يشمل فى كل عصر وهذا أمرٌ لا يُنكر، وان كثيراً من جبابرة الماضى والحاضر يستعينون باستعراض قوتهم وامكانياتهم كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتسخيفها، وسحر أعينهم، وقد

---

(١). راجع تفاسير الكبير والقرطبى وروح المعانى فى ذيل الآيات فى سورة القصص.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣١٩

جَنَوا ثمار مثل هذه الاستعراضات ولا يزالون، وإنَّ العلماء والمفكرين الراسخين هم فقط القادرون على رفع هذه الحجب عن أفكارهم وأفكار غيرهم، وتبيان الوجوه الحقيقية لهؤلاء الجبابرة.

ج ج

و قد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسى للسحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمسة عشر الف ساحر طبقاً لرواياتٍ اخرى (يحتمل أن يكون هذا العدد متعلقاً بنفس السحرة وأعوانهم وعمالهم، كما ينبغى الالتفات إلى أنّ السحر كان رائجاً فى ذلك العصر بكثرة).

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحى فى يوم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنهُ القرآن «يوم الزينة» و «ضحى فى الآية ٥٩ من سورة طه، وقد كشفت القرائن عن أنّ فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة على موسى عليه السلام، وذلك لأنّه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمة هذه القضية.

تقول الآية: «فَلَمَّا الْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

وينبغى هنا معرفة مفردتى «الاسترهاب» و «السحر» جيداً لفهم الآية.

جاء «السحر»- لغة- بمعنيين، الأول هو الخدعة، والثانى هو الشيء الذى غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقد أرجع البعض كلا المعنيين، إلى معنى واحد وقالوا:

إنّ حقيقة السحر هى قلب الشيء من حقيقته إلى شكل آخر «١».

و كما قلنا فى المجلد الأول من التفسير الأمثل عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة:

أنّ السحر غالباً ما يعتمد على الخواص الكيمائية والفيزيائية للمواد التى لم يعرفها الناس إلّا أنّ السحرة يعرفونها جيداً وقد اعتمدوا عليها كلياً، كما أنّه جاء فى التفاسير حول قصة

---

(١). راجع قاموس اللغة، ومفردات الراغب، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، وتاج العروس.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٢٠

مقارعة موسى عليه السلام للسحرة، إذ يحتمل أنّ ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصى والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفرّار، وبما أنّ الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته، فعندما ألقوا هذه العصى والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذى يحتمل وجود مصدر حرارتى تحته «١».

وقد يستعين السحرة فى عروضهم- أحياناً- بالشعوذة وخفة اليد، فيرى الناسُ أشياءً لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من هذه العروض، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وحاسة السمع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صورٍ غير واقعية أمامهم.

كما يحتمل أنّهم يستعينون بالتنويم المغناطيسى والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية أمام الناس.

بالطبع هناك قسم آخر من السحر يحتمل استعانة السحرةُ به وهو تسخير الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر).

وقد يطلق السحر على معنى أوسع من المعانى السابقة، فيقال لمن حسن بيانه «له بيان ساحر» كما جاء فى الحديث: إنّ الفتنة سحر، لأنّها تفرق بين الأحبّة، إلّا أن الذى جاء فى الآية هو «سحروا أعين الناس» وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اموراً لا واقع لها، فيرون حية تسعى وإن لم يكن هناك حية أبداً، والشاهد على هذا الحديث هو الآية: «فَإِذا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ الَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

(طه/ ۶)

(مع أنّها لا تسعى ولا تتحرك لكن الزئبق- احتمالًا- هو الذى جعلها تبدو هكذا).

وأمّا «استرهبوا» فمن مادة «رَهْب» وهو الخوف المتزامن مع التحفظ والاضطراب (كما

(۱). راجع تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۲۲؛ التفسير الكبير ۱۴، ص ۲۰۳؛ تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۲۱۳؛ تفسير المنار، ج ۹، ص ۶۶ وتفاسير اخرى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۱

يقول الراغب فى مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بالارهاب أى ايجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين إضافة إلى سحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما وإلى حسن القيام بهما).

وقد نقل أنّ مساحة المحل الذى عُدَّ لهذا الأمر كان ميلًا فى ميل «۱»، كما نقل أيضاً أنّهم أعدوا جبلًا من الحبال والعصى التى تبدو وكأنّها أفاعى تسعى «۲».

ثم خاطب السحرة الناس بأقاويل مثل: أيها الناس ابتعدوا عن الساحة لكى لا تمسكم الأفاعى بضرر لأنّها خطرة ومخيفة! وأمثال هذه التعابير التى أُشير إليها فى بعض التفاسير «۳»، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنّهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألقوا بحجبهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعيات.

ج ج

لقد كشفت الآية الرابعة عن احدى المؤامرات الاعلامية التى حاكها اليهود ضد الإسلام، والتى كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بالإسلام، وقصتها: أنّ فريقاً منهم أسلموا وآمنوا ظاهراً فى النهار وارتدوا عن الإسلام فى الليل، وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الإسلام قالوا: إنا لاحظنا صفات محمد صلى الله عليه و آله من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.

إنّ هذه الحملة الاعلامية سببت فى ارتداد قوم من المسلمين عن الإسلام، إذ قالوا:

إذا ارتدّ عن الإسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منّا ويعرفون القراءة والكتابة، فلابدّ وأنّ الدين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۲۲.

(۲). تفسير المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق، ج ۹، ص ۶۶.

(۳). التفسير الكبير، ج ۱۴، ص ۲۰۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۲

ويلقوا بحجاب فتنتهم على عقولهم.

إنّ مفردة «طائفة» فى عبارة «وقالت طائفة» من مادة «طواف» وتعنى فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكأنّهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منها على ما يقول بعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تغير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فحاكوا هذه المؤامرة «۱».

إنّ التعبير ب «وجه النهار» إشارة إلى بداية النهار لأنّ الوجه أول شىء يواجهه الإنسان، وهو أشرف عضو، بالطبع أنّ الآية حكت المسألة كاقتراح اقترحه البعض ولم تتكلم عن تنفيذ هذا الاقتراح، إلّاأنّ القرائن أثبتت أنهم نفذوا مؤامرتهم بعد ما حاكوها، وإلّا

فيُستبعد أن يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكى عن هذه الأهميّة.

لكننا نعلم على أيّة حال، أنّ خطتهم الإعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً فى قلوب المؤمنين الذين طهُرت قلوبهم.

ج ج

إنّ الآية الخامسة والأخيرة بيّنت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسى عليه السلام لفرعون، فعندما اتّجهت الأنظار إلى موسى وكادت القلوب أن تهتدى والأفكار أن تُصحح، قام فرعون بحملةٍ اعلامية شديدة سعياً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى وقد انعكس فى هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعونى المضلل.

اعتمد اعلامه فى البداية على ذكر شرفه العائلى ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا الشخص مشيراً إلى موسى» الذى ينحدر من عائلة فقيرة حيث يعمل راعياً وعبداً من عبيد بنى اسرائيل.

و هو لا يملك قدراً من الفصاحة وأنا افصح منه.

وفضلًا عن ذلك «فلو لا القى عليه اسورة من ذهب» أى لِمَ لم يكن له سوار من ذهب

(١). التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨٥؛ تفسير روح المعانى، ج ٣، ص ١٧۶؛ تفسير القرطبى، ج ٢، ص ١٣۵۴.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٢٣

الذى كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه.

ثم انّه إذا كان صادقاً لِمَ لم يأتِ بملائكة معه كى تكون شاهداً وعلامة على صدق كلامه؟

وبهذه الحجج الأربع ادّعى بطلان نبوة موسى عليه السلام.

يقول القرآن فى هذا المجال: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .

إنّ «استخف» من مادة «خفيف» والمراد منه هنا هو أنّ فرعون سعى لأنّ يستخف عقول قومه، جاء فى تفسير مجمع البيان: إنّ فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنّه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله: أليس لى ملك مصر ... الخ «١» (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها؛ ويلقون فى روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين) «٢».

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول فى نهاية الآية: إنّهم أطاعوه واستسلموا لإعلامه، وذلك لأنّهم مذنبون وفاسقون، وهو يشير بذلك إلى أنّ المؤمن الهادف والواعى لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة، بل الفسق والذنوب هى التى تهيىء الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا.

وبتعبير آخر: فإنّ «النفس الامارة» من الداخل، و «الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الإنسان.

ج ج

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٩،، ص ۵١.

(٢). تفسير فى‌ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣۴٠.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٢۴

توضيح:

الجوانب المتعددة للإعلام المضلل:

إنّ هذه القضية فى عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش، كما أنّها لم تخفَ على الناس فى العهود الغابرة.

إنّ الجبابرة الـذين أرادوا فرض إرادتهم وحاكميتهم على الناس، توسلوا بوسائل إعلامية مختلفة لغسل أدمغة الناس، بدءً بالمكاتيب القديمة وانتهاءً بالمحاريب والمنابر، وأخذاً برواة القصص والأساطير فى المقاهى، وانتهاءً بالكتب العلمية.

والخلاصة: إنّهم استعانوا بجميع الوسائل المضلِّلة للوصول إلى مآربهم، من تحريف التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المداحين، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس، واختلاق الأساطير والكرامات والقيم غير الواقعية، وغيرها من الوسائل، فانّهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه أن يصوروا الشيطان ملكاً أو إنساناً محترماً، وذلك كله من أجل الوصول إلى مآربهم.

وقد جاء فى بعض التواريخ الإسلامية المعروفة أن طاعة أهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة، وننقل هنا عبارة المسعودى فى هذا المجال:

«لقد بلغ من أمرهم فى إطاعتهم له أنّه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء» «١».

والقصة التالية قصة معروفة (وَلَوْ لَمْ تكن مرويّةً فى كتب التاريخ لكان قبولها صعباً)، حيث إنّ رجلًا من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملًا فى وقت كان أهل الشام يرجعون من صفين، فرآه رجل دمشقى فقال له: إنّ هذه الناقة لى وأنت أخذتها منى فى صفين، فتنازعا فاشتكى الشامى عند معاوية (وكأنّها اتخذت صبغة سياسية) وجاء بخمسين شاهداً على أنّ هذه الناقة له، فقضى له معاوية على أساس الشهود.

فصرخ الكوفى قائلًا لمعاوية: إنّ هذا جمل وليس ناقة (انثى الجمل)، وطلب منه أن

---

(١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢.

يلاحظها بنفسه، فأدرك معاوية صدق الكوفى فيما يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إنّ الحكم صدر وانقضى وبعد ما تفرّق الناس أرسل معاوية رجلًا إلى الكوفى، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جمله، وقال له: «أبلغ علياً أنّى اقابله بِمِائةِ ألفٍ ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل» «١».

وخلاصة القول: إنّ فى التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأُمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ضلوا حَيارى فى متاهات الدروب، وابتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الأوضاع ورجوعها إلى حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المضل، وارتفاع حجب الاعلام، يستيقظ بعض الناس وينتبهون لماضيهم فيتأسفون ويندمون كثيراً.

وفى العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة انَّ فى بعض الدول المتقدمة- اصطلاحاً- تأخذ وسائل الاعلام بأيدِ الشخصيات العلمية والمفكرين الواعين نسبياًصناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التى تدعو إليها وسائل الاعلام تلك، وقد يتصور أنّهم احرار على الاطلاق، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك.

إنّ اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعانتها بفنون علم النفس يزيد فى تأثير الاعلام على النفوس بدرجة يَحارُ فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتمكّنون من متابعة الامور من دون رأى مسبق فيها.

إنّ هذا الأمر لم ينحصر فى الامور السياسية فحسب، بل فى الامور الاقتصادية كذلك، فإنّ وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرة أحياناً، وبهذا يُفرض على المجتمع اقتصادٌ سقيم.

إنّ الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول إلى هذه الأهداف غير المشروعة.

كما أنّه يستعان بالاعلام الثقافى الغامض لفرض المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب، فتارة يُفرض مذهب باطل وعارٍ عن الاسس المنطقية، وكأنه مذهب فلسفى منطقى إنسانى.

---

(١). مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢؛ الإمام على صوت العدالة الإنسانية، ج ۴، ص ٩٥۶.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٢۶

وعلى أيّة حال، فمما لا شك فيه أنّه ينبغى رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتّجاه المعرفة فيه، كما ينبغى عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلًا عن المجتمع، بل يحدد عملها فى توعية الناس، وتهيئة الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ينبغى أن لا يكون هدف وسائل الأعلام الجماعية هو وضع الحجب على عقول الناس والتعتيم عليهم، بل ينبغى أن يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائى عن العقول، وهذا هو البرنامج الراقى لوسائل الاعلام فى مجتمع رشيد ونموذجى، والمؤسف فى عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إنّ النقص فى وسائل الاعلام هو أنّها بيد الساسة، والأسوء من ذلك أنّها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

ج‌ج

۴- حجاب وساوس الشياطين

اشارة

فى البداية نتمعن خاشعين فى الآيات الشريفة التالية:

١- «فَلَوْلَا اذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام/ ۴٣)

٢- «وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُون اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَايَهْتَدُونَ . (النمل/ ٢۴)

٣- «وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُم مِّنْ مَّساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . (العنكبوت/ ٣٨)

۴- «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَانَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ . (الزخرف/ ٣۶- ٣٧)

۵- «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ الى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ١١٢)

۶- «انَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى ادْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٢٧

وَأَمْلَى لَهُمْ . (محمد/ ٢۵)

٧- «يَا ايُّهَا النَّاسُ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَاتَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ». (فاطر/ ۵)

شرح المفردات:

كلمة «الشيطان» خلافاً لما يظنّ البعض- ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلى ما يُصطلح عليه فهو «اسم جنس» يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخرّب، سواء كان من الجن أو الانس أو شيئاً آخر.

وهنالك قولان فى أصل هذه المفردة:

القول الأول هو القائل بأنه من مفردة «شُطُون» أى البُعد، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدى «شَطون»، ويقول «خليل

بن أحمد»: إنّ شَطَن تعنى الحبل الطويل، وبما أنّ الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة اللَّه استعملت هذه المفردة فيه.

والقول الثانى هو القائل بأنه من مادة «شَيْط» ويعنى الالتهاب والاحتراق غضباً، وبما أنّ الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أُمر بالسجود إلى آدم عليه السلام أطلقت هذه المفردة عليه وعلى الموجودات الاخرى من أمثاله «۱».

«الغَرور»: من مادة «غُرور» أى الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة، وقد اطلقت هذه المفردة على الشيطان لأنّه يغرّ الناس بخدَعِه وحِيَله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغيّر رؤيتهم للحق والباطل.

«الغُرور»: كل شيء يغرّ ويخدع، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان، وإذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنّه أخبث الخادعين والماكرين.

أمّا «التسويل» فمن مادة «سُؤْل» وفى الأصل يعنى الحاجة والامنية التى ترغب النفس

---

(۱). التحقيق فى كلمات القرآن الحكيم؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب ومجمع البحرين مادة (شيطان).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۲۸

فيها، والتسويل يعنى تزيين الشيء بشكل حيث تشتاق إليه النفس، كما جاء بمعنى تزيين الأشياء القبيحة.

هذا التفسير ذكره الراغب فى مفرداته، إلّاأنّه يستفاد من صِحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها فى الأصل هو الاسترخاء المتزامن مع الغرور والغفلة، ولهذا اطلقت هذه المفردة على تزيين الامور غير السائغة واظهار عكس ما هى عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الإنسان من جرائها ويسترخى.

وعلى أيّة حال، فإنّ المراد من تسويلات الشيطان فى الآيات هو إظهار القبح حسناً بشكل يخدع الإنسان ويحرفه.

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُزيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟

تحدثت الآية الاولى عن فريق من الأقوام السالفة الذين أُرسل إليهم رسلٌ ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق، إلّاأنّهم اعرضوا عن ذلك، فأنزل اللَّه عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك، كى يوقظهم من غفلتهم، ولكى يخضعوا للحق، إلّاأنّهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع إلى الحق والتوبة.

يقول القرآن فى هذا المجال: لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا لهم؟ ثم يعدُّ أسباب هذا الأمر ويقول: الأول هو «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فما كادت تخضع للحق.

والثانى هو: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، بحيث أصبحوا يرون المعاصى صواباً والقبح جمالًا، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة الهوى

وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الأنبياء اللفظية، ولا مواعظ اللَّه العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة اخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۲۹

هناك بحث بين المفسرين فى المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض: إنّه الوساوس الشيطانية التى تبدو المحاسن فيها قبائحاً والقبائح فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التى تزين للإنسان سوءَ أعماله، كما تُجعل المواد السامة فى غلاف مُغرٍ وجميل، وكما

يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت غطاء التمدن والأفكار النيرة والحرة.

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته إلى بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: «وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .

إنّ هذه الآية تكشف عن أنّ الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته الخاصة به وبعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة، ويعرف أنّ الشيطان يجعل ستاراً على فكر الإنسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الإنسان إلى مراده المنشود.

وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات على عالم الإنسان، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم فى تفسير الأمثل ذيل الآية ١٨ من سورة النمل، وفى ذيل الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

كما تحدثنا فى ذيل الآية نفسها عن كيفية طى الهدهد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله إلى بلاد سبأ.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرضت على عرب الحجاز مدنهم الخربة التى يمرون بها عند رحلاتهم إلى الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت إلى السبب الأساسى فى إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

إنّ عبارة «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ – كما يقول كثير من المفسرين– تعنى غفلتهم وعدم

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٣٠

تدبرهم فى الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل «١».

وقد جاء فى تفسير الميزان: «إنّهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلّاأنّ الشيطان زيَّن لهم أعمالهم فمنعهم عنه» «٢».

ويقول البعض: إنّ المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم «٣».

إنّ الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً على عقل الإنسان وفكره.

ج ج

وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذى يعشو عن ذكر اللّه ويغفل عنه وقالت:

«وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمانِ ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ذَكر المفسرون وأئمة اللغة معنيين لفعل «يَعْشُ»، فقال بعض: إنّه ظلام خاص يحلُّ فى ا لعين يفقد الإنسان من جرائه بصره ويكون أعمى أو أعشى (أى لا يرى فى الليل) وهو من مادة «عَشَى ، كما يقال «عشواء» للجمل الذى لا يرى أمامه ويخطأ عند المشى، وعبارة «خبط عشواء» إشارة إلى هذا المعنى

وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريفة هو: إنَّ الذى لا يرى آيات اللّه فى الكون بعينه، ولا يسمع من انبيائه، فانه سيقع فى فخّ الشيطان وتسويلاته.

وقال بعض آخر: إنّها من مادة «عَشْو»، وعندما تستعمل مع «إلى فتعنى الهداية ببصر ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعنى الإعراض «۴».

---

(١). تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٨٣؛ تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۴۶٨، كما نقل هذا عن بعض المفسرين فى تفسير القرطبى.

(٢). تفسير الميزان، ج ١۶، ص ١٣١.

(٣). التفسير الكبير، ج ٢۵، ص ۶۶.

(۴). يقول بعض المفسرين: إنّ هـذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا، يَعْشو)، فتعنى التعامى من دون أن تكون علة فى بصره، أمّا إذا كانت من مادة (عَشَى يَعْشا)، فتعنى حصول علة فى بصره، تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣۶٨، وينبغى الالتفات هنا إلى أنّها فى الآية من باب (عَشَا، يَعْشو).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣١

وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو: إنّ الذين يعرضون عن ذكر اللَّه فَنُقَيِّضُ ونسلط الشيطان عليهم «١».

إنّ «نُقَيِّضُ» من مادة «قَيْض» وتعنى قشر البيض ثم استعملت بمعنى الاستيلاء، واستعمال هذه المفردة فى الآية أمرٌ مثير، حيث يكشف عن أنّ الشيطان عندما يَنْقَضُّ على الإنسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهـذا أسوء أنواع حجب المعرفة التى يُبتَلى بها الإنسان، كما أنّ هناك مثلًا عند العرب يقرب معنى الآية للأذهان «استيلاء القيض على البيض».

والأسوء من هذا هو أنّ احاطة الشيطان بالإنسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر إلى درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب أنّ طريقه هو طريق الحق والهداية «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ج ج

وقـد تحـدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العداء للأنبياء والذين أعدوا أنفسـهم لابطال فاعلية تعليم الأنبياء، ويوحى بعضـهم إلى بعض أقاويـل مزخرفـةً باطلـةً لاـ أسـاس لها من الصـحة، كما يعلّم بعضـهم البعض طرق المكر والخـداع، وذلک لاغفال الناس وكتم الحقائق وجعل الحجب عليها، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء.

وينبغى ذكر هـذه النقطة هنا وهى: إنّ العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشياطين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث إنّ الشياطين متحدون ومتفقون فى سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنّهم عدو واحد.

ويقول البعض: إنّ «عدو» هنا بمعنى أعداء أى بمعنى الجمع «٢».

---

(١). راجع لسان العرب ومفردات الراغب و تفاسير القرطبى وروح البيان والميزان.

(٢). تفسير روح المعانى، ج ٨، ص ۴.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٢

كما صرح بعض آخر: إنّ «العدو» تطلق على المفرد والمثنى والجمع «١».

والآية السادسة هى من آيات سورة محمد صلى الله عليه و آله التى أُشير فيها إلى حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارة تعدّ الفساد فى الأرض وقطع صلة الرحم سبباً للعمى الباطنى لهم الآية ٢٣، وتارة اخرى تعد ترک التدبر فى القرآن بمثابة الأقفال على القلوب.

والآية المذكورة تعدُّ تزيين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولًا، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينِهِ لهم إلى درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الأخيرة.

من هم المشار إليهم فى الآية؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من جرائه إلى فريقين، فبعض يقول: إنّهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله عليه و آله قبل ظهوره وذلک لوجود العلامات المذكورة فى كتبهم عن ذلک الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدُّ هذا نوعاً من الارتداد.

وبعض يقول: إنّها تشير إلى المنافقين الـذين آمنوا فى البدايـة ثم ارتـدوا بعـد ذلك، أو أنّهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات إلى كون الآيات التى سبقت هذه الآية والتى تليها ناظرة إلى المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية- إذن- المنافقون الذين آمنوا فى البداية ثم ارتدوا بعد ذلك.

إنّ «أملى لهم» من مـادة «املاء» أى الإمهال «۲»، والمراد منهـا هو الآمال البعيـدة التى يوحيها الشـيطان للإنسان، الآمال التى تشـغل فكر الإنسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

ج ج

أمّا الآية السابعة والأخيرة فقد أنذرت الناس- بتعبير وافٍ- بأن وعد اللَّه حق، ثم ذكر

---

(۱). تفسير المنار، ج ۸، ص ۵.

(۲). ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ أصل هذه المادة هو (مَلْو) لا (مَلأ)- بالهمزة-.

عاملين للضلالة والانحراف عن الحق، الأول: الدنيا «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا»، والثانى:

الشـيطان «وَلَـا يَغُرَّنَّكُمْ بِـاللَّهِ الْغَرُورُ» فتارة يؤملكم بكرمه وينسـيكم غضـبه، وتارة اخرى يغويكم بشـكل بحيث تنسون اللَّه وتعاليمه، أو تبدو لكم تعاليمه بشكل معكوس.

إنّ «غرور»- كمـا أشـرنا سابقـاً- هو كـل ما خـدع الإنسان، سواء كان مالًا أو جاهاً أو شـهوات أو غير ذلك، وبما أنّ الشـيطان أوضـح مصداق للخداع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسِّر به «۱».

يعتقـد كـثير من المفسـرين أنّ عبـارة «لَـايَغُرَّنَّكُمْ بِـاللَّهِ الْغَرُورُ» تلميـح إلى أنَّ الشـيطان غَرَّ الإنسـان بَعفو اللَّه وكرمه بدرجـة يمكّنه من ارتكاب أى معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأنّ هذا ناشيء عن كمال معرفته لصفات اللَّه! وهذا أمر عجيب.

وحاله كحال من يتصور أنّ جسمه قوى وذو مناعة تمكنه من مقاومة جميع السموم المهلكة، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت.

وهذا هو أحد حجب المعرفة.

ج ج

توضيحات

۱- من هو الشيطان؟

إنّ «الشيطان»- وكما قلنا سابقاً- ليس اسماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إنّ إبليس الذى امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين.

إنّ لإبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس، وتطلق مفردة الشـيطان على الجميع، وعلى هذا فقادة الكفر والشرك والظلم والفساد فى الأرض، والعاملون فى الاجهزة الظالمـة كلهم من جنود الشـيطان، ولقـد جاء فى رواية أن هناك شـياطينَ من الانس أسوء من شـياطين الجن، حيث سأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أباذر يوماً: «هل تعوّذت باللَّه من شر شياطين الجن

---

(۱). إنّ «الغرور» صيغة مبالغة.

والإنس»؟

فقال أبوذر: وهل من الناس شياطين؟

فأجابه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «نعم هم شرٌّ من شياطين الجن» «١».

كما أنّ المستشفَّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك في الآية: «وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . (الاسراء/ ٦٤)

إنّ «اجلب» من مادة «إجلاب» ويعني التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحثّ مجموعة ما على الحركة.

أمّا المراد من «خيلك ورَجِلك»، فيقول الكثير من المفسرين: إنّه الراجل أو الفارس الذي يخطو في معصية اللّه، أو قاتل في هذا السبيل «٢».

ويقول البعض: إنّ للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً.

وحمل البعض العبارة على الكناية، وقال: المراد من الآية هو أنّ الشيطان أعدَّ العِدَّة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس «٣».

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد، ومن الرجل، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة.

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التي تتغلب على روح الإنسان وتمتطيها، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التي تسعى لانحراف الإنسان عن الصراط المستقيم.

جج

٢- الإجابة عن سؤال

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٥٤.

(٢) نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين.

(٣) ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير، ج ٢١، ص ۶، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال في تفسير في ظلال القرآن، ج ۵، ص ٣۴٣.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٣۵

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف يمكن أن يتركنا اللّه لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة اللّه وعدله؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى نقطة، وهي: إنّ اللّه- وكما جاء في القرآن الكريم- يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم يؤازرونهم وينصرونهم في طريق جهاد النفس والعدو:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...».

(فصلت/ ٣٠- ٣١)

٣- النقطة المهمّة الاخرى

هى: إنّ الشيطان لا يـدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حـدود دولـة الروح من دون جواز، إنّ هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصـتنا، نعم إنّه يـدخل من الباب لا من النافـذة، ونحنُ نفتـح له الباب، كما يقول القرآن فى هـذا المجال: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُـلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* انَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

(النحل/ ٩٩- ١٠٠)

فى الحقيقـة إنّ أعمـال الإنسـان هى التى توفر الأرضـية لنفوذ الشـيطان، وذلك ما يقوله القرآن: «انَّ المُبَـذِّرِينَ كَانُوا اخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .

(الاسراء/ ٢٧)

إلّا أنّه لا ـ طريـق للنجاة مـن مكائـد الشـياطين المتنوعـة وجنـودهم فى أشـكالها المختلفـة مـن الشـهوات ومراكز الفسـاد والسـياسات الاسـتعمارية والمـذاهب المنحرفـة والثقافات الفاسـدة، إلّااللجوء إلى الإيمان والتقوى والتظلّل بألطاف اللَّه والتوكل على ذاته المقدّسة، وكما يقول اللَّه تعالى: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٦

قَلِيلًا». (النساء/ ٨٣)

وقد انتهت إلى هنا حجب المعرفة العشرون، فننتقل معاً إلى مؤهلات المعرفة.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٧

مؤهلات المعرفة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٣٩

مؤهلات المعرفة

تمهيد:

اشارة

كما أنّ البـذور تنمو فى الأراضـى الخصـبة، وكما أنّ الأزهار لا تتفتح فى الأراضـى المالحة بالرغم من اسـتعمال أفضل البذور، ونزول المطر المتوالى عليها، كذلك بذور المعرفة فانّها لا تنمو إلّافى القلوب الصالحة والمؤهلة، ولا تتفتح أزهارها إلّافى الأرواح الطاهرة.

ولهذا السبب فإنّ الاطلاع على الروحيات والأعمال التى تهيىء وتُعِدّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التى تتعلق ب «المعرفة»، وقد استعمل القرآن فى هذا المجال تعابير ذات معانٍ عميقة وإشارات جميلة.

وبالرغم من أنّ المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلّاأنّ الاسس المهمّة والتى أشار إليها القرآن عبارة عن الامور التالية:

١- علاقة التقوى بالمعرفة.

٢- الإيمان والمعرفة.

٣- علاقة الصبر والشكر بالمعرفة.

٤- المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة.

٥- علاقة الخوف بالمعرفة

و سنبحث كلًا من هـذه الامور فى فصـل خاص بعـد ذكر الآيات التى تتعلق بها، كما سنسـتعين بالروايات الإسـلامية فى هـذا المجال كمؤكد وموضّح لها إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٠

١- علاقة التقوى بالمعرفة

اشارة

فى البداية نتأمل خاشعين فى الآيات المباركة التالية:

١- «الم* ذلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ . (البقرة/ ١- ٢)

٢- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً». (الأنفال/ ٢٩)

٣- «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ٢٨٢)

٤- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (الحديد/ ٢٨)

جج

شرح المفردات:

إنّ «التقوى من مادة «وِقاية» وتعنى- كما يقول الراغب فى مفرداته- حفظ الشيء من الآفات.

ثم يضيف: إنّ التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس ممّا يخشى مضرته، ثم اطلقت على الخوف، كما أنّ التقوى فى الشرع تطلق على التحفظ من المعاصى، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة «١».

ولباقى أئمّة اللغة تعابير تشبه ما جاء فى المفردات، فقد فسرها بعض بالصيانة «٢»، وبعض اخر ب «الامتناع عن القبائح والأهواء» «٣».

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنّهم سألوا عن حقيقة التقوى فاجابوا:

---

(١). مفردات الراغب مادة (وقى .

(٢). لسان العرب نفس المادة.

(٣). مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغى الالتفات إلى أن أصل مفردة التقوى هو «وَقى فانقلبت الواو تاءً، كما ذكر ذلك الخليل بن أحمد فى كتابه «العين».

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤١

«هل مررت بطريق مليء بالأشواک فى يوم ما؟ قال السائل: نعم، قال: الم تجمع ثيابک وترفع اذيالك وتسعى للخلاص من الأشواک؟ فحالتك هذه هى التقوى .

نعم، إنّ الطريق إلى اللَّه مليءٌ بالأشواک كأشواک الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغى على الإنسان أن يحافظ على ثباته فيتجنب أن يكون عرضة لهذه الأشواک، وينبغى أن لا تشغله عن مسيره إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

و هذا لايكون إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام.

وبتعبير أبسط: إنّ التقوى هى الوقاية من الآفات التى تعترض الروح فى سيرها التكاملى، وتجنّبُ الذنوب والشبهات حتى الوصول إلى الملكة.

وقد ذكر بعض المفسرين معانىَ عديدة للتقوى وجاؤوا بشاهد من القرآن لكلٍ منها، وفى الحقيقة أنّ كلًا منها مصداق من مصاديق

التقوى مثل التوبة والطاعة والإخلاص والإيمان (العبادة والتوحيد) «١».

ويقول البعض: إنّ حقيقة التقوى هى أن يجعل الإنسان حائلًا أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الإنسان تأثير ضربات العدو بالدرع، كذلك المتقون فانهم يصونون أنفسهم من عذاب اللَّه بواسطة درع طاعة اللَّه «٢».

نقسّم التقوى إلى ثلاث مراحل: التقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنب، والتقوى عما ينسى الإنسان ذكر ربّه «٣».

ولكن- كما هو واضح- فإنَّ المعانى هذه كلها ترجع إلى المعنى الأساسى الذى ذُكر للتقوى فى البداية.

ج ج

---

(١). وجوه القرآن، ص ۵۵؛ التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢٠.

(٢). تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٠ و ٣١.

(٣). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣۴٢

جمع الآيات وتفسيرها

اتقوا كى يسطع نور العلم على قلوبكم!

يقول اللَّه عزّ وجلّ فى الآية الاولى «ذِلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها.

وهذه هى الحقيقة، فما لم تحصل فى باطن الإنسان مرحلة من مراحل التقوى لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوى هو أن يسلم الإنسان نفسه إلى الحق ويترك العناد، فإنّ الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوى سوف لا يرتفعون إلى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.

طبيعى أنّ الإنسان كلما كانت روح التقوى والتسليم إلى الحق وقبول الحقائق والواقعيات قوية عنده كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر.

إنّ ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المجيد كالغيث الذى يحيى الأرض ويفتح أزهار المعرفة فيها، وهذا يحدثُ فى الأرض الخصبة فقط لا فى كل أرض.

إنّ التعبير ب «هدى أى بصيغة المصدر، تأكيد لحقيقة أنّ روح التقوى إذا استيقظت عند الإنسان وأصبحت فعالة، فإنّ القرآن سيصبح الهداية ذاتا (تأمل جيداً).

وفى هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام:

«إنّ الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فإنّ الفطرة إذا سلمت لم تنفك من أن تنتبه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمرٍ خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها ممّا يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلى أمر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهى مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهون ويعودون، وأنّه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهى اصول الدين» «١».

(١). تفسير الميزان، ج ١، ص ۴٢.

كما يقول الفخر الرازى:

«والبعض الآخر ذكر فى حصر الهداية بالمتقين لأنّ اللَّه تعالى ذكر المتقين مدحاً ليبين أنّهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال: «إِنَّمَا انْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا». (النازعات/ ۴۵)

وقال: «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ». (يس/ ١١)

وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لاجل أنّ هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره» «١».

وقد استنتج الفخر الرازى فى بعض عباراته:

«ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلّاما فى قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه لانه تعالى بيّن أنّ القرآن هدى للناس فى قوله تعالى «شَهْرُ رَمَضَانَ الّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِّلنَّاسِ ...».

(البقرة/ ١٨۵)

ثم قال: إنّه هدى للمتقين فهذا يدل على أنّ المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان» «٢».

و بالرغم من عدم تعارض التفاسير الماضية، إلّاأنّ التفسير الأول يبدو أوضح، ومن هنا يعرف عدم صحة الرأى القائل (بحمل «المتقين» فى الآية على المجاز، والقول بأنّ المراد منهم سالكو طريق التقوى وذلك للحيلولة دون الوقوع فى إشكال (تحصيل حاصل)، وذلك لأنّ للتقوى وكما قلنا- مراحل ودرجات، فمرحلة منها تؤهل لهداية القرآن، والمراحل الرفيعة الاخرى تكون وليدة هداية القرآن.

ويُطرح هنا سؤال وهو: إنّ الآيات التى جاءت بعد «هدىً للمتقين» عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلى هذا، أفلا تكون هداية القرآن تحصيلًا للحاصل يا ترى !

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى نقطة فى هذا المجال وهى: إنّ الوصول إلى هذه المراحل المذكورة فى السؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل كثيرة اخرى ينبغى طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللائقة بالإنسان، وهذه المرحلة عند

(١). التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢١.

(٢). المصدر السابق.

المتقين ستهديهم إلى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات فى القرآن تشبه ما جاء فى الآية السابقة، مثلما جاء فى الآية: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . (الحاقة/ ۴٨)

فعدت الآية الاولى القرآن «هدى للمتقين وسبباً لهدايتهم، والثانية «تذكرة» لهم، ونعلم أنّ «التذكر» من مقدّمات «الهداية»، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين إلى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها إلى نفس الحديث فى بداية سورة البقرة.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كممهّد للمعرفة والهداية.

ج ج

وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً».

إنَ «الفرقان»- كما يقول بعض أئمة اللغة-: (اسم مصدر)، وادعى بعض آخر (مصدر) إلّاأنّ أغلب المفسرين يصرحون بأن له- فى

موارد كهذا المورد- معنى فاعلياً مقروناً بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة)، ومعناه الشىء الذى يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الأنبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك «۱».

وبهذا، فالقرآن يقول بأنّ «التقوى هى الأرضية التى تعد للمعرفة والتى يمكن الاستدلال بها تماماً فى بعض المراحل، وتنطوى فى المراحل الاخرى ضمن الامدادات الإلهيّة المعنوية.

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر «يوم الفرقان»، وذلك من حيث إنّه يوم شهد آيات اللَّه البارزة تؤيد جند الإسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عِدَّة وعدد المشركين الذى يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

---

(۱). راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والميزان، والكشاف فى ذيل الآية نفسها.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۵

إضافة إلى هذا، فإنّ معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولذا سميت ب «يوم الفرقان».

وينبغى الالتفات إلى أنّ «فرقاناً» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت على عظمة ذلك النور الإلهى وعلى سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأى تجاه امور الحياة المهمّة، وعلى هذا، فثمرة شجرة التقوى هى الولوج فى كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرٍّ وفساد.

يقول الفخر الرازى فى شرحه لهذه الآية: بما أنّ لفظ الفرقان مطلق فينبغى حمله على كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا الفرقان إمّا فى أحوال الدنيا وإمّا فى أحوال الآخرة، والذى يتعلق بأحوال الدنيا إما أنّه يتعلق بالقلب وهى الاحوال الباطنة أو فى الأحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فاللَّه يهدى قلوب المؤمنين ويلقى فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنها الحقد والحسد والبغض والعداوة، بينما يمتلىء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة، لأنّ القلب إذا تنور بنور الإيمان زالت ظلمات هذه الرذائل عنه، أمّا الذى يتعلق بالظاهر، فاللَّه ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهم الرفعة «۱».

ج ج

والآية الثالثة التى هى جزء صغير من أطول آية، أى بعد أن بيّنت عدداً من الأوامر الإلهيّة قالت: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ . (البقرة/ ۲۸۲)

يقول القرطبى فى تفسيره:

«إنّه وعدٌ من اللَّه تعالى بأنّ من اتقاه علّمه، أى يجعل فى قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل اللَّه فى قلبه ابتداء فرقاناً، أى فصلًا يفصل به بين الحق والباطل» «۲».

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۵۳ (بتلخيص).

(۲). تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۴۰۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۶

إنّ هذا الحديث لا يعنى ترك كسب العلم، والاكتفاء بتهذيب النفس- كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون- بل المراد هو أنّ التقوى تهيىء الأرضية لكسب العلم الحقيقى أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمُعدَّة لبذر البذور.

صحيح أنّ جملة «اتقوا اللَّه» ليست شرطاً وأن جملة «يعلمكم اللَّه» ليست جزاء لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوى والعلم المستفادة من هذه الآية)، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً، بل هو تلميح إلى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، وإلّا فيعرض انسجام الآية للسؤال.

جج

إنّ رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون اللَّه ويؤمنون برسوله.

الأول يؤتيهم اللَّه كفلَيْنِ أو نصيبين من رحمته، نَصيباً لإيمانهم ونصيباً لتقواهم، أو نَصيباً لأجل إيمانهم بالأنبياء السالفين ونصيباً لأجل إيمانهم بالرسول صلى الله عليه و آله، وبالرغم من أنّ المخاطبين في الآية مؤمنون إلّاأنّ اللَّه يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله، كما أنّ شأن نزول الآية يبيّن أنّها بصدد فريق من نَصارى الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله «١».

والثاني: هو جعل اللَّه لهم نوراً- لأجل ايمانهم وتقواهم- يهتدون به في صراطهم:

«وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ .

وبالرغم من أنّ البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأنّ النور الذي ذُكِرَ فيها إشارة إلى النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبإيمانهم في يوم القيامة (كما تشير إلى ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيَنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم). (الحديد/ ١٢)

لكن لا دليل لهم على هذا التقييد، بل إنّ مفهومها- وكما يقول صاحب الميزان- واسع

---

(١) «الكِفْل» ما يعيل الإنسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض أنّ هذه المفردة حبشية دخيلة على العربية.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٤٧

يشمل الأنوار الإلهيّة كلها في الدنيا والآخرة، وعلى هذا فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين «التقوى و «المعرفة».

أمّا الأخير فهو: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وهذا كله لأجل إيمانهم وتقواهم.

توضيحات

١- علاقة العلم بالتقوى في الروايات الإسلامية

وفي الروايات الإسلامية أيضاً تمّ بيان مدى تأثير التقوى على مسألة العلم، هذه الروايات تبيّن بوضوح أنّ تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الأرضية لتلقي المعارف الإلهيّة.

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى «١».

٢- وجاء أيضاً في احدى خطب نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

«أمّا بعد فانّي أُوصيكم بتقوى اللَّه .. فإنّ تقوى اللَّه دواء داء قلوبكم وبصر عمى افئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم» «٢».

۳- وفی حديث عنه أيضاً أنّه عليه السلام قال:

«للمتقی هدیً فی رشاد وتحرّج عن فساد» «۳».

۴- ونقرأ أيضاً فی نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۸.

(۳) غررر الحكم.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۴۸

«اين العقول المستصبحة بمصابيح الهدی والأبصار اللامحة إلی منار التقوی «۱».

۵- ونختم حديثنا بحديث ذی معنی عميق عن الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله حيث قال: جاء فی وصيّة الخضر لموسی عليه السلام: «يا موسی وطِّن نفسك علی الصبر تلق الحلم واشعر قلبك التقوی تنل العلم ورَضّ (روّض) نفسك علی الصبر تخلص من الإثم» «۲».

۲- كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوی

ما هو تأثير التقوی واجتناب الذنوب وترك التلوث بها علی مسألة المعرفة؟ وبتعبير آخر: ما هی العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟ فی الحقيقة أنّ لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأی علاقة أقرب وأوثق من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوی ينبوع العلم، كما أنّ العلم ينبوع التقوی وليس هذا بأمر طبيعی فحسب بل إنّه أصل أساسی للسير فی طريق المعرفة.

فيمكن الاستدلال علی تأثير التقوی علی العلم بالطرق التالية:

أ) إنّ السنخية والتنسيق تسببان الجاذبية والإرتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الإنسان وتزكی بالتقوی تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية «فالسنخية تبعث علی الإرتباط العجيب».

ب) إنّ منجل التقوی يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الإنسان، ويُعدّ القلب وبهيئه لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر فإنّ بذور العلوم جميعها قد بذرها اللَّه فی هذه المزرعة، والمهم فی الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة.

وقد جاء فی حديث للمسيح عليه السلام مخاطباً فيه أنصاره قائلًا:

«ليس العلم فی السماء فينزل اليكم، ولا فی تخوم الأرض فيصعد عليكم، ولكن العلم

---

(۱). نهج البلاغة، خطبة ۱۴۴.

(۲). منية المريد للشهيد الثانی (ينقل عن بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۲۷).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۴۹

مجبول فی قلوبكم مركوز فی طبائِعكم، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم» «۱».

ج) نعلم أنّه لا وجود للبخل والحسد فی مبدأ عالم الوجود، وعلی ما جاء فی الآية:

«وَانْ مِّنْ شَیْءٍ الَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ الَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُوْمٍ . (الحجر/ ۲۱)

فإنّ خزائن النعم غير المتناهية عند اللَّه، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل إنّ جوده وكرمه يتجلّى أكثر «وَلا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ العَطاءِ إلّاجُوداً وَكَرَما».

وعليه، فإنّ الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إنّ التقوى تجعل الإنسان أهلًا للفيض الإلهى، وأى فيضٍ أرفع شأناً من المعارف والعلوم الإلهيّة؟

إنّ القلوب كالأوعية كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ هذِهِ الْقُلُوب أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُها أوعاها» «٢» والمهم هو أنّ نوسع هذه الأوعية، وأن لا تكون مقلوبة لا تسع ولو لقطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن فى ظل التقوى

أمّا التأثير المتبادل بين العلم والتقوى فهو أنّ العلم الحقيقى يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الإثم والذنب، ويمثل أمامه عواقب الامور، وهذه المعرفة تعين الإنسان على تبلور التقوى فى قلبه وعلى ابتعاده عن الإثم، ويتضح من هنا أنّ العلم ينبوع للتقوى كما أنّ التقوى ينبوع للعلم، غاية الأمر أنّ مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى

وعلى هذا المنوال فإنّ كلًا منهما يوثر فى الآخر تأثيراً متبادلًا، وقد تكون الآية: مشيرةً إلى هذه النقطة:

«انَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ .

(الاعراف/ ٢٠)

أى أنّ التقوى تكون فى البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هى النجاة من وساوس الشياطين.

ج ج

---

(١). تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

(٢). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣٥٠

نفحات القرآن ج ١ ٣٦٩

٣- استغلال العلاقة بين «العلم» و «التقوى»

بالرغم من أنّ علاقة المعرفة بالتقوى علاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد بينا ذلك بالتفصيل)، إلَّا أن هذا الحديث لا يعنى ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستغناء بتهذيب النفس بحجّة أنّ تهذيب النفس سيقذف العلم والمعرفة فى صدورنا كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة المعرفة وكسب العلم وظلوا فى جهل دامس.

إنّ الإسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحضور فى مجلس العلم كالحضور فى روضة من رياض الجنّة: «مجلس العلم روضةٌ من رياض الجنة».

كما عدَّ النظر إلى وجه العالم عبادة: «النظر إلى وجه العالم عبادة» «١»، وكل خطوة يخطوها فى سبيل العلم فهى خطوة نحو الجنة «٢».

وقد عدَّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء «٣».

وحفظ الحديث وكتابته من الفضائل العظيمة «۴».

ويدعو الإسلام- من جهة اخرى- إلى تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيئتها لقبول المعارف والعلوم الإلهيّة.

وعلى هذا، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا زملاءهم وأتباعهم بتركه، والتوجه إلى تصفية الباطن وتزكيتها على خطأٍ، لأنّ

التزکیـة هـذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة، وکذلک أولئک الذین انهمکوا فی کسب العلوم الرسمیة وأهملوا تهذیب النفس، فانهم فی ضلالة، نعم ینبغی السعی نحو کلیهما.

ججج

---

(۱). غرر الحکم.

(۲). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۶۴.

(۳). المصدر السابق، ج ۲، ص ۱۴.

(۴). المحجة البیضاء، ج ۱، ص ۱۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۱

۲- الإیمان والمعرفة

تمهید:

إنّ روح الإیمـان هی التسـلیم للحق والخضوع أمـام الحقـائق، وبمـا أنّ أکبر حقیقـة فی عالم الوجود هی ذات اللَّه المقدّسـة، فإنّ روح الإیمان تتمحور حول التوحید ومعرفة اللَّه.

إنّ الإیمان یفسح المجال أمام عقل الإنسان لأنّ یـدرک الحقائق کما هی حقاً، سواء کانت مرّة أو حلوة، وسواء کانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا.

إنّ معلومات أولئک الـذین لم یسلموا للحق هی تصوّرٌ وتمثّلٌ لرغباتهم وأهوائهم، لا لنفس الحقائق الموجودة فی الخارج، أنّهم یرون الدنیا بالشکل الذی یرغبون فیه، ولا یرونها بشکلها الواقعی.

وبهذا التمهید تتضح علاقة الإیمان بالمعرفة اجمالًا، ونتأمل الآن خاشعین فی آیات القرآن فی هذا المجال:

۱- «أَوَمَنْ کَانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً یَمْشِی بِهِ فِی النَّاسِ کَمَنْ مَّثَلُهُ فِی الظُّلُمَاتِ لَیْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...». (الأنعام/ ۱۲۲)

۲- «أَوْ کَظُلُمَاتٍ فِی بَحْرٍ لُّجِّیٍّ یَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ اذَا أَخْرَجَ یَدَهُ لَمْ یَکَدْ یَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ یَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ». (النور/ ۴۰)

۳- «وَالَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ أُولَئِکَ هُمُ الصِّدِّیقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ اجْرُهُمْ وَنُورُهُم ...». (الحدید/ ۱۹)

۴- «افَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ فَوَیْلٌ لِّلْقَاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِکْرِ اللَّهِ أُولَئِکَ فِی ضَلالٍ مُّبِینٍ . (الزمر/ ۲۲)

ججج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۲

جمع الآیات وتفسیرها

تأثیر الإیمان علی الرؤیة الصحیحة:

تحدثت الآیة الاولی عمّن کانوا موتی ثمّ أحیاهم اللَّه وجعل لهم نوراً یهتدون به فی الطریق.

والمراد من الموت والحیاة هنا هو الإیمان بعد الکفر، کما جاء ذلک فی الآیة: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ اذَا دَعَاکُمْ لِمَا

يُحْيِيكُمْ . (الانفال/ ٢۴)

وعلى هذا فالحياة هى حياة الإيمان الحقيقى والصادق، الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة.

والجانب المقابل لجانب الأحياء، هو جانب أولئك الـذين ضـلوا فى ظلمات الكفر ولم يخرجوا منها أبداً «كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

يعتقد كثير من المفسـرين أنّ هذا النور هو نور القرآن، وقد فسّـره بعضـهم بنور الدين، وبعضهم بنور الحكمة «١»، وقد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة «٢»، لكن المسلم أنّ لهذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهى أنّ مراد القرآن هو اكمل مصاديقه.

إنّ التعبير ب «يمشى به فى الناس» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية فى الدنيا، كما يكشف عن أن «الإيمان» يَعِدُّ أرضية «المعرفة» فى قلب الإنسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء فى الحياة الدنيا.

ج ج

وقد شـبهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحرٍ لُجّى تتلاطم الأمواج على سـطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث إذا أخرج شخص يده لم يكد يراها أحد.

---

(١). التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٧٢؛ تفسير القرطبى، ج ۴، ص ٢١۴؛ تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٠.

(٢). تفسير روح الجنان، ج ۵، ص ۵٠.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣۵٣

وقد أكدت فى النهاية: أنّ الذين لم يجعل اللّه لهم نوراً فمالهم من نور أبداً.

إنّ عبارات هذه الآية تثبت بوضوح أنّ الكفر وعدم الإيمان ظلمات، وأنّ الإيمان والإسلام نور.

إنّ الأخطاء التى تصـدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجـة من الكثرة بحيث يحارُ الناظر اليهم كيف أنّهم لا يكادون يرون حتى موضع أقدامهم؟! وكيف أنّهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقـاً أنّه لا ظلام أشدّ من الظلام الـذى رسـمته الآيـة، فإنّ طبيعـة أعماق البحار هى الظلام، لأنّ نور الشـمس لا ينفـذ إلّا لمـدى أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شىء سوى الظلام الدامس، هذا إذا لم يكن البحر لجياً، وإلّا فلا تنفذ أشعة الشمس إلّالمدى قريب جداً من سطح البحر، وفضلًا عن هذا فإنّ الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً.

ويقول البعض: إنّ المراد من الظلمات الثلاثة فى الآية هى ظلمات الكفار فى الاعتقاد، وظلماتهم فى الكلام، وظلماتهم فى العمل.

ويعتقد بعض أنّ المراد منها هو: ظلمات القلب وظلمات الباصـرة وظلمات السمع، وأضاف بعض آخر: أنّ هذه الظلمات عبارة عن: أنّه لا يعلم ولا يعلم أنّه لا يعلم، ويظن أنّه يعلم «١»، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير.

ج ج

والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين ب «الصديقين» و «الشهداء» أضافت: «لهم أجرهم ونورهم».

إنّ «الصدّيق» صـيغة مبالغـة لصادق، وتعنى كثير الصـدق، ويقول البعض: إنّها تعنى الشـخص الـذى لم يصـدر منه كذب أبداً، ويعتقد بعض آخر: إنّها تعنى الذى اعتاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وبتعبير آخر: حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب.

---

(١). التفسير الكبير، ج ٢۴، ص ٨.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٤

ويقول البعض: إنّها تعنى الشخص الصادق فى اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدق اعتقاده «١».

وتجتمع جميع هذه المعانى فى القول بأنّها صيغة مبالغة لصادق، لأنّ المفهوم آنذاك يكون شاملًا لجميع المعانى المتقدمة، وعلى هذا فالمسلم أنّ المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات الرفيعة فى ايمانهم.

أمّا «الشهداء» فقد يكون المراد من ذلك هو أنّ المؤمنين الصديقين لهم أجر كأجر الشهداء، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فاجابه الإمام عليه السلام: «إنّ المؤمن شهيد» ثم تلا الآية: «وَالَّذِيْنَ آمَنُوا ...» «٢».

كما يحتمل أن يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء على أعمال الناس، لأنّ المستشفّ من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الأنبياء والأئمّة) يشهدون على الأمم.

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين «٣».

إنّ «الأجر» فى عبارة «لهم أجرهم ونورهم» تعنى جزاء الأعمال، أمّا «النور» ففسّرَه البعض بأنّه النور الذى يسعى بين أيدى المؤمنين الذى يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلَّا أنّه لا دليل على هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، فينبغى القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذى يجعله اللَّه للمؤمنين فى الدنيا كما يشمل النور الذى يهتدى به المؤمنون إلى الجنة يوم القيامة «۴».

---

(١). المفردات ومجمع البحرين مادة (صدق)، تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٨۶؛ تفسير المراغى، ج ٢٧، ص ١٧۴؛ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣۶.

(٢). تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨.

(٣). احتمل البعض أنّ جملة «وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ليست عطفاً على الجملة التى سبقتها، وأنّها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد جدّاً.

(۴). الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر فى جميع هذه الجمل ترجع إلى المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأنّ الضمير فى «لهم» يرجع إلى «الذين آمنوا» والضميرين الآخرين يرجعان إلى «الصديقين» و «الشهداء»، أى أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٥

وقد طرحت الآية الرابعة والأخيرة استفهاماً تقريرياً قائلة: «افَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ ؟ وهذا دليل واضح على أنّ قبول الإيمان متزامن ومقترن مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور الإلهى، النور الذى يضيء العالم أمام أعين المؤمن، ويكشف له حقائقه كما هى.

إنّ المراد من «شرح الصدر» هو اتساع الروح إلى درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة، وما يقابل شرح الصدر هو «ضيق الصدر» أى تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شيءٍ من الحقائق، وبتعبير آخر: إنّ شرح الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذى يُعَدُّ الإرتباط بالذات اللامتناهية أحد عوامله، نعم إنّ الروح التى تتخذ صبغة اللَّه وتتسع تكون أهلًا لقبول العلوم والمعارف الإلهيّة.

إنّها لا تتسع فحسب، بل تلين وتتخصب وتتهيء لنثر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية فى النهاية: «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّه .

ج‌ج

توضیح

علاقة الإیمان بالعلم فی الروایات الإسلامیة:

١- جاء فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «إنّ المؤمن ینظر بنور اللَّه» «١» فطلب أحد الصحابه بیان معنی الحدیث فقال علیه السلام: «هذا إنّما هو لأجل أنّ اللَّه تعالی قد خلق المؤمن من نوره واحاطه برحمته».

٢- ونقرأ فی حدیث آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«اتقوا فراسة المؤمن فانّهُ ینظر بنور اللَّه ثم تلا: إنّ فی ذلک للمتوسمین» «٢».

٣- وفی روایة اخری عن الإمام موسی بن جعفر علیه السلام عن آبائه الکرام عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

---

(١). بحار الأنور، ج ۶۴، ص ٧۴، ح ٢.

(٢). المصدر السابق، ح ۴.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣۵۶

قال: «إیّاکم وفراسة المؤمن فانّه ینظر بنور اللَّه تعالی «١».

۴- ونجد أنّ هذه الأمثال اتخذت أهمیةً کبری کما هو المشاهد فی بعض الروایات حیث ینقل نهج البلاغة عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «اتقوا ظنون المؤمنین فإنّ اللَّه سبحانه جعل الحق علی السنتهم» «٢».

۵- وجاء عنه علیه السلام فی نهج البلاغة أیضاً أنّه قال: «وبالصالح یستدل علی الإیمان وبالإیمان یعمر العلم» «٣».

۶- ونختم البحث بحدیث عن الإمام الباقر علیه السلام یقول فیه: «ما من مؤمن إلّاوله فراسة ینظر بنور اللَّه علی قدر إیمانه» «۴».

وکما قلنا فی بدایة البحث، فإنّ الإیمان الصادق یجعل الإنسان عاشقاً للحق والحقیقة ومذعناً أمام الواقعیات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الإنسان من جمیع القیود وتتهیأ لقبول جمیع المعارف.

٣- علاقة «الصبر والشکر» ب «المعرفة»

اشارة

فی البدایة نقرأ خاشعین الآیات الشریفة التالیة:

١- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَی بِآیَاتِنَا أنْ أَخْرِجْ قَوْمَکَ مِنَ الظُّلُمَاتِ الیَ النُّورِ وَذَکِّرْهُمْ بِایَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَاتٍ لِّکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ». (ابراهیم/ ۵)

٢- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِیُرِیَکُمْ مِّنْ آیَاتِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَاتٍ لِّکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ». (لقمان/ ٣١)

٣- «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَیْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِیثَ

---

(١). بحار الانوار، ج ۶۴، ص ٧۵، ح ٨.

(٢). نهج البلاغة الکلمات القصار، الکلمة رقم ٣٠٩.

(٣). نهج البلاغة، خطبة ١۵۶.

(۴). عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة، ص ٩٢).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٧

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (سبأ/ ١٩)

۴- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* انْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (الشورى ٣٢- ٣٣)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

السير فى الآفاق والأنفس مع الصابرين:

تحدثت الآية الاولى عن «بنى اسرائيل»، حيث بُعثَ فيهم موسى عليه السلام بمعاجز وآيات إلهية واضحة، وكان موظَّفاً بأن يخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد إلى نور التوحيد الذى هو ينبوع جميع البركات والخيرات، ولأن يذكرهم بأيام اللَّه، ثم قالت الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِکَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ».

ما المراد من أيام اللَّه؟

هناك بحث بين المفسرين فى هذا المجال، فمنهم من فسرها بالنِّعَم والابتلاءات الإلهيّة «١»، ومنهم من فسرها بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه مَنْ اعتبرها إشارة إلى أيّام عذاب الأقوام الطاغية والعاصية والظاهر عدم التعارض للأيّام بين هذه التفاسير لأنّها كلها من «أيّام اللَّه».

إنّ معناها الواضح، واضافتها إلى اللَّه «اضافة تشريفية»، والمراد منها هو جميع الأيّام المهمّة من حيث أهميّتها البالغة، أو من حيث إنّ فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة على جند الشرك والظلم، وكالنجاة من الظَّلَمَة والطواغيت وكالموفقية لأداء الجهاد أو فريضة عظيمة اخرى.

أو من حيث شمول عذاب اللَّه ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نبذة من العقاب الإلهى لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا، كل هذه هى «أيّام اللَّه» وداخلة فى مفهومها الواسع.

---

(١). لقد جاء هذا التفسير فى عدد من الاحاديث النبوية. تفسير الميزان، ج ۵، ص ١۵ و ١۶؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ۵٢۶.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٨

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ «صبور» و «شكور» صيغةٌ مبالغةٌ، الاولى تعنى كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فذلك لأجل أنّ دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة اخرى يحتاج إلى صبر وتأنٍ.

إضافة إلى هذا، فانّه لا يستفيد من هذه الحوادث إلّاأولئك الذين يقدِّرون نعَم اللَّهِ ويشكرونه عليها، وعلى هذا، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة والعلم.

كما يحتمل أن يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أنّ هؤلاء مجهزون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النِعَم، وعلى هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يغترون عند نزول النِعَم، فلا يضيّعون أنفسهم على أيّة حال، فهم مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العِبَر

والدروس من هذه الحوادث العظيمة.

فى الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة: «إِنَّ فِی ذلِکَ لَآياتٍ لِّکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ»، وقد ذُكِرَت بعد التعرض لحركة السفن فى البحار والمحيطات التى تتم بايعاز من اللَّه وبالاستعانة بالرياح فتطوى المسافات البعيدة وتصل إلى مقاصدها بسرعة.

بديهى أنّ هذا الموضوع هو إحدى آيات اللَّه التكوينية، وآية من آيات النظام الإلهى وقدرة اللَّه.

لكن هل يا ترى يكون استثمار هذه الآيات الإلهيّة الموجودة فى عالم الوجود وحتى الكامنة فى هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنّه خاص بأُولئك الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبرٍ وتأنٍ إلى المستوى الذى يتيح لهم العلم البشرى فرصةَ الاستثمار، ومن جهة اخرى فإنّ الدافع نحو «شكر المُنعِم» نفسه عامل للسعى والحركة فى طريق المعرفة.

يقول «القرطبى» فى تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تتبين فى صدر كل مؤمن إنّما تتبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء» «۱».

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۱۴، ص ۷۹.

وقد جاء فى تفسير «روح البيان»:

«مبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى النفس والآفاق» «۱».

والجميل هنا هو أنّ الهواء الذى يحيط بالكرة الأرضية من ألطف الموجودات، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة فى البحار فحسب، بل كذلك الغيوم التى تُعَدُّ ينابيعَ للغيث، فيأخذ بها نحو الصحارى والأراضى الميتة فيحييها، كمابانتقال الهواء الحار إلى المناطق الباردة والهواء البارد إلى المناطق الحارة تتهيأ الأراضى الميتة للحياة، واضافة إلى هذا فإنّ الهواء يلقح النباتات كالزهور والأشجار ويحمل احياناً البذور فتُزرع فى الأماكن التى تسقط فيها، أَلَمْ تكن هذه من آيات اللَّه؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

وقد جاء فى حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر» «۲» وهذا الحديث تأكيد لما جاء فى الآيات.

ج ج

وأخيراً فإنّ الآية الثالثة أشارت إلى قوم سبأ، حيث شملهم التوفيق الإلهى فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال فى «اليمن»: وادخروا فيه الماء الكثير، وتمكنوا من ايجاد بساتين كثيرة، فغُمروا فى النِعَم والفرح، إلّاأنّهم سلكوا طريق كفران النعمة، فتسلطت الأقوام المرفهة على الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فَعَمَّ مساكنَهُم الخرابُ والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجار السد، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم اللَّه أحاديث للآخرين «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وأهلكهم جميعاً «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، ثم أضاف القرآن: «إِنَّ فِی ذلِکَ لَآياتٍ لِّکُلِّ صَبّارٍ شَکُورٍ».

وذلك لأنّهم يستخلصون الدروس والعِبر بدقتهم وتأنيهم.

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۹۸.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۳۲۳؛ تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۶۲؛ تفسير المراغى، ج ۲۱، ص ۹۷؛ تفسيرالقرطبى، ج ۵، ص ۳۵۷۱ وتفاسير اخرى

ومن جهة فإنّ هذه الحقيقة تثبت، وهى: أنّ بين الحياة والممات مسافة قصيرة جدّاً، بحيث يمكنك البحث عن الممات فى قلب الحياة، فإنّ وفرة الماء التى سببت تقدم قوم سبأ وإزدهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!

ومن جهـة اخرى فإنّ هـذا يكشف عن شـدة ضـعف هـذا الإنسان المغرور، وذلك لأنّه يقال إنّ السدّ (الذى اطلق عليه سدّ مأرب)، قد ثُقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً فى البداية ثم توسع الثقب إلى أن أدّى بالسدّ لأنّ ينهدم بالكامل، وبهذا نرى أن جرذاناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة.

ومن جهـة ثالثـة، فإنّ المستكبرين من قوم سبأ الذين لم يَرُق لهم رؤية المستضـعفين بقربهم، وحسـبوا أنّه ينبغى وجود فاصلة أو سـد عظيم كسـد مأرب بين أقليـة الأشـراف والأكثرية المستضـعفة، طلبوا من اللَّه أن يبعد مدنهم عن مدن المستضـعفين كى لا يتمكنوا من السـفر مع المستكبرين، ويبقى امتياز السـفر خاصاً بهم «رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، (سبأ/ ۱۹) إلّاأنّ اللَّه فرقهم بشكل حيث لا هم بقوا ولا ظنونهم الباطلة.

ومن جهة رابعة، فإنّ حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر اللَّه، وما صحوا إلّابعد أن انتهى كل شىء.

وعلى هذا، فيمكننا بالتأمل والدقّة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث «۱».

النتيجة:

إنّ المسـتشف من الآيات الأربع الماضـية هو: أنّ كل من كان أدق وأكثر صبراً فى دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فإنّ له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدتينِ للمعرفة.

ج ج

---

(۱). ينبغى الالفتـات إلى أنّ مفردة «أحـاديث» التى جـاءت فى الآيـة، منتهى الجموع وتكشف عن وجود أحـاديث وقصـص كثيرة فى ماضى قوم سبأ لا قصة واحدة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۶۱

۴- المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة

تمهيد:

المعروف هو أنّ الثروة تجلب الثروة، أى أنّ مقـداراً من رأس مال يكون أرضـية لربح رأس مال أكبر، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الإنسان من رأس ماله.

أنّ هـذا الأـمر ينطبق على العلوم والمعارف كـذلك، فالـذين يملكون رأس مالٍ من العلوم تتوفر عنـدهم الأرضـية الخصـبة لتقبل علوم ومعارف اخرى، ولهذا قلنا: إنّ المعرفة تهىء الأرضية للمعرفة أى لنيل معارف اخرى هى أرفع وأوسع.

وقبل الخوض فى البحث نمعن خاشعين للآيتين التاليتين:

۱- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . (الروم/ ۲۲)

۲- «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(النمل/ ۵۲)

جمع الآيات وتفسيرها

مالم تكن منّا لن تطلع على اسرارنا:

إنّ الآيـة الاـولى من جملـة الآيـات الكثيرة فى سورة الروم التى أشـارت لآيات الآفاق والأنفس، وعـدت بعضاً من آيات اللَّه فى العالم الأكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الأصغر «الإنسان» فاشارت الآية إلى العالم الأكبر من جهة «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثم أشارت إلى بعض دقائق خلق الإنسان من جهة اخرى «وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .

الاختلاـف ليس فى الألسنة والألـوان الظاهرة فحسب، بل فى السـنة الفكر وألوان الأذواق والبواطن، فانّها مختلفـة إلى درجـة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۲

بالكامل، وهذا الاختلاف جارٍ حتى بالنسبة للتوأم.

إنّ هـذا الاختلاف يسـبب- من جهة- التعارف والاختلاف بين الناس، لأنّه إذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعى للحياة، كما هو الحال بالنسـبة للتوأم فالـذى يعاشـرهم كثيراً يقع فى اخطاء تجاههم، فقد يقدم أحدهم من السـفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذى لم يسافر، أو يتمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاحٍ، أو يعطى الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا مـا الـذى يحصـل لو كـان النـاس جميعـاً متشابهين من جميع الجهات؟!! ومن جهـة اخرى، فإنّ هـذا التنوع والاختلاف يسـبب انخراط كـل مجموعـة من النـاس فى جـانب من جوانب الحيـاة وبهـذا الاختلاـف فى الأذواق والقابليات تسـدّ جميع احتياجات البشـر الاجتماعية فلا يحصل خللٌ فى هذا المجال، ألم تكن هذه الدقّة العجيبة فى هذا النظام من آيات اللَّه؟!

والجـدير بالذكر أنّ المفسـرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسـير (اختلاف الألسـنة) فتارة قالوا: إنّ المراد منه هو الاختلاف فى اللغة، حيث نعلم أنّ اللغات الموجودة حالياً أكثر من ألف لغـة، وهـذا التنوع الـذى لا نريـد الخوض فى تفصـيلاته فعلًا، جيـد لتتعرف الأقوام المختلفة على بعضها البعض.

وتارة قالوا: إنّ المراد هو اللهجات وكيفية حديث الأشـخاص التى تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً كبيراً، فلكلٍ منطق وأسلوب فى البيان يعبّر عن شخصيته.

وتارة قالوا: إنّ المراد هو الأصوات أو ما يصـطلح عليه ب «الذبـذبات الصوتيـة» التى تختلف عند الأشـخاص اختلافاً فاحشاً، ولهذا فإنّ الأعمى يميز الأشخاص من أصواتهم، كما أنّ البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح أنّ اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض فى الآية هو لأجل الإشارة إلى أنّ جميع موجودات العالم- صغيرها وكبيرها، وأبسطها وأعقدها- بحسب الظاهر- تحكمها قوانين وأنظمة دقيقة، و. هى آيات لعلم اللَّه وقدرته وينبغى الإشارة

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۳

إلى أنّ الآية صرحت فى النهاية: «انَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ نعم إنّ العلماء هم الذين يدرسون أسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الاخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة أرضية خصبة لمعارفهم الأكثر والأدقّ.

ج ج

وقـد تحـدثت الآية الثانية عن مجاميع صـغيرة مفسدة تعيش فى «وادى القرى بين قوم صالح (على ما يقوله المفسـرون)، وكان عددهم تسعة رهـط (أى مجموعـات صـغيرة)، وكانوا يفسـدون فى الأرض دائماً كما يصـفهم القرآن الكريم: «وَكَانَ فِي الْمَدِيْنَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . (النّمل/ ۴۸)

أمهلهم اللَّه كثيراً كفرصةٍ للتوبة والرجوع إلى أنفسهم، لكن ما زادهم الأمهال إلّاغروراً، وكان نهاية أمرهم أن أنزل اللَّهُ عليهم صاعقة من السماء، وزلزلة من الأرض ختمت حياتهم.

يقول القرآن فيهم: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيةً بِمَا ظَلَمُوا» أى خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.

ثم يضيف: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

إنّ عبارة: «بِمَا ظَلَمُوا» تدل على أنّ الظلم هو السبب فى دمار البيوت وخرابها، وقد نُقِل عن ابن عباس أنّه قال: إنّى وجدت هذه الحقيقة فى كتاب اللَّه وهى: إنّ الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.

وقد جاء فى التوراة: «يابن آدم لا تظلم فيُهدم بيتك» «١».

وينبغى الالتفات هنا إلى أنّ مفردة «خاوية» تعنى- فى الأصل- خالية، إلّاأنّ كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أنّ البيت إذا خلى وهُجِر خرِبَ وانهدم «٢».

---

(١). تفسير روح المعانى، ج ١٩، ص ١٩۴.

(٢). ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوى أحدهما الخلو والثانى السقوط والانهدام، ومن هنا يعبر عرب الجاهلية عن النجم إذا سقط (خوى النجم) إلّاأنّ الظاهر أنّ المعنى الأولى لهذه المادة هو: الأول فقط، ويستعمل تعبير (خوى النجم) إذا ما غرب نجم أو افل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية أنّ طلوع كثير من النجوم متزامن مع المطر وإذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم).

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣۶۴

النتيجة:

من المعلوم أنّ آيات اللَّه- سواء كانت آفاقية أو انفسية أو تعلقت بدروس وعبر تاريخ الأقوام الغابرة- تخص الجميع، وبما أنّ الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها، يقول القرآن عنها «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وتارة يقول: «للمتقين».

وتارة يقول: «لكل صبّار شكور».

وهذه إشارة إلى أنّ هذه الفرق- هى التى تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، لِما عندهم من أرضيّه خصبة لهذا الأمر.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن المجيد لا تخلو من الإشارة إلى حقيقة أنّ المعرفة تعتبر أرضيّة معدّة وخصبة لمعارف أكثر، كما جاء ذلك فى الآيات التالية:

«كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (الاعراف/ ٣٢)

«يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (يونس/ ۵)

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (فصلت/ ٣)

«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (البقرة/ ٢٣٠)

كما اتضح- ممّا مر- الجواب على السؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الإلهيّة.

۴- علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إنّ الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت إلى مصادر المعرفة وسوف لا يبالى بآيات اللّه ومواعظه.

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٥

ومن هنا ينبغى القول بأنّ الاحساس بالمسؤولية والخوف من اللّه هو احدى أرضيات المعرفة التى تُعِدُّ روح الإنسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة.

وبالالتفات إلى هذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيْدٌ* إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». (هود/ ١٠٢- ١٠٣)

٢- «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ .

(سبأ/ ٩)

٣- «وَتَرَكْنَا فِيْهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُوْنَ الْعَذَابَ الأَلِيْمَ . (الذاريات/ ٣٧)

شرح الآيات وتفسيرها

المعرفة والشعور بالمسؤولية:

إنّ الآية الاولى بعدما أشارت إلى ماضى بعضٍ من الأقوام السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنة) ونزول أنواع من العذاب عليها، قالت: «وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ» ثم قالت فى النهاية: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» ثم قالت: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ» أى فى قصص الأمم السالفة وعقابهم ونزول العذاب عليهم آية واضحة لمن خاف عذاب الآخرة.

لقد جاءت مفردة «آية» نكرة، وذلك للاشارة إلى عظمة وأهميّة هذه الآية الإلهيّة ودور العبرة فيها، والتعبير ب «لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ» إشارة إلى الأرضية المُعدَّة للمعرفة عند أولئك الذين يخافون من عذاب الآخرة.

أمّا أولئك الذين لا يخافون عذاب الآخرة فلا يدركون علاقة هذه الذنوب بأنواع العذاب الإلهى، إنّهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً، أو يرجعون أسبابه إلى حركة الأفلاك

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٦

والنجوم وأوهام وخرافات اخرى، ولا يدركون الأسباب الحقيقية له «١».

إضافة إلى هذا، فإنّ الإنسان لا يقطع بالعذاب الدنيوى ما لم يقطع بالعذاب الاخروى، لأنّ كليهما وليد شىء واحد وهو معرفة اللّه ومعرفة عدالته.

إنّ جملة «وهى ظالمة» تلميح إلى أنّ الأخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرى وبتعبير آخر: فإنّ جميع الانحرافات العقائدية والسلوكية داخلة فى مفردة الظلم.

ججج

والآية الثانية بعدما أشارت إلى آيات اللّه فى السموات والأرض: وبيان قدرته على كلّ شىء أكّدت بأنّ اللّهَ لم يعجز عن عذاب أولئك العصاة الذين سخروا بآيات اللّه واتهموا الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بالجنون، واعتبروا المعاد محالًا، إنْ شئنا خسفنا بهم

الأرض، أو أسقطنا عليهم من السماء أحجاراً سماوية: «إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ».

إنّ «كِسَف» جمع كِسْف ويعنى القماش المقطّع قطعاً قطعاً، وقد استعملت هذه المفردة هنا إشارة إلى بعض الكرات السماوية التى تنفجر تحت ظروف خاصة وتتحول إلى قطعٍ متعددة تسبح فى السماء، وإذا ما دخلت فى مدار الأرض، تحولت (بايعاز من اللَّه) إلى أمطار من حجر، أو سقطت على وجه الأرض بصورة قِطَع حجرية كبيرة، كلٌّ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الأرض، كما أنّ العلماء اكتشفوا نماذَج من هذه الكُتَل الحجرية فى منطقة «سيبيريا».

ثم قالت الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ أى لكل عبد راجعٍاللَّه وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة.

المسلم هو أنّ هذه الآيات عامة لجميع البشر، لكن لا ينتفع بها إلّامن خاف اللَّه وشعر بالمسؤولية «٢».

---

(١). لقد اشير إلى هذا الأمر فى التفاسير التالية: تفسير روح المعانى، ج ١٢، ص ١٢٣؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٥٨؛ تفسير روح البيان، ج ۴، ص ١٨٥.

(٢). تفسير القرطبى، ج ٨، ص ۵٣۴۶.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣۶٧

وبتعبير آخر: فإنّ جملة «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ بمثابة بيان لسبب جملة «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً»، أى أنّ الالتفات إلى حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات «١».

وفى الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية، رأينا لا يخلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب.

ج ج

أما ثالث وآخر آية فى البحث، فقد أشارت مرّة اخرى إلى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذى بلغ من العار أَقصاه، وسخر من جميع قيم الإيمان والإنسانية وغمر فى وحل الفساد والفحشاء ...

إنّ الآية بعدما أشارت إلى تدمير مدنهم وتخريبها قالت: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يعتقد الكثير أنّ مدن قوم لوط كانت فى الشامات قرب «البحر الميت» أو بين الشام والحجاز، وكان يطلق عليها «المدائن المؤتفكة»، ويقال: إنّه عندما زلزلت الأرض من مدنَهم هدمتها، ثم نزلت عليهم أمطار من الأحجار، وانشقت عندها الأرض شقاً نفذ فيه ماء «البحر الميت»، وبدل هذه المدن إلى مستنقعات نتنة، ولهذا يدعى البعض العثور على آثار من الأعمدة وغيرها من هذه المدن فى أطراف البحر الميت.

وعلى أيّ حال، فإنّ هذه الآثار الباقية- سواء كانت فى اليابسة أو تحت المستنقعات الآسنة- درس وعبرة، ولا ينتفع بهذا الدرس إلّاالذين يخافون عذاب اللَّه، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة).

وبتعبير بعض المفسرين:

آية العبرة هذه هى لُاولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلًا «٢».

---

(١) تفسير روح المعانى، ج ٢٢، ص ١٠۴.

(٢) تفسير روح المعانى، ج ٢٧، ص ١٣.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٣۶٨

النتيجة:

إنّ الخوف سواء كان بمعنى الخوف من اللّه أو من عـذابه أو من الذنب والمعصـية (لأنّ جميعها ترجع إلى معنى واحد)، يُعِدُّ الأرضـية لروح الإنسـان لتقبـل الحقـائق والمعـارف، الإنسـان مـا لم يشـعر بالمسؤوليـة لا ـ يتجه نحو مصـادر المعرفـة ولا يبحث فى آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع.

وخلاصـة الحـديث، أنّ الحركـة نحو العلم والمعرفـة كـأى حركـة اخرى تحتاج إلى محرك، والمحرك يمكنه أن يكون أحـد الامور التالية:

۱- جاذبية العلم والعشق للمعرفة التى أُودعتْ فى روح الإنسان منذ البداية.

۲- الاطلاع على النتائج المثمرة والآثار القيمة للمعرفة، ووصول الإنسان إلى المراحل الرفيعة تحت ظلها.

۳- الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة والجزاء الترتب عليها.

إنّ كلًا من هذه الامور يمكنها أن تهىء الأرضـية المناسبة لطىّ هذا الطريق الملىء بالتعرجات، وإذا ما تعاضدت هذه الامور مع بعضها البعض، فإنّ الحركة نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً.

وآخر الحديث: إنّ أكبر فخر للإنسان هو العلم والمعرفة، والجاهلون هم موتى الأحياء.

إنّ بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلّامع توفر الأسباب ورفع الموانع والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۶۹ وفى الجهل قبل الموت موت لأهلهفأجسامهم قبل القبور قبور

وإنّ امرءاً لم يحيى بالعلم ميتةفليس له حتى النشور نشورٌ

ربّنا علّمنا المعارف الحقيقية، والأرفع من ذلك أى

معرفة ذاتك المقدّسة الطاهرة وصفاتك الجليلة.

إلهى! نعلم أنّ أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا،

والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أى أفعالك،

إلّا أنّه لا يتيسر طىّ هذا الطريق الصعب إلّابتوفيقك، فوفقنا

وثبت أقدامنا.

يا مولانا! إنّ شياطين الدرب كثيرون، وأوديته

خطرة، وموانعه عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلّا

بامداداتك، فزودنا بها وبألطافك الخاصة.

آمين يا رب العالمين

نهاية المجلد الأول من نفحات القرآن

(التفسير الموضوعى)

صباح الجمعة- ۸ رجب ۱۴۰۸ ه. ق

الموافق ل ۷/ ۱۲/ ۱۳۶۶ ه. ش

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنـوار، للعلاّمـۀ فیض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّۀ" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیۀ الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذۀ هذه المدینۀ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرۀ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحۀ صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَۀِ ۱۳۴۰ الهجریّۀ الشمسیّۀ (=۱۳۸۰ الهجریّۀ القمریّۀ)، مؤسّسۀً و طریقۀً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّۀ" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَۀِ ۱۳۸۵ الهجریّۀ الشمسیّۀ (=۱۴۲۷ الهجریّۀ القمریّۀ) تحتَ عنایۀ سماحۀ آیۀ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَۀِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّۀ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّۀ، ثقافیّۀ و علمیّۀ...

الأهداف: الدّفاع عن ساحۀ الشیعۀ و تبسیط ثَقافۀ الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّۀ، تخلیف المطالب النّافعۀ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلۀ أو الرّدیئۀ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولۀ) و الحواسیب (=الأجهزۀ الکمبیوتریّۀ)، تمهید أرضیّۀٍ واسعۀٍ جامعۀٍ ثَقافیّۀٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعۀ ثقافۀ القراءۀ و إغناء أوقات فراغۀ هُواۀِ برامِج العلوم الإسلامیّۀ، إنالۀ المنابع اللازمۀ لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرۀ فی الجامعۀ، و...

- مِنها العَدالۀ الاجتماعیّۀ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزۀ الحدیثۀ متصاعدۀً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِقِ و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافۀِ الاسلامیّۀ و الإیرانیّۀ – فی أنحاء العالَم - مِن جِهۀٍ اُخرَی.

- من الأنشطۀ الواسعۀ للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبۀ، نشرۀ شهریّۀ، مع إقامۀ مسابقات القِراءۀ

ب) إنتاجُ مئات أجهزۀٍ تحقیقیّۀ و مکتبیۀ، قابلۀ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّۀِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکۀ و... الأماکن الدینیّۀ، السیاحیّۀ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّۀ "www.Ghaemiyeh.com و عدّۀ مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّۀ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّۀ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابۀ الأسئلۀ الشرعیّۀ، الاخلاقیّۀ و الاعتقادیّۀ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرۀ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّۀ و اعتباریّۀ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّۀ، الجوامع، الأماکن الدینیّۀ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامۀ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسۀ" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسۀ

ی) إقامۀ دورات تعلیمیّۀ عمومیّۀ و دورات تربیۀ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلۀ السَّنَۀ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایۀ"القائمیّۀ"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّۀ الشمسیّۀ (=۱۴۲۷ الهجریۀ القمریّۀ)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّۀ الوطنیّۀ: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com
البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التِّجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

المیزانیّـهٔ الحالیّـهٔ لهـذا المرکز، شـَعبیّـهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّـهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز
القائمية
اصفهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩